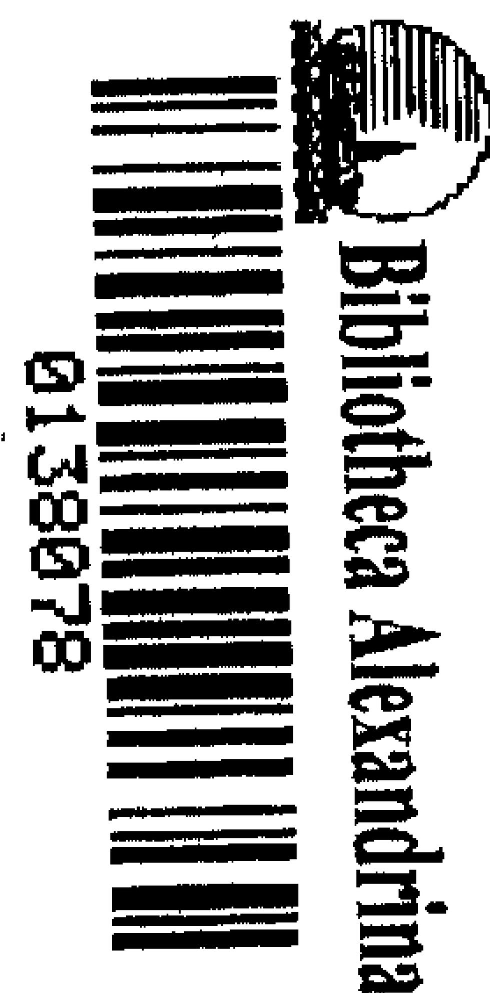
جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

تأليف

الدكتور
بسيوني عبد الفتاح بسيوني
المدرس بجامعة الأزهر



الجزء الأول

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

تأليف
الدكتور
بسيوني عبد الفتاح بسيوني
المدرس بجامعة الأزهر



الجزء الأول

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تعالى وأصلى وأسلم على رسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن نهج نهجه إلى يوم الدين ...

أما بعد :

فهذا هو الجزء الأول من كتاب « علم المعانى » دراسة بلاغية ونقدية . وقد خصصته لدراسة أجزاء الجملة ، فبدأته بتمهيد تناول الحديث عن النظم وصياغة الجملة وماوراء ذلك من اعتبارات وملاحظات .. كما تناول بيان مفهوم الفصاحة والبلاغة .. ثم أتبعته بفصول الكتاب الأربعة وهى :

الفصل الأول : أحوال الإسناد الخبرى .

الفصل الثانى : أحوال المسند إليه .

الفصل الثالث : أحوال المسند .

الفصل الرابع : أحوال متعلقات الفعل .

وسيتلوه الجزء الثانى بمشيئة الله تعالى والذى خصصته لدراسة الجملة وإرتباطها بغيرها من الجمل .. فالله عز وجل أسأل أن ينفع به وأن يجزينا خير الجزاء وهو الهادى إلى سواء السبيل ؟

المؤلف

بسيونى عبد الفتاح بسيونى

عنيزة ـ القصيم السعودية

فى ١٧ رمضان سنة ١٤٠٦ هـ

تمهيد

اللفظ والمعنى والنظم : الألفاظ قوالب المعاني ، إذ الكلام يتكون من لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم ، وقد شغلت قضية اللفظ والمعنى الدارسين منذ القدم ، واختلفت وجهة نظرهم فى رجوع المزية ، فنرى الجاحظ يتحدث عن اللفظ والمعنى فى مواضع كثيرة من كتابه : « البيان والتبيين » ، والذى لا يمعن النظر فى كلام الجاحظ يتوهم أنه قد فضل اللفظ على المعنى أو المعنى على اللفظ ، انظر إلى قوله : « ثم اعلم - حفظك الله - أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعانى مقصورة معدودة ومحصلة محدودة »[(١)] ، تجده قد جعل المعانى مبسوطة ممتدة ، والألفاظ التى هى أسماء المعانى محدودة معدودة ، فهل قدم المعانى هنا على الألفاظ ؟ ، لو كان الأمر كذلك ، فكيف يقول فى موضع آخر : « المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير . »[(٢)] إنك تشعر هنا بأنه يقدم اللفظ على المعنى ، وليس الأمر كذلك ، فالذى أراه ، أن الجاحظ لم يقدم اللفظ على المعنى هنا ولا المعانى على الألفاظ هناك . وإنما رجع المزية للنظم ، وجعل التفاضل به . تأمل قوله : إنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ . وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير ، فهو يريد بذلك النظم لا الألفاظ المجردة . وهو عندما جعل المعانى مطروحة ، أراد المعانى العامة التى هى كأغراض

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٧٦ .

(٢) الحيوان ٣ / ١٣١

الشعر ، وعندما جعلها ممتدة ومبسوطة أراد المعانى المركبة ، المعانى الخاصة المنبعثة من النظم الجيد والتراكيب الرفيعة ، وعندما جعل الألفاظ محصوره محدودة ، أراد الألفاظ المجردة لا المنظومة ، إذاً الجاحظ لم يقدم لا اللفظ ولا المعنى ، وإنما رجع المزية إلى النظم ، فينبغى على الدارس أن يعرف الفروق الدقيقة التى تكمن وراء النظم ، إذ به يفضل الكلام الكلام ويتقدم عليه ، وفرق مابين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه . وللجاحظ كتاب فى النظم سماه « نظم القرآن » ولكنه فقد ضمن ما فقد من تراث المسلمين ، ونرى الجاحظ يشير إليه فى كثير من كتاباته فى البيان والتبيين وغيره ، ويحيل عليه فى كثير من الأمور والقضايا .

فما هو النظم إذاً الذى رجع الجاحظ إليه المزية ؟ إنه ضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة . وهذه الطريقة المخصوصة تكون بالإبدال الذى تختص به الكلمات ، أو التقديم والتأخير الذى تختص به مواقع الكلمات أو الحركات التى تختص بالإعراب(١) .

وقد أفاد الإمام عبد القاهر من إشارات القاضى عبد الجبار وكتابات الجاحظ ، فشرح نظرية النظم وحلل الشواهد الكثيرة التى يتضح فيها مفهوم النظم .

يرى الشيخ عبد القاهر : أن الناظم إذا أراد أن ينظم كلاماً فى أى غرض ، يبدأ فيرتب المعانى فى نفسه أولا ويبذل جهدا فى ترتيبها ، ثم يحذو على ترتيبها الألفاظ ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا فى النفس ، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا فى النطق ، ويفرق عبد القاهر بين حروف منظومة وكلم منظوم ، وذلك أن نظم الحروف هو تواليها فى النطق فقط ، وليس نظمها بمقتض عن معنى ولا الناظم لها بمقتض فى ذلك رسما من

---

(١) انظر المغنى ١٦ / ٩٩،١ وما بعدها .

العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها ما تحراه ، فلو أن واضع اللغة كان قد قال : « ربض » مكان : « ضرب » ، لما كان فى ذلك ما يؤدى إلى فساد . أما نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك ؛ لأنك تقتفى فى نظمها آثار المعانى فترتب ألفاظ الكلام على حسب ترتيب المعانى فى النفس[1] .

فالمعانى التى يتعلق بها الفكر والتى ترتب ألفاظها على حسب ترتيبها فى النفس ، إنما هى معانى النحو ، وليست المعانى اللغوية المفردات .

يقول عبد القاهر : « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه « علم النحو » وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك : زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق . وفى الحال إلى الوجوه التى تراها فى قولك : جاءنى زيد مسرعاً وجاءنى يسرع وجاءنى وهو مسرع أو وهو يسرع وجاءنى وقد أسرع ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجىء به حيث ينبغى له ، وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى المعنى فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه ، نحو أن يؤتى بما فى نفى الحال وبلا إذا أراد نفى الاستقبال ، وإن فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون وبإذا فيما علم أنه كائن . وينظر فى الجمل التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل ، موضع الواو من موضع الفاء ، وموضع الفاء من موضع ثم ، وموضع أو من موضع أم ، وموضع لكن من موضع بل ويتصرف فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير فى الكلام وفى الحذف والتكرار

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٩٠

والإظهار والإضمار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له .

هذا هو السبيل فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى « النظم » ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه واستعمل فى غير ما ينبغى له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة ، وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه »(١).
ثم يأخذ بعد ذلك فى عرض الشواهد التى يتضح فيها ماذكره محللا لتلك الشواهد ، ومبرزاً لمواطن الحسن أو الفساد فيها ، فيعرض لقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(٢) قائلا : « هل تشك إذا فكرت فى هذه الآية فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذى ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى إرتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها ، وأن الفضل حصل من مجموعها ، وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية ؟ ... قل : « ابلعى » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ماقبلها وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشك فى ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٧ ، ١١٨ (٢) سورة هود الآية ٤٤

فى أن كان النداء « يا » دون « أى » نحو « يا أيتها الأرض » ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : « ابلعى الماء » ثم أن نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها أتبع نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : «وغيض الماء» فجاء الفعل على صيغة « فعل » الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : « وقضى الأمر » ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو : « واستوت على الجودى » ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة « قيل » فى الخاتمة « بقيل » فى الفاتحة ... أفترى لشىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق ، أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب . فقد اتضح إذا اتضاحاً لا يدع مجالا للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفرد ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ»(1) .

ويستمر عبد القاهر فى سوق الشواهد فيقول : « ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر كلفظ الأخدع فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى　　　وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

وبيت البحترى :

وإنى وإن بلغتنى شرف الغنى　　　وأعتقت من رق المطامع أخدعى

فإنك تجد لها فى هذين المكانين مالا يخفى من الحسن ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام :

(1) دلائل الاعجاز ص ٩٩ ، ١٠٠

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والبهجة والإيناس ، ومن أعجب ذلك لفظة «الشيء» فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع آخر ، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

ومن مالىء عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وإلى قول أبي حية النميري :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول . ثم انظر إليها في بيت المتنبي :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم »[1] .

وهكذا يستمر عبد القاهر في عرض العديد من شواهد النظم الرديء والآخر الجيد ، فمن الأول .

قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

وقول المتنبي :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وقول أبي تمام :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن كاثنين ثان إذ هما في الغار

(١) دلائل الإعجاز ص ٩١ ، ٩٢

ومن الثاني :

قول إبراهيم بن العباس الصولي يمدح محمد بن عبد الملك الزيات :

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الأهواز داري بنجوة ... ولكن مقادير جرت وأمور
وإني لأرجو بعد هذا محمدا ... لأفضل ما يرجى أخ ووزير

وقول البحتري :

بلونا ضرائب من قد نرى ... فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا ... ت عزما وشيكا ورأيا صليبا
تنقل في خلقي سؤدد ... سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخا ... وكالبحر إن جئته مستثيبا

وقول كثير عزة :

فلما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المطايا رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

إلى غير ذلك من الشواهد متى يعرض لها عبد القاهر محللا لها ومبرزا لما فيها من جمال مرده إلى النظم ومعرفة ماله من رسوم ومناهج ، أو من قبح وعيب مردهما إلى الخروج عن رسوم النظم ومناهجه »(١) .

ثم يأخذ عبد القاهر بعد أن وضح نظرية النظم وحلل العديد من شواهدها، وبين ما ينبغي على البليغ أن يلتزم به في بناء جمله وعند صياغة عباراته ... يأخذ بعد ذلك في بيان قوانين النحو وأصوله ومناهجه التي ينبغي على الناظم أن يضع كلامه الوضع الذي يقتضيها ، فلا يزيغ عنها ولا يحيد .. وهي تشمل كل أبواب علم المعاني التي سنعرض لها فصول هذا الكتاب إن شاء الله ...

* * *

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٢٠ وما بعدها .

مفهوم الفصاحة والبلاغة :

الفصاحة فى اللغة معناها الظهور والبيان ، يقال : يوم مفصح لا غيم فيه ولا قر ، وأفصح اللبن وفصح ، ذهبت عنه الرغوة ، قال نضلة السلمى :

.. وتحت الرغوة اللبن الفصيح ..

ويقال أفصحت الشاة والناقة : خلص لبنها ، وأفصح الصبح : بدا ضوؤه واستبان ... ويقال : رجل فصيح ، وامرأة فصيحة ، وقوم فصحاء وكلام فصيح ، أى : بليغ .. ولسان فصيح أى طلق وأفصح الرجل عن الشىء إفصاحا ، إذا بينه وكشفه ، ويقال تفصح أى : ازداد فصاحة واستعمل الفصاحة ، أو تكلف الفصاحة وتشبه بالفصحاء .. والفصيح : المنطلق اللسان فى القول الذى يعرف جيد الكلام من رديئه . قال الله عز وجل (وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)[١] . وقال عليه الصلاة والسلام : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » ... فمعنى الفصاحة فى الآية والحديث : الظهور والبيان[٢] .

والبلاغة فى اللغة تعنى : الانتهاء والوصول وتعنى أيضا الفصاحة وحسن الكلام ... يقال : بلغ الشىء يبلغ بلوغا وبلاغا : وصل وانتهى إلى مراده .. والبلاغ : ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشىء المطلوب .. والبلاغة : الفصاحة . ورجل بليغ وبَلْغ وبِلْغ : حسن الكلام ، فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما فى قلبه ، والجمع : بلغاء ، وقد بلغ بلاغة : صار بليغا [٣] .

قال الله عز وجل : (وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)[٤] ، ذهب الزمخشرى إلى أن القول البليغ : المؤثر فى قلوبهم ، فيغتمون به اغتماما ،

---

(١) سورة القصص ٣٤

(٢) انظر لسان العرب مادة فصح

(٣) انظر لسان العرب مادة بلغ

(٤) سورة النساء ٦٣

ويستشعرونه من الخوف استشعارا ..(١).

وبهذا يتضح لنا أن مفهوم الفصاحة فى اللغة ، لايختلف عن مفهوم البلاغة فهما مترادفان والمقصود منهما : الظهور والبيان والانتهاء إلى المعنى وبلوغ المراد باللفظ الجيد والقول البليغ المؤثر ، والتعبير الحسن الفصيح ... ولذا فإن أكثر البلاغيين يرون أن الفصاحة والبلاغة ترجمان إلى معنى واحد ، وإن اختلف أصلهما ، لأن المراد بكل منهما : الإبانة عن المعنى والإظهار له وحسن التعبير عنه .

ويرى البعض أن الفصاحة تمام آلة البيان ، فهى تختلف عن البلاغة ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، أما البلاغة فتتعلق بالمعنى دون اللفظ ، إذ المراد منها : إنهاء المعنى إلى القلب .. وقد اختار المتأخرون هذا الرأى . فقالوا الفصاحة تقع وصفا للكلمة وللكلام والمتكلم ، فيقال : كلمة فصيحة ، وكلام فصيح ، ومتكلم فصيح ... أما البلاغة فتقع وصفا للكلام والمتكلم ، فيقال : كلام بليغ ، ومتكلم بليغ ، ولا تقع وصفا للكلمة ، فلا يقال : كلمة بليغة ، ثم راحوا يفسرون ذلك على النحو الآتى :

فصاحة الكلمة :

الكلمة الفصيحة هى الكلمة التى تخلو من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوى أو الصرف ، ومن الكراهة فى السمع .

فتنافر الحروف : وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة نطق اللسان بها ، وهذا التنافر قد يكون شديدا متناهيا فى الثقل كما فى قول الأعرابى عندما سئل عن ناقته : « تركتها ترعى الهعخع » ، فكلمة «الهعخع» كلمة شديدة الثقل على الأذن ، شديدة الصعوبة فى اللسان وقد قالوا : إنها اسم شجر مر المذاق كريه الرائحة ، كأنه هذه الكلمة التى لا يطاق النطق بها ..

(١) انظر الكشاف ج ١ ص ٤٠٧

وقيل إنها كلمة للمعاياة لا أصل لها وهم كثيرا ما يخترعون كلمات للمعاياة ، ومثلها كلمة : « العقجق » و « والظش » و « والشصاصاء » ونحو ذلك . وقد يكون التنافر خفيفاً والثقل ضئيلا ، كما فى قول امرىء القيس :

وفرع يغشى المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل[1]

فكلمة « مستشزرات » كلمة ثقيلة فى السمع ، يتعثر اللسان عند النطق بها ، ولكن ثقلها أقل من ثقل « الهعخع » .

ومثله قول المتنبى :

إن الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها[2]

فكلمة « سويداواتها » كلمة ثقيلة على اللسان ، وقد نشأ هذا الثقل من طول الكلمة ، كما نشأ الثقل فى كلمة « مستشزرات » من طولها أيضاً ومن توسط الشين المهموسة الرخوة بين التاء الشديدة والزاى المجهورة . ومع كل فالثقل فى الكلمتين أقل من الثقل فى كلمة « الهعخع » .

ويرجع البلاغيون السبب فى تنافر الحروف وثقلها فى الأذن واللسان الى قرب مخارج الحروف أو بعدها بعداً شديداً وقالوا : إن البعد الشديد بين مخارج الحروف يكون بمنزلة الطفر ، والقرب الشديد بينها يكون بمنزلة مشى المقيد الذى يثقله القيد ، والعرب قد بنيت لغتهم على الخفة ، ولذا

---

(١) الفرع : الشعر ، ويغشى : يغطى ، والمتن : الظهر ، والأثيث : الكثير الشعر ، والقنو النخلة : عنقودها ، والمتعثكل : المتراكم ، والغدائر : الذوائب ، ومستشزرات : مرتفعات ، والمدارى : جمع مدرى ، وهى الأمشاط ، والمثنى : المفتول ، والمرسل : غير المفتول .

(٢) المعنى : إن الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان كرماء من هؤلاء الممدوحين صارت كالقلب بلا سويداء .

رأيناهم يعمدون إلى إدغام المثلين والمتقاربين نحو رد ومد وشد واضطر ، وإلى الإبدال فى نحو : اصطبر ، وذلك دفعا للثقل . ومع أنه لا يمكن إنكار ما لمخارج الحروف وصفاتها وهيئة تأليفها من أثر فى ثقل الكلمة وخفتها إلا أنه ينبغى أن يكون المعول عليه فى ذلك هو الذوق الصحيح فنحن نرى الكلمة قد تألفت من حروف متقاربة وليست ثقيلة نحو قوله تعالى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ)[١] . فلا ثقل فى كلمة : « أعهد » مع قرب مخرج الهمزة والعين والهاء . وكما فى قولنا « ذقته بفمى » ، فالباء والفاء والميم أحرف شفوية متقاربة ولا ثقل فيها . فيكون قرب مخارج الحروف أو تباعدها موجبا للثقل والتنافر ، ليس مطردا ، ولذا كان المعول عليه هو الذوق السليم ، والحس الصادق . هذا وثقل الكلمة فى النطق ليس معيبا فى جميع الأحوال وعلى الإطلاق ، بل إذا اقتضاه المقام كان من أهم مظاهر فصاحة الكلمة ، ولذا لا أجد عيبا فى كلمة « مستشزرات » فى بيت امرىء القيس لأنها لاءمت المقام ، حيث يصف شعرا كثيفا غزيرا قد تراكم وصار كقنو النخلة المتعثكل ، ولو قال : « مرتفعات » لأخل بما يقتضيه السياق ويتلاءم مع الألفاظ التى وصف بها الشعر . كما لا أرى عيبا فى قول أبى تمام :

قد قلت لما اطْلَخَمَّ الأمر وانبعثت   عشواء تالية غُبْسا دهاريسا[٢]

لأن الثقل فى كلمة « اطلخم » يتلاءم مع الشدة والظلام والدواهى التى يصورها البيت ، فينبغى أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعى وذوق لأن هناك كلمات ثقيلة على اللسان ، ولكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها ، من حيث أن هذا الثقل يصور معناها بحق ، انظر إلى كلمة

(١) سورة يس الآية ٦٠

(٢) اطلخم الأمر : اشتد ، والعشواء : الناقة لا تبصر ، غبسا : الظلام الشديد ، والدهاريس : الدواهى .

« اثاقلتم » ، فى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ)(١) .

تجد فيها قدرا من الثقل الفصيح لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض ، واستشعارهم مشقة الجهاد ، وعزوف أرواحهم عنه ، وقد دعوا إليه فى عام العسرة ، فكان منهم ما وصفت الآية ، ولذا جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم ، فقال سبحانه وتعالى (إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً)(٢) .

وخذ قوله تعالى يحكى مقالة سيدنا نوح عليه السلام لقومه : (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) (٣) ، وتأمل كلمة « أنلزمكموها » وما فيها من صعوبة فى النطق تحكى صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون ، وانظر إلى كلمة « فعميت » وما فيها من الإدغام والمجهول ، وكيف يصفان معنى التعمية والإلباس »(٤) .

والغرابة : أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فتحتاج فى معرفتها إلى النظر والتنقيب عنها فى كتب اللغة المبسوطة ، والمرجع فى ذلك إلى العرب الخلص ، فلا يعول على غيرهم من المحدثين الذين ظهروا بعد فساد اللغة وضعف السليقة ، ولذا قيد التنقيب عن تلك الكلمات الغريبة بكونه فى كتب اللغة المبسوطة التى حوت كلمات قد ماتت وصارت غير مستعملة عند الفصحاء من الخلص ، كما فى الألفاظ : « زرجون واسفنط وخندريس » التى تطلق على

(١) سورة التوبة آية ٣٨
(٢) سورة التوبة آية ٣٩
(٣) سورة هود الآية ٢٨
(٤) خصائص التراكيب ص ٢٣

الخمر ، و « فدوكس وهرماس » على الأسد ، و « الحاقد » على سيء الخلق ، و «الطرموق» على الطين ، و «الاستمصال » على الإسهال و «الإطرغشاش» و « الإبرغشاش » على الشفاء و « الابتشاك » على الكذب .

يقول الشاعر :

وما أرضى لمقلته بحـــلم إذا انتبهت توهمه ابتشاكا

وكما فى قول عيسى بن عمرو النحوى لأناس قد تجمعوا حوله عندما سقط عن حماره : « مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة ، افرنقعوا عنى » فقد أطلق « تكأكأ » على الاجتماع ، و « افرنقع » على التنحى والابتعاد ، وهو يهدف بتخير هاتين الكلمتين الغريبتين ، المزاح ومداعبة من اجتمعوا حوله ، ولذا قالوا : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية ... فمثل هذه الكلمات لا نراها إلا فى كتب اللغة المطولة ، ولا نجدها مستعملة على لسان الخاص ، ولذا عدت غريبة ومخلة بالفصاحة ..

ولا يجوز أن نطلق على ماخفى علينا معناه من النظم الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأشعار الفحول من الشعراء ، بأنه غريب ومناف للفصاحة ، لأن الذى يعتد به ويعول عليه فى ذلك — كما قلت — إنما هم العرب الخلص الذين سلمت سليقتهم ، ولم تفسد طباعهم ... ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الغرابة نوعان : نوع فصيح وهو تلك الألفاظ المستعملة التى جرت على ألسنة الخاص والفحول ، وإن خفى علينا معناها وغمض ... ومن هذا النوع غريب القرآن والحديث ، ونوع معيب مخل بالفصاحة وهو تلك الألفاظ التى أهملها الخلص وهجرها الفصحاء فلم يستعملوها ، وبقيت فى بطون أمهات كتب اللغة المطولة ، على نحو ماشاهدنا فى الأمثلة ...

وذكر البلاغيون أن الكلمة تعد غريبة كذلك ، غرابة تخل بفصاحتها ،

إذا احتملت معنيين ، واحتار السامع في فهم المعنى المراد لعدم وجود القرينة التي تعينه وتحدده كما في قول رؤبة بن العجاج :

أيّام أبدتْ واضحا مُفلَّجا أغــرّ برّاقا وطَرفا أبرجَا
ومقــلة وحاجبا مزجَّجا وفاحما ومَرْسِنــا مُسَرَّجا[(١)]

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله : « مسرجاً » ، حتى اختلفوا في تخريجه ، فقيل إنه أراد أن يشبه أنفها بالسيف في الدقة والاستواء . وعليه «فمسرجاً» نسبة إلى سريج الذي اشتهر بصناعة السيوف ، ونسبت إليه فسميت سيوفاً سريجية . . . وقيل إنه أراد أن يشبه أنفها بالسراج في البريق واللمعان . « فسرجاً » في البيت نسبة إلى السراج المضىء ، من قولهم : سرج وجهه أي : حسن ، وسرج الله وجهه أي : حسنه وبهجه ، والاشتقاق من الاسم الجامد على جهة التشبيه وارد في كلام العرب كما في قولهم :

وَبُرُودٍ مُدَنَّرَات وقــزّ ومُــلاء من أعتق الكتان

أي : وبرود وشيها كالدنانير ، فاشتق من الدنانير « مدنرات » على جهة التشبيه بها . . .

ومخالفة القياس : أن تأتي الكلمة غير جارية على قوانين اللغة وقواعد الصرف ، كما في قول أبي عبادة :

يشق عليه الريح كل عشية جيوب الغمام بين بكر وأيم

فقد استعمل « الأيم » في مكان « الثيب » ، والأيم من لا زوج لها ولو كانت بكرا . . وكحذف النون من لكن في قول النجاشي :

---

(١) مفلجا : الفلج تباعد ما بين الأسنان ، والأغر : الأبيض ، والطرف : العين ، وأبرجا : البرج عظم العين وحسنها ، ومزججا : مدققا ، وفاحما : شعرا أسود كالفحم . ومرسنا : اسم لمحل الرسن من البعير وإطلاقه على أنف الإنسان من باب المجاز المرسل .

فلست بآتيــه ولا أستطيعه

ولاك اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل

أراد ولكن اسقنى .. وكفك الإدغام فى قول أبى النجم :

الحمـــد لله العـــلى الأجلل الواهب الفضل الكريم الجزل

وكقول الآخر :

مهلا أعاذل قد جربت من خلق

أنى أجود لأقوام وإن ضننوا

فقد فك الإدغام فى كلمتى : « الأجلل » و « ضننوا » ، وقوانين اللغة توجب إدغام المثلين .. وكصياغة أفعل التفضيل من « أفعل فعلاء » فى قوله :

.. لأنت أسود فى عينى من الظلم ..

حيث استعمل أفعل التفضيل من وزن « أفعل » الذى مؤنثه « فعلاء » أسود وسوداء — وهذا لايتم إلا بمساعد كأن يقال : لأنت أشـــد سواداً ..

ويستثنى من مخالفة القياس ، ماثبت استعماله لدى العرب ، فهو فصيح وإن جاء مخالفا لقوانين اللغة أو قواعد الصرف ، فمن ذلك إبدال الهاء همزة فى كلمتى « آل » و « ماء » ، إذ أصلهما : أهل وموه ، وإبدال الهاء همزة فى الكلمتين . وإن كان على خلاف القياس ، إلا أنه ثبت استعماله لدى العرب وورد عنهم ، فهو فصيح وإن خالف القياس .. ومنه « أبى يأبى » ، بفتح عين المضارع فالقياس أن « فعل » بفتح العين لا يأتى مضارعه على « يفعل » بالفتح إلا إذا كانت عين ماضيه أو لامه من حروف الحلق مثل : ذهب ، وسأل وسعى ونفع ونشع ، فمجىء المضارع من « أبى » على وزن « يأبى » بالفتح وليست عين ماضيه ولا لامه من حروف الحلق مخالف للقياس ،

ولكن قد ثبت استعماله وورد عن العرب فهو فصيح وإن خالف القياس قال تعالى: (وَيَأبَى اللهُ إلاّ أنْ يُتِمَّ نُورَهُ)[١]،ومنه عَوِر يَعْوَر، واستَحْوَذ يستحوذ ، فالقياس : عار يعار ، واستحاذ يستحيذ ، بقلب الواو ألفـــا لتحركها وانفتاح ماقبلها ، أو ياء لتحركها وكسر ماقبلها فى « يستحيذ » ، ولكن هذه الأفعال وردت بالواو واستعملها العرب بدون إعلال ، قال عز وجل : (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ)[٢] ، فهى فصيحة وإن خالفت القياس .

والكراهة فى السمع أن تبرأ الأذن من سماع الكلمة ، ولا تقبلها لمجيئها غير ملائمة للسياق الذى قيلت فيه ، ولو كانت هذه الكلمة فصيحة فى حد ذاتها ، كما فى قول أبى الطيب المتنبى :

مبارك الاسم أغر اللقب   كريم الجرشى شريف النسب[٣]

فكلمة « الجرشى » تأباها الأذن فى هذا السياق وتنفر من سماعها ، لأن المقام مقام مدح . ومقام المدح هنا فى هذا البيت تلائمه الكلمة العذبة الخفيفة التى تتلاءم مع بقية الألفاظ المذكورة وتمضى معها فى تناسق تام .. ولو كان المقام مقام هجاء لما نفرت الأذن من سماع هذه الكلمة ، فلو قيل فى مقام ذم : لئيم الجرشى قبيح النسب ، لاستساغت الأذن ذلك ولم تنفر من قبول كلمة « الجرشى » . . وبهذا يتضح أن كراهة الكلمة فى السمع يتوقف على المقام وسياقات الكلام فما تكرهه الأذن فى موضع وتأبى سماعه قد تستسيغه وتميل إليه وتلذ سماعه فى سياق آخر .

---

(١) سورة التوبة آية ٣٢   (٢) سورة المجادلة آية ١٩ .

(٣) الجرشى : النفس ، والأغر : أصله الأبيض الجبهة من الخيل ويطلق على الأبيض من كل شيء ، واللقب : مادل على مدح كزين العابدين أو ذم كأنف الناقة وقد مدح سيف الدولة بهذا لأن اسمه « على » ولقبه « سيف الدولة » ، وهما مما يمتدح به .

فصاحة الكلام :

أما فصاحة الكلام فهي خلوصه من تنافر كلماته ، ومن ضعف التأليف ، والتعقيد اللفظي والمعنوي ، وكثرة التكرار وتتابع الإضافات ، بالإضافة إلى تحقق فصاحة مفرداته التي يتألف منها .

فتنافر الكلمات : أن تكون بتأليفها ونظمها الذي سلكت فيه ثقيلة على اللسان ، يتعسر النطق بها ، وإن كانت كل كلمة فصيحة بانفرادها عن هذا النظم المتنافر . كما في قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

فالشطر الثاني من هذا البيت شديد الثقل على اللسان لا يستطيع أن ينطق به ثلاث مرات متتاليات دون أن يتعثر ويخطيء ، وقد زعموا أن قائل البيت جني ، صاح به على حرب بن أمية في فلاة فمات بها . ومرجع الثقل والتنافر إلى النظم الذي عليه البيت ، فلو جردت الكلمات من نظمها لصارت فصيحة ، خالية من الثقل . قرب . حرب . قبر .

ومنه قول أبي تمام :

والمجد لا يرضى بأن ترضى بأن   يرضى امرؤ يرجوك إلا بالرضا

وقول المتنبي :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا   قلاقل عيس كلهن قلاقل[1]

ومنه قول الآخر :

فلم يضرها والحمـــد لله شيء   وانثنت نحو عَزْفِ نفسٍ ذَهُولِ

---

(١) فقلقلت : حركت ، وقلاقل الأولى جمع قلقل وهي الناقة السريعة وقلاقل الثانية جمع قلقة وهي الحركة .

فألفاظ النصف الثاني من البيت - كما يقول الجاحظ - يتبرأ بعضها من بعض، ويرجع ذلك إلى سوء النظم الذي سلكت فيه، وقول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ما لمته لمته وحدى

فالتنافر الذي نراه في قوله : أمدحه أمدحه ، قد نتج عن تكرار اللفظ، وهو أقل من التنافر الذي لمسناه في الأبيات قبله ، ومما يحمد للشاعر في هذا البيت، إيثاره التعبير باللوم في قوله (لمته) ، دون (الهجاء) المقابل للمديح، فهو يفيد أن الممدوح ربما يلام على شيء وقع منه عفوا ، ولكنه لا يفعل ما يستحق عليه الهجاء . ولكن يؤخذ على الشاعر إدخاله (إذا) التي تفيد تحقق الوقوع على اللوم ، ولو عبر (بإن) دون (إذا) لكان أولى وأبلغ في المديح .

ومنه قول الآخر :

وازور من كان له زائراً وعاف عافى العرف عرفانه

ففي الشطر الثاني تنافر لا يخفى بين الكلمات مرجعه إلى تأليفها ونظمها الذي وضعت فيه ، والكلمات في حد ذاتها فصيحة لا تنافر بين حروفها .

وضعف التأليف : أن يكون الكلام جاريا على خلاف طريقة العرب في التعبير والقول ، مخالفا لقوانين النحو المعتبرة عند جمهور النحاة ، أما إذا خالف الكلام ما اتفق عليه النحاة وأجمعوا عليه ، كجر الفاعل ورفع المفعول ونصب المجرور أو رفعه . فليس الكلام عندئذ مخلا بالفصاحة فقط ، بل هو فاسد وغير عربى ، لا يسمح به ولا يقال ، فضعف التأليف المخل بفصاحة الكلام ، بمجيء التأليف على خلاف ما اشتهر بين جمهور النحاة ، وليس على خلاف ما اتفقوا عليه . من ذلك عود الضمير على متأخر في اللفظ والرتبة كما في قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - :

فلو أن مجداً يخلد الدهر واحداً من الناس أبقى مجده الدهر مطعماً(١)

فالضمير فى (مجده) يعود إلى المفعول به (مطعما) وهو متأخر فى اللفظ وفى الرتبة . وكما فى قول زهير :

إن تلق يوما على علاته هرما تلق السماحة منه والندى خلقا(٢)

فالضمير فى (علاته) يعود إلى المفعول (هرماً) المتأخر فى اللفظ وفى الرتبة . . . وقول الآخر :

جزى ربه عنى عدى بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل(٣)

فالضمير فى (ربه) يعود إلى (عدى) المتأخر لفظة ورتبة لأنه مفعول به . والقاعدة المشهورة بين النحاة أن يعود الضمير على متقدم فى اللفظ والرتبة أو فى الرتبه دون اللفظ أو فى اللفظ دون الرتبة ، ولا يعود إلى متأخر فى اللفظ والرتبة معا . وقد أجاز ذلك بعضهم كابن جنى وابن مالك وغيرهما . ومنه وقوع الضمير المتصل بعد إلا كما فى قول الشاعر :

وما علينا إذا ما كنت جارتنا ألا يجاورنا إلاك ديار

وقول الاخر :

ليس إلاك يا على همام سيفه دون عرضه مسلول

ومنه حذف أداة النصب (أن) مع بقاء عملها . كما فى قول طرفة :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

والقاعدة المشهورة تمنع وقوع الضمير المتصل بعد إلا ، وتمنع حذف أداة النصب مع بقاء عملها إلا فى المواضع المعروفة .

---

(١) مطعم : هو مطعم بن عدى احد رؤساء مكة وكان يدافع عن النبى صلى الله عليه وسلم ضد المشركين .

(٢) على علاته : على قلة مال وعدم .

(٣) جزاء الكلاب للعاويات : أى الضرب بالحجارة ، دعاء عليه بهذا .

والتعقيد : أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد به ، فيحتاج إلى إعمال فكر وكد الذهن وإطالة النظر والتأمل حتى نقف على المعنى المراد . والعربي يكره الغموض المؤدي إلى اللبس . ويحب الوضوح والظهور فمن أقوالهم : خير الكلام ، ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ولا يعني ذلك أنهم يكرهون لطافة المعنى ودقته ، كيف وهم يرون أن المعنى إذا نيل بعد طلب له وكد وإعمال فكر يكون أوقع في النفس وأشد تأثيرا ؟ ولكن فرق بين إعمال فكر لا يثمر وهو ما كان مرجعه إلى غموض المعنى وتعقيده : وبين إعمال فكر يثمر وهو ما كان مرجعه إلى دقة المعنى ولطافته .

والتعقيد إما أن يكون تعقيدا لفظيا وإما أن يكون تعقيدا معنويا .

فالتعقيد اللفظي : ما كان سببه اختلال نظم الكلام بالتقديم والتأخير بين أجزائه ، فلا يدري السامع كيف يتوصل منه إلى معناه . كما في قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه

فالمعنى الذي يريده الفرزدق : وما مثله في الناس أحد يشبهه في الفضائل إلا ابن أخته هشام بن عبد الملك وكان ينبغي أن يكون ترتيب اجزاء البيت : وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه . فالضمير في «أمه» للملك وفي «أبوه» للمدوح وهو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي ، خال هشام ابن عبد الملك بن مروان وقد قدم الفرزدق وأخر بين أجزاء البيت ، ففصل بين المبتدأ والخبر بأجنبي ، وفصل بين النعت والمنعوت كذلك ، وقدم المستثنى على المستثنى منه . فصار البيت في غاية التعقيد ، ولعل الفرزدق كان يقصد بهذا الصنيع التهكم بالممدوح والاستخفاف به ، وهذا لا يبعد إذا علمنا ولاء الفرزدق للعلويين وعداءه لبني أمية والممدوح منهم .

ومثله قول الفرزدق أيضا :

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

يريد : إلى ملك أبوه ليست أمه من محارب ، أى : ما أمه منهم .

وقول أبى تمام :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن كاثنين ثان إذ هما فى الغــار

يريد : أنه لم يكن كثانى اثنين .

وقول ذى الرمة :

كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس إنقاض الفراريج

يريد : كأن أصوات أواخر الميس إنقاض الفراريج من إيغالهن بنا .

وقول الآخر يصف دارا بالية :

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفرا رسومها قلمـا

يريد : فأصبحت قفراً بعد بهجتها كأن قلما خط رسومها

هذا والتقديم والتأخير بين اجزاء الكلام إنما يؤدى إلى التعقيد إذا انعدمت القرينة الدالة التى تعين المعنى وتحدد المراد من الكلام كما فى الشواهد المذكورة . أما إذا قامت القرينة الدالة على المراد ، فعندئذ لا يؤدى التقديم إلى التعقيد والغموض ، بل يكون من أسباب حسن المعنى وجماله . وداعيا من دواعى فصاحته وبلاغته .

والتعقيد المعنوى : ما كان سببه احتلال المعنى وذلك بالا يكون انتقال الذهن من المعنى الأصلى للتركيب إلى المعنى المقصود منه ظاهراً بينا . كما فى قول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

فكنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق والبعد من الحزن والألم لفراق

الأحبة . وقد أصاب وأحسن لأن البكاء يستلزم الحزن والأسى ، ويدل عليه دلالة بينة حيث جرى على ألسنتهم، فقالوا : أبكانى وأضحكنى أى ساءنى وسرنى . وقال الحماسى :

أبكانى الدهر ويا ربما أضحكنى الدهر بما يرضى

كنى بإبكاء الدهر إياه عن إساءته له وبإضحاكه له عن فرحه وسروره ، فدلالة البكاء على الحزن والألم والأسى ، دلالة ظاهرة بينة ، وردت فى كلام العرب وجرت على ألسنتهم ، ثم كنى ابن الأحنف بجمود العينين عما يوجبه دوام التلاقى والقرب من الفرح والسرور ، وقد أخطأ فى هذا وأساء ، حيث اعتقد أن الجمود هو خلو العين من البكاء مطلقا دون اعتبار شىء آخر ، لكنهم أطلقوه على خلوها منه عند إرادته وطلبه . فكنوا بجمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وقت الحزن والأسى كما فى قول الخنساء :

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

وقول الآخر :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك بجارى دمعها لجمود

فقد كنيا بجمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وطلبه منها لشدة الحزن والأسى ، فهى عين جمود أى : لاخير فيها ، كما قالوا : سنة جماد . أى : لامطر فيها . وناقة جماد : لا لبن فيها ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حال الفرح والمسرة ، لجاز أن يدعى به للرجل فيقال : « لا زالت عينك جامدة » ، كما يقال . « لا أبكى الله عينك » فالكلام الخالى من التعقيد المعنوى ، ينتقل فيه الذهن من المعنى الأصلى إلى المعنى المجازى أو الكنائى المراد فى وضوح ودون خفاء لظهور العلاقة بين المعنيين وجريان الاستعمال على لسان العرب ، ووفق عاداتهم وعرفهم وطرائقهم فى التعبير ، كما فى الكناية بكثرة الرماد ، وجبن الكلب ، وهزال الفصيل وإشعال النار فى الأماكن

العالية عن الكرم . أما إذا جاء الكلام على خلاف ما عرف عن العرب . وعلى خلاف ما قد استعملوه وجرى على ألسنتهم ، فعندئذ يصعب فهم المراد ويتعذر على الذهن الوقوف على مرمى الكلام والمقصود منه ، فيوصف بالتعقيد المعنوى . كما فى بيت ابن الأحنف وكما فى بيت أبى تمام :

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت
لها وشحا جالت عليها الخلاخل

فقد كنى عن دقة الخصر وضمور البطن ، بجولان الخلاخل عليها لو اتخذتها وشاحا . فأخطأ وأساء . لأن جولان الخلاخل المتخذة وشاحا ، يدل على بلوغها غاية القصر ، ولا يدل على الدقة والضمور ، إذ الوشاح ما يضرب للمرأة من العاتق إلى الكشح ، فالعلاقة بين المعنى الأصلى والمعنى المراد غير ظاهرة ، وانتقال الذهن من المكنى به إلى المكنى عنه . يشوبه كثير من الكدارة وعدم الصحة .

أما كثرة التكرار وتتابع الإضافات : فلا يخلان بفصاحة الكلام ، إلا إذا كانا ثقيلين فى السمع وعلى اللسان ، ولذا فهما يرجعان إلى تنافر الكلام فمن كثرة التكرار المستكره فى الأذن ، قول المتنبى :

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد(١)

حيث كرر الضمير فى : « لها منها عليها » . ومن تتابع الإضافات الثقيل على اللسان والأذن ، قول ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى
فأنت بمرأى من سعاد ومسمع(٢)

(١) الغمرة : الشدة . والسبوح : الفرس السريعة . والشواهد : العلامات .
(٢) جرعا : مؤنث الأجرع وهو المكان ذو الرمل لا ينبت شيئا . وحومة الشىء : معظمه ، والجندل : الحجارة . واسجعى : غنى ، وسجع الحمام : هديله .

فالأذن تنفر من كثرة الإضافات فى : « حمامة جرعا حومة الجندل » ، واللسان يستثقل النطق بها . أما إذا لم تؤد كثرة التكرار ، ولا تتابع الإضافات إلى الثقل ، فلا يخلان عندئذ بفصاحة الكلام . كما فى قول الله عز وجل : (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)(١) ، وقوله تعالى : (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ . .)(٢) ، وقوله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)(٣) وكما فى قوله عليه الصلاة والسلام : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

فالأذن لا تحس ثقلا واللسان لا يجد صعوبة نطق بما فى الآيات الكريمة والحديث الشريف من كثرة التكرار وتتابع الإضافات . . وكما فى قول ابن المعتز :

وظلت تدير الراح أيدى جآذر
عتاق دنانير الوجوه ملاح(٤)

وقول الخالدى :

وصيرفىُّ القريض وزانُ دينارِ المعانى الدقاقِ منتقدُ(٥)

فالإضافات المتتابعة فى البيت الأول : « عتاق دنانير الوجوه » ، وفى

---

(١) سورة مريم آية ٢
(٢) سورة غافر آية ٣١
(٣) سورة الشمس آية ٧ ، ٨
(٤) الراح : الخمر ، والجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية وعتاق . جمع عتيق بمعنى كريم ، وإضافة دنانير إلى الوجوه من إضافة المشبه به إلى المشبه .
(٥) الصيرفى: المحتال فى الأمور ، والقريض : الشعر ، والمنتقد : الخبير بالتمييز بين جيد الأشياء ورديئها .

البيت الثانى : « وزان دينار المعانى » ، لاثقل فيها على الأذن ولا صعوبة على اللسان فى النطق بها .

فصاحة المتكلم :

أما فصاحة المتكلم فهى ملكة تتكون لديه ويكتسبها بكثرة المران والتدريب وقراءة التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعه ، وحفظ كثير من الأشعار والنثر حفظا دقيقا واعيا متأملا وقبل هذا وبعده حفظ كتاب الله عز وجل وحديث النبى صلى الله عليه وسلم والتفقه فيهما . وبتكون تلك الملكة يستطيع المتكلم أن يعبر عما يريدوعما يقصد بلفظ فصيح . ويوصف هذا المتكلم بالفصاحة فيقال له : متكلم فصيح .

بلاغة الكلام :

ذكر البلاغيون المتقدمون لتعريف البلاغة أقوالا متعددة منها قول معاوية لصحار العبدى : ما البلاغة ؟ فقال : البلاغة ؟ الإيجاز ، قال وما الإيجاز ؟ فقال صحار : أن تجيب فلا تبطىء وتقول فلا تخطىء[١] . وسئل ابن المقفع ما البلاغة ؟ فقال: البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة فمنها ما يكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعرا . ومنها يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب ، الوحى فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة ، وأما الخطب بين السماطين ، وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثار فى غير خطل ، والإطالة فى غير إملال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك . قيل فإن مل السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف ، قال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى

(١) انظر البيان والتبيين ٩٦/١

يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنهما لا يرضيهما شيء(١) .

وقالوا : البلاغة لمحة دالة . والبلاغة معرفة الفصل والوصل . والبلاغة اختيار الكلام وتصحيح الأقسام . والبلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى . والبلاغة كلمة تكشف عن البقية . والبلاغة حسن العبارة وصحة الدلالة والبلاغة القدرة على البيان مع حسن النظام .

أما المتأخرون فقد عرفوا البلاغة تعريفاً يقرب مما ذكره ابن المقفع حيث قالوا : بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته .

والمراد بالحال : الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر في كلامه خصوصية ما . ومقتضى الحال هو تلك الخصوصية التي اعتبرها المتكلم في كلامه . ومطابقة الكلام لمقتضى الحال : هي مجيء الكلام مشتملا على تلك الخصوصية التي اقتضاها الحال ، فمثلا إذا كان هناك من ينكر قيام زيد ، فهذا الإنكار حال يقتضي أن يؤكد المتكلم كلامه فيقول : إن زيدا لقائم ، ومجيء الكلام مؤكدا هو مطابقته لمقتضى الحال .

وإذا كان هناك إنسان عظيم نبيه الشأن جليل القدر وأردت أن تتحدث عنه فإنك تقول : هذا هو الرجل فعظم هذا الرجل ونباهة شأنه وجلالة قدره حال يقتضي تعريفه بالألف واللام ، ومجيء الكلام معرفا هو مطابقته لمقتضى الحال . وعلى العكس يقال للحقير : أهذا رجل ؟

فالحقارة حال . والتنكير مقتضاه ، ومجيء الكلام منكرا هو مطابقته لمقتضى الحال . وهكذا يختلف الكلام تبعا لاختلاف الأحوال ، فمقام التألم أو الخوف يقتضي الإيجاز ، إذ المتألم تكفيه الكلمة ، والخائف تغنيه الإشارة

---

(١) نفس المصدر ١/١١٥

ومقام الأنس والتلذذ يقتضى الإطناب ، لأن الأنس يحتاج إلى الإسهاب وإطالة القول . والبلاغة أن يأتى الكلام مطابقا للحال التى يأتى فيها ، وأن تتحقق فصاحة كلماته وتراكيبه . فإن طابق الكلام مقتضى الحال ولم يكن فصيحا ، لا يعد بليغا ، وكذا إن كان الكلام فصيحا ولم يطابق مقتضى الحال ، فليس من البلاغة .

هذا ويذكر البلاغيون أن البلاغة تتفاوت تبعا لوفاء الكلام بخصائص تراكيبه ومقتضيات أحواله . فالرمانى يجعل البلاغة ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا . فالعليا هى بلاغة القرآن الكريم والوسطى والدنيا تتفاوت فيهما بلاغة البلغاء من البشر . والقزوينى يجعل للبلاغة طرفين أعلى إليه تنتهى وهو حد الإعجاز وما يقرب منه ، وطرفا أسفل منه تبتدىء وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب ، وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة حسب تفاوت البلغاء فى التعبير والوفاء بمقتضيات الأحوال .

بلاغة المتكلم :

أما بلاغة المتكلم فهى ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ ، وتلك الملكة تتكون لديه بكثرة المران والقراءة ومعايشة التراكيب الجيدة والتعبيرات الرفيعة وتأملها تأملا واعيا وإدراكها إدراكا تاما . يضاف إلى هذا أن يكون ذلك المتكلم ذا طبع وذكاء يستطيع بهما الابتكار وتوليد المعانى ، عندئذ يستحق أن يوصف بالبلاغة ، فيقال له : متكلم بليغ . وبهذا يتضح أن بلاغة المتكلم لا تختلف عن فصاحته .

هذا ولا تقع البلاغة وصفا للكلمة المفردة ـ كما ذكرنا ـ إلا إذا أريد بالكلمة الكلام المركب ، فتوصف بالبلاغة على هذا الاعتبار ويقال كلمة بليغة ، لأن المراد بالكلمة عندئذ : الكلام المركب كالخطبة أو القصيدة أو

أو الجملة أو الجمل ، وليس المراد بها « اللفظ المفرد » ، وقد أطلقت الكلمة على الكلام ، كما في قوله تعالى : (قَالَ : رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)(١) .

علم المعاني ومباحثه :

عرف البلاغيون علم المعاني بقولهم : « هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال » .

و « اللفظ العربي » يشمل اللفظ المفرد واللفظ المركب أي الجملة وأجزاءها فأحوال الجملة : الإسناد الخبري والإنشاء وأسلوب القصر والفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة ، وأحوال أجزاء الجملة : أي المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل ، كالتعريف والتنكير والحذف والذكر والتقديم والتأخير والإظهار والإضمار وغير ذلك . فعلم المعاني يبحث في تلك الأحوال ، وكيف تأتي مطابقة لمقتضى حال المخاطب . أي أنه يبحث في بناء الجملة العربية صياغتها . اختيار أجزائها . علاقة الجمل المتتابعة بعضها ببعض . اختيار نوع الكلام الملائم لمقتضى حال المخاطب ؛ خبرا أو إنشاء ، إيجازا أو إطنابا أو مساواة . ولذا فإن مباحثه تنحصر فيما يلي :

١ — أحوال الإسناد الخبري.

٢ — أحوال المسند إليه .

٣ — أحوال المسند ،

٤ — أحوال متعلقات الفعل .

٥ — أساليب القصر .

٦ — أساليب الإنشاء .

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٠ .

٧ - مواضع الفصل والوصل .

٨ - الإيجاز والإطناب والمساواة .

وعلم النحو وإن كان قد تعرض لدراسة هذه الأحوال فدرس أحوال المسند إليه من حذف وذكر وتقديم وتأخير وتنكير وتعريف وكذا أحوال المسند والمتعلقات والحصر وغير ذلك ... إلا أن دراسته لها تختلف عن دراسة البلاغيين ، فالنحوي يدرس هذه الأحوال من حيث الجواز والوجوب والامتناع ، أي : من حيث الحكم وإمكان الاستعمال . أما البلاغي فيدرس الأسرار الكامنة وراء هذه الأحوال ، لأنه يتناولها من حيث كونها مطلبا بلاغيا يقتضيه المقام ويدعو إليه حال المخاطب .

الفرق بين الخبر والإنشاء :

يتنوع الكلام إلى نوعين : خبر وإنشاء .

فالخبر هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته ، نحو قولنا : « جاء زيد » ، فهذه الجملة أفادت نسبة المجيء إلى زيد والحكم به عليه . فإن وافق ذلك الواقع كان الخبر صادقا ووصف الكلام بالصدق وإن خالفه كان الخبر كاذبا ووصف الكلام بالكذب ... وكذا قولنا «ما جاء زيد» أفاد نفي المجيء عن زيد ، فإن وافق ذلك الواقع وصف الكلام بالصدق ، وإن خالفه وصف بالكذب ... وفي بعض الأحيان قد يوصف الخبر بالصدق فحسب ، أو بالكذب فقط ، ولكن هذا ليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبري وإنما باعتبار أسباب أخرى خارجة عن نطاق الجملة تؤيد صدقه أو كذبه ... فأخبار القرآن الكريم لا تحتمل إلا الصدق باعتبارها كلام الله جل وعلا ، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هي أخبار بصرف النظر عن قائلها ... وقول اليهود : عزير بن الله ، وقول النصارى : المسيح بن الله ، كلام

لا يحتمل إلا الكذب . لأن الواقع يكذبه ويبطله، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هي أخبار . . . فوصف الخبر بالصدق فقط أو بالكذب فقط ، إنما هو باعتبار أسباب خارجة عن نطاق العبارات - كما قلت - وليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبرى . .

أما الإنشاء فالهدف منه والمقصد إيجاد الشيء وإنشاؤه ابتداء ولذا عرفوه بأنه : قول لا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، وهذا لا يعنى أنه ليس لمفهوم الكلام الإنشائى واقع يوافقه أو يخالفه ، بل له واقع خارج نطاق العبارة ، له واقع فى ذهن المتكلم به ، ولكن لا يقصد موافقة مفهوم الكلام الإنشائى لهذا الواقع الخارجى الكائن فى ذهن المتكلم أو عدم موافقته ، بل القصد - كما قلت - إلى إيجاد الشيء وإنشائه ابتداء : فقولك : حافظ على الصلاة اقرأ القرآن . لا تقرب الفواحش . أين محمد ؟ . ليت الشباب يعود . يا خالد هذه أساليب إنشائية القصد منها إحداث الشيء وإيجاده ابتداء ، ولا يقصد وصفها بالصدق أو الكذب ، ولذا قالوا : الإنشاء قول لا يحتمل الصدق والكذب .

هذا وتفصيل القول فى أساليب الإنشاء وأنواعه وما يكمن وراءه من دقائق، وفى الخبر وأجزائه وأحواله وما يكمن فى الصياغة والتراكيب من أسرار ودقائق ولطائف هو ما سنتناوله بالدراسة فى فصول هذا الكتاب إن شاء الله .

الفصل الأول

أحوال الإسناد الخبري

الكلمات المفردة مثل : محمد ـ زيد ـ ذهب ـ شكر ـ لا يفهم منها سوى معانيها اللغوية التي وضعت لها ، ولكي تفيد معنى تاما ، لابد من ترابطها وضم بعضها إلى بعض ، وصياغتها في تراكيب مفيدة ، ونظم معبر ، هذا الترابط ، وذاك الضم ، وتلك الصياغة ، هي ما أطلق عليه البلاغيون اسم : « الإسناد » وعرفوه بقولهم : هو ضم كلمة إلى كلمة على وجه يفيد أن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنه . فقولنا : شكر محمد ، ولم يذهب زيد ، نجد أن كلمة « شكر » قد أسندت إلى كلمة « محمد » ، على وجه يفيد أن مفهوم « شكر » ثابت لمفهوم « محمد » ، ونجد في المثال الثاني أن كلمة : « يذهب » قد أسندت إلى كلمة « زيد » على وجه يفيد أن الذهاب منفي عن زيد . ويسمى كل من : « محمد وزيد » ، مسندا إليه أو محدثا عنه ، كما يسمى كل : « شكر ويذهب » ، مسندا أو حديثا ، وتسمى النسبة بين المسند إليه والمسند «إسنادا» وكذا القول في الجمل : هدانا الله ـ الحق واضح ـ محمد فاضل ـ الفراغ مفسدة الشمس ليست مشرقة حيث أسندت الهداية إلى الله ، والوضوح إلى الحق ، والفضل إلى محمد ، والفساد إلى الفراغ على وجه الإثبات ، وأسند الإشراق إلى الشمس على وجه النفي ، ولا يخفى عليك معرفة المسند والمسند إليه في الجمل المذكورة .

أغراض الخبر : عند ضم الكلمات وإسناد بعضها إلى بعض تتكون الجمل المفيدة أو الأخبار ، والمتكلم الذي هو بصدد الإخبار والإعلام ، يقصد بخبره غرضاً ، ويسعى من وراء الإعلام به إلى غاية ، وقد حصر البلاغيون

أغراض الخبر فى مقصدين أساسيين، حيث قالوا : إن قصد المخبر بخبره إما إفادة المخاطب أو السامع مضمون الخبر ونفس الحكم، كقوله : جاء عمرو، وزيد ناجح لمن لا يعلم مجيء عمرو . ونجاح زيد ، ويسمى هذا « فائدة الخبر » ، وهى المقصد الأول من الأسلوب الخبرى ، وإما إفادة المخاطب أنه أى : المتكلم ، عالم بالحكم وبمضمون الخبر الذى يعلمه المخاطب ، وذلك عندما يكون المخاطب عالما بمضمون الخبر ولكنه يجهل معرفة المتكلم به، كقوله لمن ظهرت نتيجة اختباره ووقف على نبأ نجاحه : « أنت نجحت » ، وكقوله لمن اسمه محمد : « اسمك محمد » ، فالمخاطب يعلم نبأ نجاحه . ولا يجهل اسمه ، ولكن المتكلم يريد إفادته أنه هو الآخر عالم بالحكم وبمضمون الخبر ، ويسمى هذا : «لازم الفائدة » ، وهى المقصد الثانى من الأسلوب الخبرى . ثم نبه البلاغيون ، إلى أن الخبر غالباً ما يقصد به أغراض أخرى غير هذين الغرضين الأساسيين وأن تلك الأغراض الأخرى أكثر من أن تحصى ، والمرجع فى معرفتها إلى تفهم السياق وقرائن الأحوال اعتمادا على الذوق الأدبى السليم والطبع العربى الأصيل . تأمل قوله : (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)(١) .

تجد أن امرأة عمران لم ترد بالخبر فائدته ولا لازم الفائدة ؛ لأن الله عز وجل أعلم بهذا . وإنما أرادت أن تظهر تحسرها وتحزنها على خيبة الرجاء حيث كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً كى تهبه لخدمة بيت المقدس . ثم تأمل قوله تعالى :(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)(٢) . ولاحظ مدى الفرق بين الأخبار فى هذه الآية الكريمة والخبر فى الآية السابقة ، فالأخبار فى هذه الآية ، أريد

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٦

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥

بها إعلام بعد المؤمنين حكما إسلاميا وخبراً جديداً لم يكن معلوما لهم من قبل . وهذا ما يسمى « بفائدة الخبر » . ومن هذا القبيل تلك الأخبار التى يكون الغرض منها عرض المسائل العلمية على الطلبة فى قاعة الدراسة وفى الكتب العلمية المؤلفة فى مختلف فنون العلم . وتعد إجابات الطلاب على ما يوجه إليهم من أسئلة ، أخباراً قصد بها « لازم الفائدة » ، إذ الغرض منها إفادة المعلم أنهم على علم بصحة الإجابة التى يعلمها . ومن الأخبار التى لم يرد بها الفائدة ولا لازمها قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام : (رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)(١) ، إذ المراد إظهار الضعف والتخشع والخضوع لله عز وجل . وقوله تعالى : (لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)(٢) ، فالمراد : حث الهمم وتحريك حمية القاعد .

ومن ذلك إرادة الفخر كما فى قول عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا رضيع   تخر له الجبابر ساجدينا

والنصح والإرشاد كما فى قول زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

والمدح كما فى قول النابغة يمدح النعمان بن المنذر .

فإنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

والهجاء كما فى قول جرير يهجو الفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا   أبشر بطول سلامة يا مربع

---

(١) سورة مريم الآية ٤

(٢) سورة النساء ٩٥ .

وإظهار الحزن والأسى كما فى قول العرجى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

والرثاء كما فى قول أبى ذؤيب الهذلى :

أودى بنى وأعقبونى غصة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

وكما فى قول ابن الرومى :

طواه الردى عنى فأضحى مزاره بعيداً على قرب قريبا على بعد

وإظهار الضعف وإبداء الملل والسآمة كما فى قول عوف بن محلم .

إن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

والتوبيخ والإنكار كقولك لمن يؤذى أباه : « إنما هو أبوك » . « إلى غير ذلك من الأغراض التى نبه البلاغيون إلى أنها أكثر من أن تحصى »(١) .

وجه دلالة الخبر على أغراضه : اختلفت آراء البلاغيين فى وجه دلالة الخبر على أغراضه المذكورة ، فبعضهم يرى أن الغرض الأول وهو « فائدة الخبر » يفهم من ذات الخبر ويدل عليه دلالة حقيقية مباشرة ، فعندما تقول لمن لا علم له بنجاح محمد : نجح محمد ، فإنه يفهم مضمون الخبر وفائدته من ذات الجملة ونفس الإسناد . أما بقية الأغراض فيدل عليها الخبر دلالة تبعية . فهى من مستتبعات التراكيب ، ومعنى مستتبعات التراكيب أن تلك الأغراض تفهم من الخبر بمعونة السياق ومعرفة قرائن الأحوال ، فدلالة الآية الكريمة (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى) على إظهار التحسر وإبداء التحزن ، تم عن طريق معرفة السياق والوقوف على قرائن أحواله ، من أن امرأة عمران قد وهبت

---

(١) انظر المطول ٤٣ .

مافى بطنها لخدمة بيت المقدس ، وأنه قد خاب رجاؤها ولم يتحقق ما أملته عندما وضعت أنثى . وهكذا بقية الأغراض يدل عليها الخبر بمعونة السياق ومعرفة قرائن أحواله .

ويرى آخرون أن « فائدة الخبر » و « لازم الفائدة » قد دل عليهما الخبر دلالة حقيقية حيث يفهمان من ذات الإسناد ونفس البناء وما عداهما دل عليه الخبر عن طريق الكناية ، فكما دلت كثرة الرماد وهزال الفصيل وجبن الكلب على صفة الكرم ، فكذلك الدلالة على الأغراض المذكورة : إظهار التحسر - إبداء الضعف - الفخر - الرثاء : قد فهمت من أخبارها فى الشواهد المذكورة عن طريق الكناية .

ورأى ثالث يقول : إن هذه الأغراض التى خرجت عن الأصل منه بل المجاز المرسل ، حيث استعمل الكلام فى معنى الفخر أو المدح أو التحسر أو تحريك الحمية مثلا مجازاً مرسلا من استعمال المركب فى غير ما وضع له لعلاقة اللزوم(١) ولا أرى فائدة ولا ثمرة وراء هذه الاختلافات فى تحديد وجه دلالة الخبر ، والذى أرجحه هو الرأى الأول ؛ لأن المخاطب عندما يقف على السياق ويعرف قرائن أحواله تتضح له هذه الأغراض ، فليس هنالك ما يدعو إذاً للقول بأن إفادتها عن طريق الكناية أو المجاز المركب .

أضرب الخبر : يعد المبرد أول من أشار إلى أضرب الخبر وذلك عندما سأله الفيلسوف الكندى قائلا : أجد فى كلام العرب حشواً ، أراهم يقولون : عبد الله قائم ، وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد ، فأجابه المبرد قائلا . بل المعانى مختلفة ، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار

---

(١) ارجع إلى هذه الآراء فى شروح التلخيص ١/٤٧ .

منكر . وقد أفاد البلاغيون من إجابة المبرد ونبهوا إلى ضرورة أن يكون المتكلم عالما بأحوال المخاطبين ، خبيرا بنفسياتهم وما يجول فى خواطرهم ويتردد فى أذهانهم ، وأن يلقى إليهم كلامه ملائما لتلك الأحوال ، فإذا كان المخاطب خالى الذهن ألقى إليه الكلام بدون تأكيد فيقال له مثلا : الحق واضح . انتصر الحق . عاد الغائب ، فيتمكن هذا فى ذهنه لمصادفته إياه خاليا وإذا كان المخاطب مترددا فى إسناد أحد الطرفين إلى الآخر ألقى إليه الكلام مؤكداً بمؤكد واحد استحسانا فيقال : إن الحق واضح . قد انتصر الحق، قد عاد الغائب ، ومؤكدات الحكم كثيرة منها : إن وأن ولام الابتداء والقسم ونون التوكيد وحروف التنبيه نحو ألا وها ، والحروف الزائدة وقد وضمير الفصل والتقديم . إلى غير ذلك من المؤكدات .

وإذا كان المخاطب منكرا للحكم وجب توكيد الخبر له حسب إنكاره فيقال له : إن الحق واضح ، إن كان لا يبالغ فى إنكاره ، وإن الحق لواضح إن كان يبالغ ، ووالله إن الحق لواضح لمن اشتـــد إنكاره وغالى فيه . فأضرب الخبر ثلاثة : ابتدائى : وهو ما يلقى للمخاطب الخالى الذهن ،ويكون خاليا من التوكيد ، وطلبى وهو ما يلقى للمخاطب المتردد فى الحكم ، ويكون مصحوبا بمؤكد واحد استحسانا ، وإنكارى وهو ما يلقى للمخاطب المنكر لمضمون الخبر ، ويجب أن يكون الكلام حينئذ مصحوبا بمؤكد أو أكثر حسب قوة الإنكار وضعفه .

انظر فى قوله تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)(١) تجد أن أصحاب القرية قد كذبوا الرسولين وأنكروا

---

(١) سورة يس الآيات ١٣ — ١٦

رسالتهما فعزز الله بثالث فقالت الرسل الثلاثة : « إنا إليكم مرسلون » مؤكدين الخبر لأصحاب القرية ، لأنهم منكرون له ، فلما اشتد إنكارهم وجحدهم لرسالتهم : « ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون » قالت الرسل : « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ، مؤكدين الخبر بإن واللام وصدروا الجملة بما هو فى معنى القسم : « ربنا يعلم » .

وانظر فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١) تجد أن المقام قد اقتضى تأكيد الخبرين بأكثر من مؤكد دفعاً لإنكار المنكرين وتبديداً لارتياب وشك الشاكين . فالكفرة قد أنكروا نزول القرآن وقالوا ساخرين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٢)، واقتضى هذا الإنكار تأكيد الخبر – كما ترى – بإن وضمير الفصل « نحن » وتكرار الإسناد للضمير « نحن نزلنا » . ولما كانت هناك شكوك محتملة أن يصيب القرآن ما أصاب التوراة والانجيل من التحريف والتبديل ، جاء الخبر الثانى مؤكداً بإن ولام التوكيد وتقديم الجار والمجرور « له » وهذا التأكيد يدفع تلك الشكوك المحتملة ويبث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين .

وخذ قوله تعالى . ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى . وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ . ﴾(٣) وتأمل تجد أن ضمير الفصل « هو » قد جاء فى بعض الآيات دون

---

(١) سورة الحجر الآية ٩

(٢) سورة الحجر آية ٦ ، ٧

(٣) سورة النجم الآيات ٤٢ – ٥٢ .

بعض، وأن الآيات التى جاء بها تحتاج إلى مزيد من تأكيد الخبر وتقوية نسبة أفعالها إلى الله عز وجل واختصاصها به، فالإضحاك والإبكاء - بمعنى السرور والحزن - والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء - أقنى أعطى القنية وهو المال الذى تملكته وعزمت ألا تخرجه من يدك - هذه الأفعال لما كانت مظنة الشركة وأن لغير الله - سبحانه وتعالى - دخلا وفاعلية فيها ، وكان هناك من ينكر البعث ، جاء ضمير الفصل ليؤكد نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى واختصاصها به وليبطل أن يكون لغيره دخل فى شئون عباده ، وليستأصل مظنة الشركة فيها فلا يتطلع المؤمن ولا ينظر إلا إلى السماء . وكذلك « الشعرى » لما كانت خزاعة تعبدها من دون الله ، أكد النظم الكريم ربوبيتها له تعالى ، وانظر إلى تقديم الجار والمجرور « إلى ربك المنتهى » « عليه النشأة الأخرى » ، ليؤكد بهذا التقديم ما ينكره المعاندون من انقلابهم إليه تعالى وإحيائه لهم بعد مماتهم ثم انظر إلى الأفعال التى جاءت بدون ضمير الوصل فى الآيات ولاحظ أنها ليست موضع إنكار ولا مظنة شركة : « وأنه خلق الزوجين » ، « وأنه أهلك عاداً » ، فهم لا ينكرون أن الله هو الخالق بل يقرون بذلك وينطقون بنسبة الخلق إليه تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) ، وإهلاك عاد وثمود وقوم نوح يعلمونه ويسمعونه من غير القرآن ولا ينكرونه فليس الخلق والإهلاك مما تظن فيه الشركة ولذا خلت الآيتان من ضمير الفصل ، وهكذا نجد نبرة التوكيد فى الآيات تعلو وتهبط لتلائم مواقع المعانى فى النفوس وما يكن داخلها وسبحان المحيط بالأسرار[1] .

هذا ويجىء الخبر على هذه الأضرب الثلاثة وملائما لحال المخاطب ، فيخلو من التأكيد عند إلقائه لخالى الذهن ويؤكد استحسانا للمتردد ووجوبا

---

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٥٠ .

للمنكر ، يسمى إخراجا للكلام على مقتضى الظاهر ، وكثيرا ما يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فيأتى على أمور اعتبارية يعتبرها المتكلم فى المخاطب فينزل حاله منزلة حال أخرى ويكون ذلك لدواع وأسرار بلاغية يقتضيها المقام .

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر : قد يقتضى المقام أن يفترض المتكلم حالا فى المخاطب غير حاله الحقيقية التى هو عليها ، فينزل خالى الذهن منزلة المتردد أو المنكر ، وينزل المنكر منزلة غير المنكر ، وذلك لا يكون إلا لأسرار يلتفت إليها المتكلم ويعيها البصير بلطائف هذه اللغة ودقائقها . فعندما تكون الجمل المتقدمة فى سياق الكلام متضمنة ما يشير إلى الخبر ويلوح به ويومىء إليه فإنها تثير فى النفس المتلقية تساؤلا يجعلها تتطلع وتستشرف إلى معرفة الخبر والوقوف عليه ، وعندئذ تأتى جملة الخبر مؤكدة لتزيل ما أثير فى نفس المخاطب من تساؤلات واستشرافات منزلة إياه منزلة المتردد السائل ، ويقع هذا غالبا إذا كانت الجمل السابقة تتضمن نصائح أو إرشاداً وتوجيهاً أو نهياً وأمراً ، أو حدثا غريبا يستدعى وقوف النفس وتأملها .

انظر إلى قوله تعالى : (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)[1] ، نجد أن جملة : « إنهم مغرقون » ، قد جاءت مؤكدة بإن ، والمخاطب وهو نوح — عليه السلام — ليس متردداً فى مضمون إفادتها وذلك لأنه لما تقدم فى سياق الآيات الكريمة إخباره أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، ونهيه عن أن يحزن لما صنعوا : « لا تبتئس » ثم أمره بصنع الفلك ونهيه عن

---

(١) سورة هود آية ٣٦ ، ٣٧ .

مخاطبة الله فى شأن من أعرض وكفر ، هذا الذى تقدم أثار فى نفس نوح عليه السلام تساؤلا عما سيحل بالقوم وتطلعت نفسه إلى معرفة الخبر ، أهو إغراق خاصة وأن الأمر بصنع الفلك يشير إليه إشارة ظاهرة ؟ فنزل لهذا منزلة المتردد السائل وألقى إليه الخبر مؤكدا « إنهم مغرقون » ليجيب ما أثير فى نفسه . ومثله قوله تعالى: (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا)[1] . فتقدم النهى «لاتحزن» أثار فى نفس أبى بكر رضى الله عنه تطلعا وتشوقا إلى معرفة الخبر ، ولذا جاء مؤكداً : « إن الله معنا » تنزيلا له منزلة السائل المتردد ، ومثل هذا كثير فى أساليب القرآن الكريم تأمل قوله تعالى : (سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ)[2] ، وقوله عز وجل : (قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)[3] ؛ وقوله جل وعلا : (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)[4] ، وقوله تعالى : (وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)[5] ولا يخفى عليك مجىء الخبر مؤكدا بعد الأوامر والنواهى فى الآيات الكريمة ، لأن الأمر أو النهى المتقدم أثار فى نفس المخاطب تساؤلا وتطلعا إلى معرفة الخبر فنزل منزلة السائل المتردد ، وخذ قوله تعالى (وما أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ

---

(١) سورة التوبة آية ٤٠

(٢) سورة التوبة آية ٩٥ .

(٣) سورة التوبة آية ٥٣

(٤) سورة التوبة ٨٤

(٥) سورة الإسراء آية ٣٢

بالسّوء)[1] ، تجد أن صدر الآية قد تضمن خبرا غريبا وهو اتهام المتكلم نفسه ونفى التبرئة عنها ، والمتكلم وهو يوسف - عليه السلام - أو امرأة العزيز ، على خلاف بين المفسرين ، فعلى أنه يوسف ، يكون نفى التبرئة عن نفسه أمرا غريبا يثير فى النفس تساؤلا واستشرافا لمعرفة الخبر ، إذ كيف لا يبرىء يوسف نفسه وهو التقى النقى ؟ ولذا جاء الخبر مؤكدا : « إن النفس لأمارة بالسوء » تنزيلا للمخاطب خالى الذهن منزلة السائل المتردد . وعلى الرأى القائل بأن المتكلم امرأة العزيز فلا يخلو نفى التبرئة عن نفسها من إثارة التساؤل فى نفس المخاطب ، لأن اتهام النفس ونفى التبرئة عنها من الأمور المستبعدة .

ومن أشعارهم فى هذا الصدد قول الشاعر :

فغنها وهى لك الفداء   إن غناء الإبل الحُداء

فحينما قال الشاعر : غنها ليشتد سيرها ، صار السامع مترددا ماغناؤها أهو الحداء أم غيره ؟ فجاء الخبر مؤكدا « إن غناء الإبل الحداء » ، على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل خالى الذهن منزلة المتردد السائل ليزيل ما أثير فى نفس السامع . ومما يروى أن أبا عمرو بن العلاء وخلف الأحمر كانا يأتيان بشاراً ، فيستمعان إليه ويكتبان عنه ، وقـــد أتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة ؟ قال هى ما بلغتكما . قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه مالا يعرف قالا : فأنشدنا يا أبا معاذ ، فأنشدهما :

بكرا صاحبى قبل الهجير   إن ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان « إن ذاك

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٣ .

النجاح » ، « بكرا فالنجاح » ، كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابيه وحشية ، فقلت : « إن ذاك النجاح » ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : « بكرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة فقام خاف فقبل مابين عينيه . وإنما كان « بكرا فالنجاح » من كلام المولدين ، لأنه ليس فيه من دقة الإشارة إلى تنزيل غير المتردد منزلة السائل المتردد ، ما فى قوله : « إن ذاك النجاح » ، ولكن فيه تكرير الأمر بالتبكير لتأكيده على وجه ظاهر ليس فيه دقة ذلك التأكيد الخفى ، والمولدون يؤثرون السهولة على الدقة(١)

* * *

وقد ينزل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره . لأنه لو فكر وتأمل لارتدع عن إنكاره وأقلع عن جحوده وتكذيبه .

انظر فى قوله تعالى : (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ)(٢) تجد أن الخطاب موجه إلى المشركين المعاندين الذين لا يقرون بالوحدانية لله تعالى ، وكان مقتضى حالهم أن يأتى إليهم الكلام مؤكدا ، ولكنهم نزلوا منزلة غير المنكرين ، لعدم الاعتداد بهذا الإنكار ، لأنهم لو تأملوا وتدبروا لأقلعوا عن إنكارهم ، ولأقروا بما ينبغى لجلال سلطانه وعظيم شأنه .

وتأمل قوله تعالى : (كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٧٧ ، ١٨٨
(٢) سورة البقرة الآية ١٦٣ .

هُوَ رَبِّى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)[١] تجد أن الخبر « هو ربى » قد وجه إلى هؤلاء المنكرين الذين كفروا بالرحمن ، خاليا من التأكيد ، حيث لم يعتد بإنكارهم . وهذا ينبىء بضعف عقولهم وقرب نظرهم ، لأنهم لو تأملوا وفكروا ما أنكروا .

وخذ قوله تعالى : (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ)[٢] تجد أن الخبر « الله ربنا وربكم » مساق للكفرة الذين ينكرونه ، وقد خلا من التوكيد إشارة إلى أنه مما ينبغى ألا يجحد وينكر . ومثل هذا كثير فى النظم الكريم : انظر إلى الآيات الكريمة : (الٓمٓ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)[٣] (حمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[٤] (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً . مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)[٥]

تجد أن الخطاب فيها موجه إلى المؤمن والكافر ، ولكنها لم تعبأ بإنكار الكافر وتكذيبه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتنزيل الكتاب فألقت الخبر بلا تأكيد : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » « تنزيل الكتاب من الله » « محمد رسول الله . . . » تنبيها إلى أنه لو تأمل وتدبر لأقر بذلك ولم يجحده .

وتقول لمنكر الإسلام ولجاحد الصلاة ولمنكر وجود الله : الإسلام

---

(١) سورة الرعد آية ٣٠ .

(٢) سورة الشورى آية ١٥ .

(٣) سورة البقرة آية ١ ، ٢ .

(٤) سورة غافر آية ١ ، ٢ .

(٥) سورة الفتح آية ٢٨ ، ٢٩ .

حق ، الصلاة واجبة ، الله موجود ، فتنزله منزلة غير المنكر لعدم اعتدادك بإنكاره . وانظر إلى قول الفرزدق مخاطبا هشام بن عبد الملك حينما أنكر معرفته لعلي بن الحسين :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

فلم يعتد الفرزدق بإنكار هشام وتجاهله «عليا» ، وألقى إليه الخبر مجرداً من التوكيد ، تنزيلا له منزلة غير المنكر ، لأنه لو أنصف ما أنكر وتجاهل ، ولذا لم يعتد الشاعر بهذا الإنكار ، وفيه توبيخ وتبكيت لهشام حيث أنكر أمرا معلوما واضحاً ما كان ينبغي له أن ينكره .

* * *

وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر ، إذا بدا عليه شيء من أمارات الإنكار ، فيلقى إليه الخبر مؤكدا . انظر إلى قول الباهلي :

جاء شقيق عارضا رمحه ... إن بني عمك فيهم رماح

لما رأى شقيقا قد جاء عارضا رمحه أي : واضعه على عرضه وجاعله على فخذه ، مدلا بشجاعته ، مفتخرا بقوته ، لم يعبأ ببني عمه ، وكأنهم عزل من السلاح ، لما رآه الشاعر هكذا نزله منزلة المنكر الذي يجحد قوة بني عمه ولا يقر بما لديهم من عتاد وأسلحة ، فخاطبه خطابه ، وألقى إليه الخبر مؤكدا : « إن بني عمك فيهم رماح » . . . وخذ قوله تعالى : (إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ

ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)(١) ، لما كان — صلى الله عليه وسلم — شديد الحرص على هدايتهم ، مجهدا نفسه فى إبلاغهم ما أنزل إليه ، متطلعا إلى استجابتهم وقبولهم الحق وإقلاعهم عن الضلال والكفر ، لما كان كذلك نزل منزلة من يعتقد أنه يستطيع إسماع الصم وهداية العمى وينكر عدم قدرته على إسماعهم وهدايتهم فألقى إليه الخبر مؤكدا : « إنك لاتسمع الموتى » . . وتأمل قوله تعالى : (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢) ، تجد أن الذين تابوا وآمنوا لا ينكرون مغفرة الله ورحمته ، ولكنهم لما كانوا قد ارتكبوا السيئات واقترفوا الذنوب والآثام صاروا فى خوف من عقاب الله ، وكلما تذكروا ما اقترفوا اقشعرت جلودهم وتذكروا عذاب الله ، فنزلت حالتهم هذه وما هم فيه من خوف وقلق وعدم أمن ، منزلة من ينكر رحمة الله ومغفرته ، وألقى إليهم الخبر مؤكدا : « إن ربك من بعدها لغفور رحيم » طمأنة لهم وتثبيتا .. ومن ذلك قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(٣) ، فقد أكد الخبر الأول : « إنا نحن نزلنا الذكر » دفعا لإنكار المنكرين — كما مر بنا — وأكد الخبر الثانى : « وإنا له لحافظون » بثا للطمأنينة فى قلوب المؤمنين الذين رأوا ما أصاب الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل من تحريف وتبديل ، فخافوا أن يصيب القرآن ما أصاب هذه الكتب وتطلعوا إلى حفظه من التحريف وجال القلق على القرآن فى نفوسهم ، ولذا خوطبوا خطاب المنكر فأكد لهم الخبر على خلاف مقتضى الظاهر ، تثبيتاً لهم . .

---

(١) سورة النمل ٨٠ ، ٨١

(٢) سورة الأعراف ١٥٣

(٣) سورة الحجر ٩

وتأمل قول الشاعر :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فلما كان المخاطب يطلب النجاة ولم يأخذ بأسبابها ولم يسلك طرقها نزل منزلة من يعتقد أن السفينة تجرى على اليبس وينكر عدم جريانها عليه ، فأكد له الخبر . « إن السفينة لا تجرىْ على اليبس » وانظر فى قوله تعالى : (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ • ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)[1] ، تجده قد أكد الخبر الأول بمؤكدين وهو مما لا ينكر ، وأكد الثانى بمؤكد واحد وهو مما ينكر ويدفع ، حيث أنكر الكفرة البعث ولم ينكروا الموت ، ويعلل ذلك القزوينى بقوله : « أكد إثبات الموت تأكيدين وإن كان مما لا ينكر ، لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ فى إنكار الموت ، لتماديهم فى الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل « ميتون » دون تموتون . لإفادة الثبوت والدوام . وأكد إثبات البعث تأكيدا واحدا وإن كان مما ينكر ، لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا بالا ينكر ، بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه ، فنزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيها لهم على ظهور أدلته وحثا على النظر فيها ولذا جاء « تبعثون » على الأصل »[2] .. وتقول للمسلم الذى يهمل الصلاة ولا يدفع زكاة ماله ، وللابن الذى يؤذى أباه : إن الصلاة لواجبة .. وإن الزكاة لحق للفقير .. وإنما هو أبوك ، فتنزله بمنزلة المنكر وتجرى الكلام على خلاف ظاهر حاله لعدم جريه على وفق ما يعلم ..

هذا وحال المخاطب ليست دائما هى المعول الذى يعول عليه فى تأكيد الخبر أو عدم تأكيده ، فقد يؤكد الخبر دون نظر إلى أحوال المخاطب ، بل

---

(١) سورة المؤمنون ١٤ ـ ١٦

(٢) الإيضاح ١ / ٥١

لدواع أخرى بعيدة عن تلك الأحوال ، كما قد يترك توكيده دون أن يكون لحال المخاطب دخل فى ترك التوكيد . . انظر إلى قول الفرزدق يخاطب جريراً :

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم وإليـــه كان حباء جفنة ينقل
إنا لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف أتانه يتقمل

لا يتأتى أن يقال : إن الشاعر أكد الخبر فى قوله : « إنا لنضرب » ؛ لأنه يخاطب من ينكر عليهم هذا الضرب ، أو من قد نزل هذه المنزلة إذ كيف يتصور الشاعر أن هناك من ينكر ذلك و هو يمدح ويفخر بالشجاعة وشدة الفتك ، إن مجرد جريان مثل هذا فى ذهنه وخياله يناقض المعنى الذى أراد إثباته . . . كما أنه لا يقال إن جريراً غير منكر للخبر الثانى « وأبوك خلف أتانه » ، بل هو ينكره أشد الإنكار ، ومع ذلك ألقاه إليه الفرزدق خاليا من التوكيد ، فحال المخاطب فى البيت لا يعول عليها فى تأكيد الخبر الأول ، ولا فى ترك تأكيد الخبر الثانى . . فما المعول عليه إذاً ؟ المعول عليه هو حال المتكلم نفسه ، حيث نظر المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بالحقائق التى يصورها ، وحرصه على إذاعتها ونقلها إلى النفوس كما أحسها ، فقد صاغ الخبر الأول ، كما أحسه مؤكدا مقررا وصاغ الثانى عاريا من التوكيد ليوهم أنها حقيقة لا ينبغى لجرير أن ينكرها . . ونظير ذلك قول ابن الرومى فى رثاء ابنه :

وإنى وإن متعت بابنى بعـده لذاكره ما حنت النيب فى نجد

وقول الآخر :

إنا لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكماة ألا أين المحامونا

وقول أبى نخيلة فى مدح مسلمة بن عبد الملك :

أمسلم إنى يا ابن كل خليفـــة ويا جبل الدنيا ويا واحد الأرض
شكرتك إن الشكر حبل من التقى وما كل من أوليته صالحا يقضى

وأنبهت لى ذكرى وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

وقول مضرس بن ربعى :

لعمرك إنى بالخليل الذى له على دلال واجب لمفجع
وإنى بالمولى الذى ليس نافعى ولا ضائرى فقدانه لممتع

ففى مثل هذه الأبيات لم ينظر فى تأكيد الخبر إلى حال مخاطب قد أنكر الحكم ، وإنما أراد الشعراء أن يبرزوا أحوال أنفسهم وأن ينقلوا للسامع ماجال فى خواطرهم ، فصاغوا هذه الأخبار كما شعروا بها وأحسوها مقررة مؤكدة ...

وهذا كثير فى النظم القرآنى الكريم، انظر إلى قوله تعالى : (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)(١) .

صاغ إبراهيم ـ عليه السلام ـ الخبر مؤكدا كما أحسه ، وكما انفعلت به نفسه ، ولم ينظر فى صياغته إلى اعتبارات خارجية يلحظها عند المخاطب .. ومثله قوله تعالى : (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَىْءٍ فى الأَرْضِ وَلاَ فى السَّمَاءِ)(٢) . وقوله عز وجل : (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)(٣) ، وقوله جل وعلا : (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا)(٤) ، وانظر فى قوله تبارك وتعالى : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ

(١) سورة إبراهيم آية ٣٧ .
(٢) سورة إبراهيم آية ٣٨ .
(٣) سورة آل عمران آية ٩
(٤) سورة آل عمران آية ١٩٣ .

يَشْهَدُ إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)[1] . تجد أن المنافقين قد أكدوا الخبر : « إنك لرسول الله » ليفيدوا أنه قد امتلأت به نفوسهم وأن هذه الشهادة صادرة عن صميم قلوبهم ولما كان قولهم هذا عن غير اعتقاد ، فقد جاء تأكيد الخبرين : « إنك لرسوله .. » « إن المنافقين لكاذبون » ليفيد أن ماقرروه وأكدوه . عن غير اعتقاد ، سيبقى مؤكدا قويا فى علم الله وفى اعتقاد المؤمن، وليبرز كذبهم بنفس القوة والتأكيد الذى أكدوا به شهادتهم عن غير اعتقاد. وفى هذا توبيخ وتقريع لهؤلاء المنافقين . . . وتأمل قوله تعالى: (وَإذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا وَإذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إنَّا مَعَكُمْ)[2]. تجد أن إلقاء الخبر إلى الذين آمنوا قد جاء بلا تأكيد : « آمنا » ، وهذا يدل على أن نفوسهم غير ممتلئة به وأنه لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، أما إلقاؤه إلى شياطينهم فقد جاء مؤكدا : « إنا معكم ، إنما نحن مستهزءون » وهذا ينبىء أن نفوسهم قد امتلأت بهذا القول وأنهم يقولونه عن صدق رغبة واعتقاد ، ويجدون فيه أريحية لا يجدونها فى القول الأول . . . هذا وكما يكون داعى التوكيد هو رغبة المتكلم فى إبراز الخبر مؤكدا كما أحسه وانفعل به وامتلأت به نفسه ، فقد يكون داعى التوكيد هو الرغبة فى تحقيق الوعد أو الوعيد كما فى قوله تعالى : (إنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ • أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)[3]، وقوله تعالى: (إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)[4] ، وقوله تعالى : (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ

---

(١) سورة المنافقون آية ١ .

(٢) سورة البقرة آية ١٤ .

(٣) سورة الحج آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) سورة الأنبياء آية ١٠١

قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)[١] . وقوله تعالى : (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)[٢] وقد يكون داعى التوكيد هو رغبة المتكلم فى تقوية مضمون الكلام وتقريره فى نفس المخاطب كما فى الآيات الكريمة : (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)[٣] . وقوله : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً)[٤] . وقوله : (إِنَّنِى أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى)[٥] . وقوله : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ • وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[٦] .

وقد يكون التوكيد لغرابة الخبر كما فى قوله تعالى : (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[٧] .

وقد يأتى التوكيد للإشارة إلى مجيء الخبر على غير ما كان يرجو المتكلم ويأمل ، وكأن نفس المتكلم تنكره فيؤكده لها ، ومن ذلك قوله تعالى : (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى)[٨] ، وقوله عز وجل : (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[٩] إلى غير ذلك من الدواعى والأسباب التى يؤكد لها الخبر[١٠] .

---

(١) سورة الزمر الآية ٨ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٨
(٣) سورة النمل آية ٧٩
(٤) سورة الإنسان آية ٢٣
(٥) سورة طه آية ١٤
(٦) سورة الشعراء آية ١٩١ ، ١٩٢
(٧) سورة القصص آية ٣٠
(٨) سورة آل عمران آية ٣٦
(٩) سورة الشعراء آية ١١٧ ، ١١٨
(١٠) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٥٧ وما بعدها .

التجوز فى الإسناد

الإسناد - كما تقدم - معناه : بناء الجملة أو تكوين العبارة أو ضم الكلمة إلى الكلمة لتتكون نظماً معبراً وكلاما مفيداً وتركيبا جيدا ، وهذا الإسناد لا يجرى دائمـــا على أسلوب الحقيقة ، بل قد يتم عن طريق المجاز بمعنى أن يتجوز المتكلم فى بناء جمله أو تكوين عباراته وقد يتم عن طريق الحقيقة ، فمن الأبنية الحقيقية قولك . جاء محمد - ضرب زيد عمرا - ربح على فى تجارته - حمينا نساءنا - حيث تجد الفعل قد أسند إلى فاعله الحقيقى الذى فعله وقام به ، وانظر إلى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ)(١) ، وقوله عز وجل : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)(٢) تجد أن الأفعال ينزل ، يعـــلم ، تؤتى ، تنزع ، تعز ، تذل ، قد أسندت إلى فاعلها الحقيقى وهو « الله تعالى » ، ومن الأبنية المجازية قولك ربحت التجارة ، حمت السيوف النساء ، سار الطريق ، جرى النهر ، أذل الحرص أعناق الرجال ، تخطفهم الطريق ، جمعتهم الطاعة وفرقتهم المعصية ، حيث أسندت الأفعال كما ترى إلى غير فاعلها الحقيقى ، فالتجارة لا تفعل الربح والسيوف لا تفعل الحماية والطريق لا يسير ولا يتخطف والنهر لا يجرى والحرص لا يفعل الإذلال والطاعة لا تفعل الجمع والمعصية لا تفعل التفريق ولذا كان الإسناد فى هذه الأمثلة إسناداً مجازياً ، وانظر فى قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)(٣) ، وقوله عز وجل : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ)(٤) . تلاحظ

---

(١) سورة لقمان آية ٣٤

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦

(٣) سورة القارعة آية ٦ ، ٧

(٤) سورة البقرة آية ١٦

أنه قد أسندت «راضية» اسم فاعل إلى ضمير العيشة ، والعيشة تكون مرضية لا راضية وأسند الربح إلى التجارة، والرابح هو صاحبها وليست هي، فالإسناد في الآيتين إسناد مجازي .

ويزعم بعض الباحثين أن المجاز العقلي من ابتكارات الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ولكن عندما ترجع إلى أصول البلاغة في التراث العربي لدى الدارسين الأوائل ، تراهم قد اهتموا بدراسة هذا الأسلوب وأشاروا إليه كما أشاروا إلى غيره من مسائل البلاغة وفنونها ، وإن لم يسموه بهذه التسمية . فقد أشار إليه سيبويه عند حديثه عن بيت الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار

إذ يقول : « فجعلها الإقبال والإدبار مجاز على سعة الكلام كقولك: نهارك صائم وليلك قائم »[1] . وتحدث عنه أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن في أكثر من موضع ، إذ يقول عن الآية الكريمة (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) : وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها[2] .

ويقول عن الآية : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)[3] : « مجازه مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أي : يبصر فيه ، ألا ترى أن البصر إنما هو في النهار ، والنهار لا يبصر ، كما أن النوم في الليل ، ولا ينام الليل ، فإذا نيم فيه قالوا : ليله نائم ونهاره صائم ، قال جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم[4]

---

(١) الكتاب ١/١٦٩ .
(٢) مجاز القرآن ١/٢٧٩ .
(٣) سورة النمل آية ٨٦
(٤) مجاز القرآن ٢/٩٦ .

ويمضي الحديث عن أسلوب المجاز العقلي عند الفراء ، إذ أشار إليه في الآيات : (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (خُلِقَ مِنْ ماء دَافِقٍ) (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) وفي قول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالمعنى : لا معصوم اليوم من أمر الله ، خلق من ماء مدفوق ، في عيشة مرضية ، واقعد فإنك أنت المطعوم المكسو[1] .

كما تحدث عنه في قوله تعالى : (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) إذ يقول : « ربما قال قائل : كيف تربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر ؟ وذلك من كلام العرب : ربح بيعك وخسر بيعك ، فحسن القول بذلك ، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة ، فعلم معناه ، ومثله من كلام العرب : هذا ليل نائم ، ومثله من كتاب الله : (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ) وإنما العزيمة للرجال »[2] فهنا نراه يضيف جديدا إلى دراسة هذا اللون وهو أن يكون المخاطب عالما بوضع التجوز عارفا الإسناد الحقيقي الذي عدل عنه ، وهذا يتم عن طريق السياق وقرائن الأحوال ، فلو قلت : خسر عبدك ، على أن العبد تجارة يقع فيها الربح والخسارة ، لا يعلم أنك متجوز في الإسناد إلا إذا أتت قرينة دالة ، كأن تقول ربحت أغنامك وإبلك وخسر بزك ورقيقك ، وذلك لأن العبد قد يكون تاجرا وهذه إشارة دقيقة من الفراء .

وتحدث الجاحظ عن المجاز العقلي إذ يقول : « وسمع الحسن رجلا يقول :

---

(١) انظر معاني القرآن ٢/١٥ ، ١٦ .
(٢) معاني القرآن ١/١٤ .

طلع سهيل وبرد الليل ، فكره ذلك وقال : إن سهيلا لم يأت بحر ولا ببرد قط . ولهذا الكلام مجاز ومذهب ، وقد كرهه الحسن كما ترى ، وكره مالك ابن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة : ما أخلقها المطر ! . وهذا كلام مجازه قائم وقد كرهه ابن أنس ، كأنهم من خوفهم عليهم العود فى شىء من أمر الجاهلية ، احتاطوا فى أمورهم ، فمنعوهم من الكلام الذى فيه أدنى تعلق»(١)

فالجاحظ هنا يشير إلى وجود أسلوب المجاز العقلى فى اللغة ، وإلى قضية خلق الأفعال التى شغلت المسلمين فى عصره ، فالمعتزلة اعتقدوا أن العبد يخلق أفعاله الاختيارية ، وأهل السنة يعتقدون أن الأفعال كلها مخلوقة لله . وليس هذا موضع مناقشة تلك الأمور الاعتقادية ولكن ينبغى أن تعلم أن قولك : قام زيد ، ليس مجازا عقليا ، بل هو حقيقة وزيد فاعل للقيام بتأثير الله عز وجل فيه ، وفرق بين الخلق بمعنى : الإيجاد والتأثير وبين الخلق بمعنى القيام بالفعل بأمر الله ، بمعنى : أن العرب إنما وضعت «قام» لفعل العبد الواقع بخلق الله تعالى ، فالقيام معنى قائم بزيد ، ووصف له ، وله فيه كسب وتحصيل ، وهذا يكفى ليكون الإسناد حقيقيا ، فالإسناد الحقيقى ثلاثة أقسام :

١ — مايراد وقوعه من فاعله حقيقة بمعنى التأثير ، وذلك يختص الله تعالى كقولنا : خلق الله ورزق وأعطى وأحيا وأمات .

٢ — مايراد وقوعه حكما مثل : قام زيد وذهب عمرو .

٣ — مايراد به مجرد الاتصاف مثل : مرض زيد ، وبرد الماء (٢) .

وهكذا نرى العلماء قد شغلوا بأمر المجاز العقلى وبوجوده فى اللغة ، فنرى ابن قتيبة يتحدث عنه ويذكر شواهده فى معرض حديثه عن المجاز ووجوده

---

(١) الحيوان ١/٣٤١

(٢) انظر شروح التلخيص ١/٢٢٨ .

فى القرآن الكريم وتفنيد مطاعن الطاعنين إذ يقول : « وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز ، فإنهم زعموا أن المجاز كذب ، لأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل ، وهـــذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا ، كان أكثر كلامنا فاسداً . لأنا نقول : نبت البقل وطالت الشجرة وأينعت الثمرة وأقام الجبل ورخص السعر . والله تعالى يقول : (فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ) وإنما يعزم عليه ، ويقول تعالى : (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) وإنما يربح فيها ، ويقول : (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) وإنما كذب به . . . »[1] .

ويقول المبرد فى قول الشاعر :

حملت به فى ليـــلة مزءودة كرها وعقد نطاقها لم يحلل

« مزءودة : ذات زؤد وهو الفزع ، فمن نصب « مزءودة » ، فإنما أراد المرأة ، ومن خفض فإنما أراد الليلة ، وجعل الليلة ذات فزع لأنه يفزع فيها . قال الله تعالى : (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) والمعنى : بل مكركم فى الليل والنهار . . »[2] ، وكذا تحدث عنه ابن فارس وابن جنى وعبد الجبار وغيرهم وأشاروا إلى شواهده وأمثلته فى اللغة . ولما جاء عبد القاهر حلل هذه الشواهد وفصل القول فيه ووضع له تلك التسمية « المجاز العقلى » أو « المجاز الحكمى » وفرق بينه وبين المجاز اللغوى ، وشأن عبد القاهر فى حديثه عن أسلوب المجاز العقلى ، شأنه فى تناوله لغيره من فنون البلاغة ومسائلها ، فهو يتأثر بمن سبقه ويمتاز بالتحليل وعرض الشواهد وتفصيل القول . فمن الخطأ أن يقال : إن عبد القاهر هو الذى ابتكر هذا المجاز ، ولعل القائل بهذا وهو يغالى ويسرف فى إثبات مدى تأثر عبد القاهر بأرسطو فيما يعرض من مسائل البلاغة ـ لعله

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) الكامل ١/٧٩ .

لما لم يجد أرسطو قد تحدث عن المجاز العقلى ، جعله من اختراعات عبدالقاهر وابتكاره(١) .

* * *

هذا ويطلق البلاغيون على المجاز العقلى تسميات كثيرة منها « المجاز فى الإسناد » لكثرة وروده فى النسب الإسنادية على نحو ماسترى ، ومنها « مجاز الملابسة » ليشمل النسب الإسنادية وغيرها ، ومنها « المجاز الحكمى » نسبة إلى حكم العقل ، أو إلى الحكم الذى هو النسبة بين المسند والمسند إليه ومنها « المجاز النسبى » لوقوعه فى النسبة كما قلنا . ويسميه بعضهم بالمجاز فى الإثبات، والبعض بالمجاز فى الجملة وآخرون بالمجاز التركيبى ، وأشهر هذه التسميات : « المجاز العقلى » لرجوعه إلى تصرف العقل وحكمه .

وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن الإسناد الحقيقى قبل أن يتناولوا هذا المجاز ، لأن معرفته تنبنى على معرفة الحقيقة العقليـــة والإحاطة بها .

يقول الخطيب فى تعريفه للحقيقة العقلية : « هى إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ما هو له عند المتكلم فى الظاهر »(٢) .

وما فى معنى الفعل يشمل اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والمصدر . فإنها تدل على الحدث مجرداً من الزمن ، أما الفعل فإنه يدل على الحدث المقترن بالزمن ، ولذا كانت الأسماء المذكورة فيهامعنى الفعل حيث تدل على الحدث وهو جزء من معنى الفعل ، ولا تدل على الزمن وهو جزء آخر من معنى الفعل .

---

(١) انظر مقدمة نقد النثر ٢٩ .

(٢) الإيضاح ١/٥٤

وقوله « إلى ما هو له » يعنى أن تسند الفعل أو فى معناه إلى فاعله الذى هو له وفعله حقيقة أو حكما كقولك : خلق الله الخلق وأحيا الأرض وأبدع السموات ، فالله هو الفاعل الحقيقى لهذه الأفعال ، هو المؤثر فى إيجادها ، وكقولك : قام زيد وذهب عمرو ومرض خالد وبرد الماء ، فزيد وعمرو فاعلان للفعلين المذكورين حكما بمعنى أن لهما كسبا وتحصيلا فيهما ، وهذا يكفى لأن يكون الإسناد حقيقيا ، وخالد والماء ، قد اتصف كل منهما بالفعل الذى أسند إليه وهذا أيضاً كاف لكون الإسناد حقيقياً . فالفاعل إما أن يكون هو الذى فعل الفعل حقيقة وأثر فى إيجاده وذلك لا يكون إلا لفاعل واحد هو الله سبحانه وتعالى ، وإما أن يكون فاعلا للفعل حكما بمعنى أن يقوم به بأمر الله وتأثيره فيه ويكون له فيه كسب وتحصيل ، وإما أن يكون متصفاً بالفعل . وفى كل ذلك يكون الإسناد حقيقياً كما فى الأمثلة .

وقوله : « عند المتكلم فى الظاهر » : قيد فى التعريف يفيد أن المعول عليه فى الإسناد هو اعتقاد المتكلم وما يبدو للمخاطب من ظاهر حاله ، وبهذا يدخل فى الحقيقة العقلية الأقوال التى تطابق الاعتقاد دون الواقع ، والأقوال الكاذبة التى لا تطابق الواقع ولا الاعتقاد ، كما يدخل فيها ماطابق الواقع والاعتقاد معاً ، وما طابق الواقع دون الاعتقاد ، فالحقيقة العقلية أربعة أقسام :

الأول : ماطابق فيه الإسناد الواقع والاعتقاد معاً ، كقول المؤمن : شفى الله المريض . أنبت الله النبات ، فشفاء المريض وإنبات النبات لله تعالى فى الواقع وهو كذلك فى اعتقاد المتكلم المؤمن .

الثانى : ماطابق فيه الإسناد اعتقاد المتكلم وخالف الواقع كقول الجاهل شفى الطبيب المريض . وأنبت الربيع النبات فاعتقاد الجاهل أن شفاء المريض من الطبيب وأن إنبات النبات من الربيع ولكن الواقع يخالف ذلك ويناقضه

إذ الشفاء من الله والطبيب سبب له ، والإنبات من الله تعالى والربيع ظرف له. ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن الدهريين : (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ)[1] فالدهرى يعتقد أن الدهر هو الفاعل وهو الذى يهلك وهذا اعتقاد باطل لأن الواقع يدفعه والمؤمن عندما يسند الأفعال إلى الدهر أو الأيام ، فإنه لا يعتقد أنها الفاعل ، بل يكون متجوزاً كما سنرى.

الثالث ماطابق فيه الإسناد الواقع وخالف اعتقاد المتكلم وذلك كقول المعتزلى لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه : « إن خالق الأفعال كلها هو الله ». فإسناد خلق الأفعال إلى الله إسناد حقيقى ، يطابق الواقع ، ولكنه يخالف اعتقاد المعتزلى إذ اعتقاده أن الأفعال الاختيارية تسند إلى العبد لا إلى الله تعالى ، ولا يمكن حمل هذا على المجاز لأن المخاطب لا يعلم حال المتكلم الخفية ، فإن علمت هذه الحال أو وجدت القرينة الدالة على أنّ إسناد الفعل لغير ما هو له ، كان الإسناد مجازيا .

الرابع : ماخالف الإسناد فيه الواقع والاعتقاد معا ، وذلك كالأقوال الكاذبة التى يكون القائل عالما بها دون المخاطب كأن يقول نجح فلان وهو لم ينجح ، فهذا القول يخالف الواقع ويخالف اعتقاد القائل ، وإنما كان من قبيل الإسناد الحقيقى لأن المخاطب لا يعلم أنه كذب ، والمتكلم الكاذب لا ينصب قرينة تدل على أنه كاذب .

هذا ونلاحظ أن الخطيب قد قصر الإسناد الحقيقى على الفعل وما فى معناه ، وكأن الإسناد الذى لا يكون المسند فيه فعلا ولا ما فى معنى الفعل نحو : زيد أخى وعمرو أخوك ، ليس من الحقيقة العقلية ، ولذلك كان تعريف عبد القاهر للحقيقة العقلية أدق وأصوب إذ عرفها بقوله : « كل جملة وضعتم

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٤ .

على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه .»(١) فلم يقيد الإسناد بالفعل ولا ما فى معناه ، كما صنع الخطيب .

ه ه ه

أما المجاز العقلى فقد عرفه الخطيب القزوينى بقوله : «هو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول »(٢) .

ونلاحظ أيضاً أنه قصر التجوز فى الإسناد على الفعل وما فى معناه وهو أعم من ذلك على نحو ما سنرى . والإسناد هنا فى المجاز ليس إلى ما هو المسند، أى : ليس إلى الفاعل الحقيقى ، بل هو إلى ملابس المسند غير ما هو له ، وهذا هو الفرق بين الإسناد الحقيقى والإسناد المجازى ، فالحقيقى إسناد الفعل إلى ما هو له ، والمجاز إسناده إلى ملابس له ، وعند إسناد الفعل إلى ملابسه لابد أن يكون هذا الإسناد بتأول ، وإلا كان الإسناد حقيقة ، فقول المسلم :شفى الطبيب المريض مسندا الشفاء إلى الطبيب ، لا يقوله إلا وهو متأول ومعتقد أن الطبيب سبب للشفاء وليس فاعلا له ، ولذا كان إسناده مجازياً ، أما قول الجاهل : شفى الطبيب المريض ، فهو غير متأول بل يعتقد أن الطبيب فاعل الشفاء، ولذا كان الإسناد حقيقة، فالمراد بالتأول فى تعريف الخطيب: القرينة التى تدل على أن المتكلم قد تجوز فى الإسناد ، وسيأتيك حديث عن هذه القرينة ، أما الحديث الآن فهو عن ملابسات الفعل ، أو علاقات المجاز العقلى والبلاغيون ينظرون فى تحديد هذه العلاقات أو تلك الملابسات إلى ما بين الفعل والفاعل المجازى من تعلق وارتباط ، أو إلى ما بين الفاعل الحقيقى والفاعل المجازى ، فقولك : سار الطريق وقوله عز من قائل : (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) ، هنالك ارتباط وتعلق بين « سار » و « الطريق » باعتبار الطريق

---

(١) أسرار البلاغة ٢/٢٥٦

(٢) الإيضاح ١/٥٦

مكان للسير ، كما أن هناك تعلق بين « ربح » والتجارة باعتبار التجارة مفعولا يقع عليها الربح ، وهنالك أيضا تعلق وارتباط بين « الطريق والناس » ، وبين « التجارة والمشترين » باعتبار تلبس الفعل وتعلقه بكل منهما . ولك أن تنظر فى تحديد الملابسة إلى أيهما شئت ، لأنه إذا كانت هناك ملابسة بين الفعل والفاعل المجازى لزم أن يكون هناك ملابسة بين الفاعلين الحقيقى والمجازى كما هو واضح - وإليك بيان هذه الملابسات :

١ — إسناد المبنى للفاعل إلى المفعول ، كما فى قوله تعالى : (أُولَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)[1] فالتجارة ليست هى الفاعل الحقيقى للفعل « ربح » ، وإنما أسند إليها لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها ، والأصل : فما ربح المشترون فى تجارتهم ، والتجوز هنا بإسناد الربح المنفى إلى التجارة ، أفاد المبالغة فى خسرانهم ، فالذى خسر ليس هم ، وإنما هو التجارة ، وهى تجارة غريبة من نوعها حيث اشترى هؤلاء الضلالة ودفعوا الهدى ثمناً لها ، وتلك تجارة لا يرتاب عاقل فى بوارها ، ولذا بولغ فى تأكيد الخسران بإسناد عدم الربح إلى التجارة ذاتها ، والذى لم يربح هم المتاجرون فيها ومن ذلك قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)[2] ، ففاعل راضية ضمير يرجع إلى العيشه والعيشه مرضية لا راضية ، إذ الأصل : فى عيشة رضى صاحبها بها ، فأسند الرضا إلى العيشة لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها ، ويفيد هذا التجوز المبالغة فى النعيم الذى أعده الله تعالى للمؤمنين فى الجنة فرضوا به وسعدوا إلى درجة أن العيشة أصبحت راضية بصاحبها تألفه ويألفها ، وتحبه ويحبها فهى عيشة دائمة باقية ؛ لأنها مبنية على الألفة والمحبة ، ولو كانت مبنية على التنافر مادامت ، وتأمل

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦

(٢) سورة القارعة الآية ٧

التعبيرين : المؤمن فى عيشة راضية ، والكافر فى عيشة نافرة ، تجد أن التجوز فى الأول ينبىء بالدوام والبقاء حيث الرضا والألفة ، أما التجوز فى الثانى فينبىء بالفرقة والابتعاد حيث النفور والكراهية ، ولذا كان أمر الحبيب عليه الصلاة والسلام بأن نحسن جوار النعمة إذ يقول لبعض أزواجه : « أحسنى جوار نعمة الله فإنها قلما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم » ، فتأمل المجاز فى قوله : « نفرت النعمة » ، وما يوحى به من الكراهية التى تستلزم الزوال والمفارقة . . وخذ قوله تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)[1] ، تجد أن « دافق » قد أسند إلى ضمير الماء ، والماء مدفوق وليس دافقا ، فالملابسة بين « دافق والماء » ، ملابسة بين الفعل ومفعوله ، والتجوز فى الإسناد هنا قد جعل المدفوق دافقا مبالغة فى سرعة اندفاعه . .

ومن ذلك قوله تعالى : (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ)[2] ، فقد أسند « عاصم » اسم فاعل إلى ضمير المفعول ، إذ المعنى : لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه ، وذلك مبالغة فى نفى العصمة عمن كفر وتولى . . وانظر إلى قول الحطيئة فى هجاء الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فهو يهجوه ويطلب منه أن يدع المكارم ولا يسعى لطلب المعالى وأن يظل قاعداً فهو المطعوم المكسو الذى يطعمه غيره ويكسوه وقد أسند الشاعر « طاعم وكاس » إلى ضمير المفعول مبالغة فى تحقيره والحط من شأنه والاستهزاء به . . . ونقول : « سر كاتم » أى : مكتوم وذلك مبالغة فى كتمانه وإخفائه ، إذ الأصل : كتم الرجل السر ، فلما أريد المبالغة فى حفظ السر

---

(١) سورة الطارق آية ٥ ، ٦   (٢) سورة هود آية ٤٢ ، ٤٣

وكتمه ، أسند الفعل إلى مفعوله فقيل : سر كاتم ، تجوزا فى الإسناد ، فقد بلغ الكتمان مبلغا صار السر فيه كاتما لا مكتوما . .

٢ — إسناد المبنى للمفعول إلى الفاعل . . . كما فى قوله تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً)(١)، فقد أسند اسم المفعول «مستورا» إلى ضمير الحجاب والحجاب ساتر أى : فاعل الستر ، وليس مستوراً ، فالملابسة بين اسم المفعول : «مستوراً» وبين نائب الفاعل «الحجاب» ملابسة بين الفعل وفاعله ، إذ الحجاب فاعل للستر لا مفعول ، والتجوز فى الإســـناد أفاد المبالغة فى قسوة قلوبهم وشدة جحودهم ، فقد زادت مكابرتهم وطغى عنادهم حتى وصل حدا لم يعودوا فيه مستورين بالحجاب ، بل صار الحجاب هو المستور بطغيانهم وجحودهم . . ومعنى الآية : إذا قرأت القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق جعلنا بمقتضى حكمتنا فى الإضلال والهداية بينك وبين الكفرة الذين ينكرون البعث حجابا يمنعهم عن الحق ، وذلك بالختم على قلوبهم ووضع الغشاوة والأغطية على سمعهم وأبصارهم ، وقد جعل الحجاب المانع الساتر مستورا — كما بينا — لإبراز شدة جحودهم وقسوة قلوبهم ولبيان أنهم بلغوا فى العناد والمكابرة مبلغا عظيما . ومن ذلك قوله تعالى (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)(٢) ، فقوله : «مأتيا» اسم مفعول وقد أسند إلى ضمير الوعد الذى هو فاعل فى الحقيقة . لأن الوعد آت وليس مأتيا ، وقد أفاد التجوز فى الإسناد كمال المبالغة فى إنجاز وعد الله وتحقيقه حيث جعله مأتيا إليهم وكان هناك من يحمله ويأتى به إلى المؤمنين ، ساعيا به إليهم . . وانظر إلى قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً)(٣)، وقوله عز وجل :

---

(١) سورة الإسراء ٤٥ (٢) سورة مريم ٦١

(٣) سورة الأحزاب ١٥

(وَإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)[1]، تجد أن « مسئولا » قد اسند إلى ضمير العهد، و « سئلت » قد أسند إلى ضمير المؤودة، والعهد لا يسأل بل المسئول صاحبه، وكذا المؤودة لن تسأل، بل وائدها هو الذى يسأل، وقد أفاد التجوز فى الإسناد كمال المبالغة فى وجوب الالتزام بالعهد وشدة الوعيد والتهديد لمن يئد البنات . . . ونقول : « سيل مُفْعَم » بالبناء للمفعول، والمفعم هو المملوء، والسيل فى الحقيقة مالئ للوادى، فالوادى هو الذى يُفْعَم أى يمتلىء بالماء والإسناد الحقيقى : « أفعم السيل الوادى »، ولكننا تجوزنا فى الإسناد فأسندنا « مُفْعَم » اسم المفعول إلى السيل الذى هو الفاعل الحقيقى، وكان حقه أن يسند إلى الوادى فيقال : واد مفعم، وقد أفاد هذا التجوز شدة المبالغة فى فيضان الماء وامتلاء الوادى به، حتى أصبح الماء مملوءا لا مالئا . . .

٣ — إسناد الفعل المبنى للفاعل إلى مصدره . . كما فى قولهم : فلان ثارت ثورته وغضب غضبه وسحر سحره وشعر شعره وجد جده، فقد أسند الفعل المبنى للفاعل فى هذه الأمثلة إلى مصدره، والأصل : ثار فلان ثورة وغضب الغاضب غضباً وسحر الساحر سحرا وشعر الشاعر شعراً وجد الجاد جداً، ولكنهم تجوزوا فأسندوا ما حقه أن يسند إلى الفاعل، إلى المصدر، وذلك تحقيقا للمبالغة فى الأفعال المذكورة . . ومن ذلك قول أبى فراس الحمدانى :

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم ... وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

فقد أسند المبنى للفاعل « جد » إلى المصدر « جدهم » إسنادا مجازيا لملابسة بين الفعل ومصدره، وأفاد هذا الإسناد المبالغة فيما نزل بالقوم وحل بهم من خطوب جسام، أخذوا يستعدون لها ويفتقدون الغائب ويطلبونه، كما يفتقد البدر ويطلب عند اشتداد الظلام؛ وخاصة إذا كان الغائب من المدافعين عن الأحساب، الذائدين عن الحمى، أمثال أبى فراس .

---

(١) سورة التكوير ٨ ، ٩

٤ ـ إسناد المبنى للفاعل إلى الزمان .. كما فى قولك : نهاره صائم وليله قائم ، فالليل لاينام والنهار لايصوم ، وقد أسند إليهما اسما الفاعل : « قائم وصائم ، لأنهما زمانان للقيام والصيام ويفيد هذا التجوز المبالغة فى تمام الصيام وكمال القيام بوضوح أهدافهما فى سلوك المسلم الصائم القائم .

ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

حيث أسند الفعل « تبدى » إلى زمانه « الأيام » على سبيل المجاز العقلى ، والأصل سيبدى لك الله فى الأيام ، ومنه قول الآخر :

هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

فالزمن ليس فاعلا للسرور ولا للإساءة ، ولكن لما كان السرور واقعا فيه وكذلك الإساءة ، فقد أسندا إليه على سبيل المجاز العقلى لعلاقة الزمانية .. وقول جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى فنمت وما ليل المطى بنائم

حيث أسند اسم الفاعل « نائم » إلى ضمير الليل ، والليل ليس فاعلا للنوم ولكنه زمان ينام فيه النائمون .. وانظر فى قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)[1] ، وقوله عز وجل (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً)[2] تجد أن اسم الفاعل « مبصرا » ، قد أسند إلى ضمير النهار والنهار لا يفعل الإبصار ، بل هو زمان يبصر الناس فيه ، وكذا الفعل « يجعل » قد أسند إلى ضمير اليوم ، واليوم زمان يقع فيه الفعل ، وحقيقة

---

(١) سورة يونس الآية ٦٧

(٢) سورة المزمل الآية ١٧

الإسناد : يوما يجعل الله فيه الولدان شيبا فأسند الفعل إلى زمانه على سبيل المجاز العقلى . .

٥ — إسناد المبنى للفاعل إلى المكان . . كما فى قولهم : طريق سائر ونهر جار ، أسندوا السير إلى ضمير الطريق ، والجرى إلى ضمير النهر ، والسائر هم الناس ، والذى يجرى هو الماء ، والطريق مكان للسير ، والنهر مكان لجرى الماء ، فأسند الفعل إليهما تجوزا ، ويفيد هذا المجاز المبالغة فى قوة اندفاع الماء وشدة فيضانه وكثرة ازدحام الناس فى الطريق ، حتى ليخيل للسامع أن النهر هو الذى يجرى ، وأن الطريق هو الذى يمضى . . ومن ذلك قوله تعالى : (وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)(١) ، فالأنهار اسم للأمكنة والوديان التى تجرى فيها المياه ، وقد أسند إليها الجريان على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المكانية . وتكمن بلاغة المجاز فى الآية فى أن المياه لكثرة فيضانها وشدة جريانها ترى وكأن محلها هو الذى يجرى ، وكأن الجرى قد تجاوز الماء إلى مكانه . . وعندما تقرأ الآيات الكريمة التى تحدثت عن الجنة وما أعد فيها من نعيم تجد الجرى فيها قد أسند إلى الأنهار لا إلى المياه ، لهذا السر البلاغى .

وانظر إلى قوله تعالى: (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)(٢) حيث أسند الإخراج إلى الأرض وهى مكان الأثقال والأصل وأخرج الله منها أثقالها، ويفيد هذا التجوز فى الإسناد : التهويل والتفظيع من شأن ذلك اليوم، وشدة قذف الأرض وإلقاءها مابداخلها من أثقال ، وكأنها هى التى تخرج وتقذف تلك الأثقال . . وخذ قوله تعالى: (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)(٣)، تجد أن اسم الفاعل « آمنا » قد أسند إلى الضمير العائد إلى الحرم ، والحرم مكان للأمن ، والأصل : حرما آمنا أهله ، فأسند الأمن إلى الحرم مبالغة فى كمال النعمة ، نعمة الأمن التى تفضل الله بها على سكان حرمه .

---

(١) سورة التوبة آية ٧٢

(٢) سورة الزلزلة آية ٢

(٣) سورة القصص آية ٥٧

وانظر إلى قول الشاعر :

وكل امرىء يولى الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب

فقد أسند الفعل ينبت إلى ضمير المكان ، والمكان لا يفعل الإنبات والأصل : ينبت الله فيه ، وإلى قول الآخر :

ملكنا فكان العفو منا سجية   فلما ملكتم سال بالدم أبطح

فهو يفخر بأن قومه لما قدروا عفوا وصفحوا ، بينما المخاطبون عندما قدروا أسرفوا فى سفك الدماء حتى سالت بالأباطح وهو المسيل لواسع فيه دقائق الحصى ، وقد أسند الشاعر « سال » إلى الأباطح مبالغة فى كثرة الدماء التى أريقت من جراء الحكم الظالم ، وأصل الإسناد : سالت الدماء بالأبطح ...

٦ - إسناد المبنى للفاعل إلى السبب .. كقولنا : بنى الأمير المدينة وحقيقته : بنى العمال المدينة بأمر الأمير ، فإسناد « البناء » إلى الأمير مجاز عقلى علاقته السببية ؛ لأن الأمير سبب البناء ، وهو ينبىء بمدى عناية الأمير واهتمامه بشأن المدينة ، حتى كأنه فاعل البناء .. ونقول : محبتك جاءت بى ، وسرتنى رؤيتك ، فنسند المجىء إلى المحبة وهى سببه ، والسرور إلى الرؤية وهى سببه أيضا مبالغة فى قوة المحبة وكثرة السرور الناجم عن الرؤية .

ومنه قول أبى نواس :

يزيدك وجهه حسنا   إذا مازدته نظرا

فقد أسند « زيادة الحسن » إلى الوجه وهو سببها ، مبالغة فيما أودعه الله فيه من دقائق الحسن والجمال .. وانظر إلى قول الآخر :

فلا تسأليني واسألى عن خليقتى   إذا ردعافى القدر من يستعيرها

فالشطر الثانى من البيت كناية عن شدة الجدب ، وذلك إذا كان المراد بعافى القدر : بقية المرق الذى يوجد فى القدر ، فيكون سببا فى أن يرد صاحبها من يطلب إعارتها ، لشدة ماهم فيه من جدب وقحط . أما إذا كان المراد بعافى القدر : الضيف ، فإن البيت يكون عندئذ كناية عن الكرم ، إذ تسبب الضيف فى رد المستعير حيث يرى القدر منصوبة له فلا يطلبها .. والشاعر قد أسند « رد » إلى « عافى القدر » ، وعافى القدر لم يفعل الرد وإنما تسبب فيه وحقيقة الإسناد : إذا رد صاحب القدر من يستعيرها بسبب عافيها فهو مجاز عقلى علاقته السببية .. ومن ذلك قوله تعالى : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)(١) ، أسند النفع إلى ضمير الذكرى وهى سببه ، والأصل : ينفع الله بسببها المؤمنين .. وتأمل الآيات : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ)(٢) .. (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لَعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبَابَ)(٣) .. (فَأَوْقِدْ لِى يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِى صَرْحاً)(٤) .. (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)(٥) . تجد أن الأفعال بها قد أسندت إلى أسبابها ، فقد أسند « يذبح » ويستحيى إلى فرعون وهو الآمر بهما وليس فاعلها الحقيقى ، وأسند البناء والإيقاد إلى هامان ، وهما يفعلان بسببه ، وأسند الإخراج إلى إبليس وهو سببه .. وتلاحظ أن المسند فى الآيات الثلاث الأخيرة هو فعل الأمر أو النهى : ابن .. أوقد .. اجعل .. لا يخرجن .. وبهذا يتضح لك أن المجاز العقلى كما يقع فى الخبر يقع فى الإنشاء .

٧ — إسناد الفعل إلى الجنس وهو فى الحقيقة مسند إلى بعضه ، كما فى

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٥
(٢) سورة القصص آية ٤
(٣) سورة غافر آية ٣٦
(٤) سورة القصص ٣٨
(٥) سورة طه آية ١١٧

قولهم : بنو فلان قتلوا فلانا ، والقاتل واحد منهم .. وكما فى قوله تعالى : (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ)(١) ، فقد أسند العقر إلى جميعهم وهو لبعضهم كما جاء فى آية أخرى : (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)(٢) وإســـناد الفعل إلى الجميع وهو للبعض ينبىء بأنه قد تم بعلمهم ووقع برضاهم(٣)

٨ - إسناد الفعل إلى الجارحة التى هى آلته كقولهم : أبصرته عينى .. وسمعته أذنى .. وعرفه قلبى .. وقاله لسانى .. ومن ذلك قوله تعالى : (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)(٤) ، فقد أسند اسم الفاعل « آثم » إلى القلب وإنما الآثم هو الشخص ؛ وذلك لأن كتمان الشهادة أن يضمرها الشخص ولا يتكلم بها ، فلما كان إثما مقترفا بالقلب أسند إليـه ، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ(٥) ..

٩ - إسناد الفعل إلى ماله مزيد اختصاص وقربى بالفاعل الحقيقى ، كما فى قوله تعالى : (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)(٦) ، فقد أسندت الملائكة التقدير إلى أنفسهم والمقدر هو الله وحده ، وذلك لأن لهم مزيد اختصاص وقربى من الله عز وجل ..

هذا ولم يتحدث الخطيب القزوينى عن الملابسات الثلاث الأخيرة ، حيث ذكر من ملابسات المجاز العقلى الملابسات الست الأولى فقط ، وقد اقتفاه كثير من الدارسين بعده .. وعندما نرجع إلى تعريفه للمجاز العقلى نجد أنه قد قصره

---

(١) سورة الأعراف آية ٧٧
(٢) سورة القمر آية ٢٩
(٣) انظر الكشاف ٢/٩١
(٤) سورة البقرة آية ٢٨٣
(٥) انظر الكشاف ١/٤٠٦
(٦) سورة الحجر آية ٦٠

على إسناد الفعل وما فى معناه ، كما وضحنا ، وقد ضاق هذا التعريف عن صور كثيرة من صور التجوز فى الإسناد . . من ذلك :

١ — النسبة الإضافية كما فى قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)(١) . والتقدير : بل مكركم فى الليل والنهار ، فقد أضيف المكر إلى الليل والنهار وهما زمان له ، وكان حقه أن يضاف إلى الناس ، كما فى التقدير ومثله قوله عز وجل : (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا)(٢) ، والتقدير : وإن خفتم شقاق الزوجين فى الحالة التى بينهما . . فقد أضيف الشقاق إلى الظرف « بين » على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المكانية ، وكان حقه أن يضاف إلى الزوجين كما فى التقدير .

٢ — النسبة الإيقاعية ، بمعنى أن يقع الفعل المتعدى على غير ما حقه أن يقع عليه لعلاقة وقرينة مانعة ، وسميت نسبة إيقاعية ، لأن الفعل المتعدى واقع على مفعوله المجـــازى ، انظر إلى قوله تعالى : (وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ)(٣) تجد أن الأصل : ولا تطيعوا المسرفين بسبب أمرهم ، وقد وقع الفعل « تطيعوا » ، على المفعول « أمر » على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية ، إذ لا تقع الطاعة على الأمر ، وإنما تقع على صاحب الأمر . . وخذ قوله تعالى: (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا)(٤) فقد وقع الفعل « فجر » على الأرض ، وهو فى الأصل للعيون إذ المعنى ، وفجرنا عيون الأرض ، فهو مجاز عقلى علاقته المكانية وقد أفاد هذا المجاز المبالغة فى فوران الماء واندفاعه ، وكأن الأرض قد صارت كلها عيونا . . فكما أن إسناد الفعل إلى غـــير

---

(١) سوة سبأ آية ٣٣
(٢) سورة النساء آية ٣٥
(٣) سورة الشعراء آية ١٥١
(٤) سورة القمر آية ١٢

ما حقه أن يسند إليه مجاز ، فكذلك إيقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه مجاز أيضا . .

٣ — النسبة الوصفية ، وذلك بأن يوصف الشيء بوصف صاحبه كقولنا: الكتاب الحكيم ، والأسلوب الحكيم ، وضلال بعيد ورجل عدل ، فالحكمة فى الحقيقة ليست وصفا للكتاب ولا للأسلوب ، وإنما هى وصف لصاحبهما وكذا البعد ليس وصفا للضلال ، بل هو وصف للضال ، والعدل ليس وصفا للرجل ، وإنما وصف لأقواله وأفعاله . فالأصل أن يقال : رجل ذو عدل ، كما يقال : رجل ذو رأى ، ورجل ذو خلق . . فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز ، فكذا وصف الشيء بغير ما حقه أن يوصف به . .

٤ — الإسناد بين المبتدأ والخبر كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ﴾(١) والأصل : ولكن ذا البر من اتقى . . أو ولكن البر بر من اتقى ، فقد أسند « من اتقى » إلى « البر » إسنادا مجازيا لعلاقة الفاعلية أو المفعولية ، لأن من اتقى فاعل والبر مفعول له . .

ومن ذلك قول الخنساء فى وصف الناقة :

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت ... فإنما هى إقبال وإدبار

يقول عبد القاهر فى تجلية المجاز العقلى فى هذا البيت : « ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء — البيت .. وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت فى نفس الكلمة ، وإنما تجوزت فى أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذلك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما ، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار . . واعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٩

قوله عز وجل : (وَاسْأَلِ القَرْيَةَ)[١] ، ومثل قول النابغة الجعدي :

وكيف تواصل من أصبحت　　خلالته كأبي مرحب[٢]

وقول الأعرابي :

حسبت بغام راحلتي عناقا　　وماهي ويب غيرك بالعناق[٣]

وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه في تقدير : «فإنما هي ذات إقبال وإدبار» ذاك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين في سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد في المعنى ، كمثل أن يحذف خبر المبتدأ أو المبتدأ إذا دل الدليل عليه إلى سائر ما إذا حذف كان في حكم المنطوق به ، وليس الأمر كذلك في بيت الخنساء ، لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن ، كالمعنى إذا نحن قلنا : فإنما هي ذات إقبال وإدبار ، أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا إلى شيء مغسول ، وإلى كلام عامي مرذول وكان سبيلنا سبيل من يزعم مثلا في بيت المتنبي :

بدت قمراً ومالت خوط بان　　وفاحت عنبراً ورنت غزالا

أنه في تقدير محذوف ، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت : «بدت مثل قمر ومالت مثل خوط بان وفاحت مثل عنبر ورنت مثل غزال» ، في أنا نخرج إلى الغثاثة ، وإلى شيء يعزل البلاغة عن سلطانها[٤] فهذا تحليل دقيق لبيان المجاز العقلي في البيت وإبراز ما يفيده من المبالغة . وأن الناقة كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار ، وأنت إذا رمت تقدير مضاف لتبين الإسناد الحقيقي ،

(١) سورة يوسف آية ٨٢

(٢) الخلالة : الصداقة . وأبو مرحب : الظل ووجه الشبه هو الزوال وعدم الدوام

(٣) بغام الناقة : صوتها . والعناق : أنثى المعز . والويب : الويل ، والخطاب في قوله : «حسبت» للذئب الذي حسب صوت ناقته صوت عناق ، ولذا قال له : ويب غيرك ، فتوعده بلونه لأن الذئب لونه أغبر .

(٤) دلائل الإعجاز ٢٩٢ .

فقلت : « فإنما هى ذات إقبال وإدبار » ، ضاعت هذه المبالغة ، وفقدت حلاوة الشعر ، كما تضيع أيضا وتفقد إذا أوّلت المصدر باسم الفاعل فقلت : فإنما هى مقبلة ومدبرة .

ولما كان تعريف الخطيب للمجاز العقلى لا يتسع لمثل هذه النسب ، فإننا نفضل عليه تعريف عبد القاهر له ، إذ عرفه بقوله : « كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول »[1] ، وسبب ترجيحنا لتعريف عبد القاهر ، أنه لم يحدد الإسناد بالفعل وما فى معناه كما صنع الخطيب ولم يحدد أنواع العلاقات التى تسوغ الإسناد ، فاتسع المجاز العقلى عنده لكل إسناد ولكل ملابسة

° ° °

قرينة المجاز العقلى : لابد للمجاز سواء أكان مجازا عقلياً أم مجازا لغويا ، من وجود قرينة دالة تبين المجاز وتوضح عدم إرادة المعنى الأصلى فى المجاز اللغوى ، وعدم إرادة الإسناد الحقيقى فى المجاز العقلى ، فالقرينة فى المجاز العقلى هى الأمر الذى يوضح أن المسند قد أسند إلى غير ما حقه أن يسند إليه ، وأن المتكلم قد تجوز فى بناء الكلام وتأليف العبارة ، وهذه القرينة إما لفظية وإما غير لفظية .

انظر إلى قول أبى النجم العجلى :

قد أصبحت أم الخيار تدعى   على ذنبا كله لم أصنع
من أن رأت رأسى كرأس الأصلع   ميز عنه قنزعا عن قنزع
جذب الليالى ابطئى أو اسرعى
أفناه قيل الله للشمس اطلعى   حتى إذا واراك أفق فارجعى[2]

---

(١) الاسرار ٢/٢٥٧ .

(٢) القنزع : الشعر المتجمع فى نواحى الرأس والأصلع : الذى سقط شعر مقدم رأسه . وجملة أبطئى أو اسرعى : حال من الليالى بتقدير القول أى مقولا فيها ذلك . وجذب الليالى : مضيها . وواراك : غيبك .

تره قد أسند الفعل « ميز » إلى جذب الليالى ، إسنادا مجازيا من إسناد الفعل إلى سببه أو زمانه ، والقرينة هى قوله : « أفناه قيل الله » ، وهى قرينة لفظية توضح عقيدة الشاعر ، وأنه مؤمن حيث أسند إفناء شعر الرأس إلى الله تعالى ، وما دام كذلك ، فإنه يكون قد تجوز فى كلامه الأول وهو إسناده : « ميز » إلى جذب الليالى . . . ومثله قول الصلتان العبدى ينصح ابنه عمرا :

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كر الغداة ومر العشى
نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لا تنقضى
تموت مع المرء حاجاته ... وتبقى له حاجة ما بقى
ألم تر لقمان أوصى ابنه ... وأوصيت عمرا ونعم الوصى
فإننا أننا مسلمون ... على دين صديقنا والنبى

فالبيتان الأخيران يبرزان عقيدة الشاعر ، إذ يريد بوصية لقمان قوله تعالى : (يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(١) والبيت الأخير ينصح عن إيمانه وأن ملته الإسلام . وتلك قرينة لفظية تدل على أن الشاعر قد تأول ولم يرد الحقيقة عندما أسند « أشاب وأفنى » إلى تعاقب الليل والنهار . ونقول : « هزتنى الأيام وشيبنى الدهر والله وحده المستعان » ، فتكون الجملة الأخيرة : « والله المستعان » قرينة لفظية تدل على أن إسناد « هز » إلى « الأيام » و « شيب » إلى « الدهر » مجاز عقلى ، وليس إسنادا حقيقيا . أما القرينة المعنوية ، فهى أمر غير لفظى يدل على أن المتكلم متأول فى إسناده ولم يرد الحقيقة ، بل أراد المجاز ، انظر إلى قوله تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)(٢) تجد أن إسناد الفعل : « يذبح » إلى فرعون ، مجاز عقلى لعلاقة السببية ، إذ فرعون لم يفعل التذبيح بل أمر به وفعله جنوده بأمره فهو سبب لوقوع الفعل وليس فاعلا حقيقيا ، والقرينة

(١) سورة لقمان آية ١٣ .
(٢) سورة القصص آية ٤ .

هنا معنوية وهي استحالة صدور الفعل من « فرعون » عادة ، وإن أمكن ذلك عقلا . ومثله قولك : بنى الأمير المدينة ، وهزم الأعداء . فإسناد « البناء » وهزيمة الأعداء إلى الأمير مجاز عقلي ، قرينته استحالة وقوع الفعل منه عادة ، وإن أمكن عقلا . وقد تكون القرينة استحالة وقوع الفعل من الفاعل عقلا كقول الشاعر :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده   أضاع وقاسى أمره وهو مدبر

فإسناد الفعل « جد » إلى المصدر مجاز عقلي قرينته استحالة قيام الفعل بمصدره استحالة عقلية . ومثله قولهم : محبتك جاءت بي إليك . وأقدمني بلدك حق لي على فلان . إذ يستحيل عقلا قيام المجيء بالمحبة ، والإقدام بالحق . وقد تكون القرينة المعنوية هي صدور الكلام من المؤمن ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »(١) ، وقوله عليه الصلاة والسلام لإحدى أزواجه : « أحسني جوار نعمة الله فإنها قلما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم » ، فوقوع الفعل منه صلى الله عليه وسلم ، قرينة على أنه لم يرد الإسناد الحقيقي وأنه قد تأول عندما أسند الإنبات إلى الربيع والقتل إلى ما ينبته الربيع والنفور إلى النعمة وكذلك الرجوع ، فالإسناد كما ترى مجازي ، وقرينته صدور الكلام من خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

ما الفرق بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي : ومما سبق يتضح لك أن المجاز العقلي يجوز في الإسناد ، أي في النسبة بين المسند والمسند إليه ، فقولك : أنبت الربيع ، ليس التجوز في « أنبت » ولا في « الربيع » . وإنما في إسناد الإنبات إلى الربيع ، أما المجاز اللغوي فهو تجوز في الكلمة لا في الإسناد ، فقولك : رأيت أسدا يتكلم ، المجاز في لفظ الأسد حيث نقل من الحيوان المفترس إلى الرجل الشجاع . يقول عبد القاهر : « ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء

(١) حبطا : الحبط انتفاخ البطن ، يقال : حبط بطنه إذا انتفخ يحبط حبطا انظر لسان العرب مادة : حبط .

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت فإنما هى إقبـــال وإدبار

وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت فى نفس الكلمة وإنمـا تجوزت فى أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذلك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما ، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار . وإنما كان يكون المجاز فى نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت الإقبال والإدبار لمعنى غير معناهما الذى وضعا له فى اللغة ، ومعلوم أن ليس الاستعارة مما أرادته فى شىء »[1] .

هذا والمجاز العقلى المتصرف فيه هو العقل ، إذ هو الذى يقيم الروابط والصلات بين أجزاء الكلام ، ولذا سمى مجازاً عقلياً ، أما المجاز اللغوى فمرجعه إلى واضع اللغة . إذ هو الذى وضع مفرداتها ، وحدد معانى المفردات ، فكان التجوز فى تلك المفردات بنقلها من معنى إلى معنى ، تصرف لغوى فى نطاق ما حددته اللغة ووضحت معانيه ، ولذا سمى التجوز فى المفردات مجازاً لغوياً . وبعض العلماء يرون أن الواضع ـ واضع اللغة ـ كما وضع مفرداتها وضع كذلك تراكيبها ، وهؤلاء يسمون التجوز فى الإسناد ، مجازاً لغويا ، كالتجوز فى المفردات ، لأن كليهما تجوز فى نطاق ما وضعته اللغة وحددته . ولا أرى داعيا للخوض فى مثل هذه الخلافات ، إذ لا يجنى الدارس من وراء معرفتها والوقوف عليها ثمرة تذكر .

صور المجاز العقلى : وينقسم المجاز العقلى باعتبار حقيقة طرفيه ومجازيتهما إلى أربعة أقسام وهى :

١ ـ أن يكون طرفا الإسناد ، أى المسند والمسند إليه مستعملين استعمالا حقيقياً . والتجوز إنما هو فى الإسناد فقط ، كقولك أنبت الربيع النبات ، فكل من « أنبت » و « الربيع » مستعمل فى معناه الحقيقى الذى وضع له ، والمجاز فى إسناد الإنبات إلى الربيع ومثله قول الصلتان العبدى :

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٩٢ .

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... ر كر الغداة ومر العشى

وقول الآخر :

وشيب أيام الفـــراق مفارقى ... وأنشزن نفسى فوق حيث تكون

يريد أن أيام الفراق رفعت نفسه عن مكانها فى الجسم وبلغت بها الحلقوم . وواضح أن أجزاء الكلام من مسند ومسند إليه مستعملة فى معانيها الحقيقية ، والمجاز إنما هو فى الإسناد فقط ، فى إسناد « أشاب وأفنى » إلى « كر الغداة ومر العشى » ، وإسناد « أشاب وأنشز » إلى « أيام الفراق » واقرأ الآيات الكريمة : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) . (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) ، (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) ، (يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا) تجد أن المجاز فى إسناد الزيادة للآيات ، والإخراج للأرض والرضا للعيشة . والجعل لليوم ، أما طرفا الإسناد فلا مجاز فيهما ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج :

يارب قد فرجت عنى غمى ... قد كنت ذا هم وراعى نجم

« فنام ليلى وتجلى همى »

فقد أسند النوم إلى الليل إسنادا مجازيا لعلاقة الزمانية ، أما النوم والليل فمستعملان فيما وضعا له . . وقول الآخر فى الرثاء :

فتى كان يعطى السيف فى اروع حقه ... إذا ثوب الداعى وتشقى به الجزر

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وصفه بالشجاعة والكرم حيث كان يضرب بالسيف فى حال الشدة ويجيب الداعى الذى يثوب أى يرجع صوته حتى يسمع فيجيبه الشجعان ويغيثونه ، وكانت الجزر تشقى به إذ كان ينحرها لضيوفه . وقد أسند الشاعر الإدناء إلى الغنى والإبعاد إلى الفقر إسنادا مجازيا لعلاقة السببية ، أما طرفا الإسناد فقد استعملا فيما وضعا له ، استعمالا حقيقيا .

٢ — أن يكون المسند مجازا لغويا ، والمسند إليه مستعملا فيما وضع

له استعمالا حقيقياً ، كقولك : أحيا الأرض الربيع : فالمسند « أحيا » مجاز لغوى حيث استعير الإحياء للإنبات . والمسند إليه « الربيع » مستعمل فيما وضع له . ومن ذلك قول المتنبي :

وتحيي له المال الصوارم والقنا ويقتل ما تحيي التبسم والجدا

حيث يصف الممدوح بالشجاعة والكرم ، فهو يحصل المال بشجاعته وقوته ، ثم ينفقه على الضعفاء والمحتاجين كرما وسخاء ، وقد أسند الشاعر « الإحياء » إلى « الصوارم والقنا » و « القتل » إلى التبسم والجدا إسناداً مجازيا، وكل من القتل والإحياء مستعمل فى غير ما وضع له استعمالا مجازيا ، حيث استعير القتل « للإنفاق » والإحياء لجمع المال وتحصيله بقوة السلاح ، أما المسند إليهما « الصوارم والقنا » ، و « التبسم والجدا » فمستعملان فيما وضعا له استعمالا حقيقيا . وتقول « أهلك الناس الدينار والدرهم » . فإسناد «أهلك» إلى « الدينار والدرهم » مجاز عقلى علاقته السببية ولفظ « أهلك » المسند ، ليس حقيقة ، بل مجاز عن الفتنة ، إذ الإهلاك مسبب عن الفتنة ، فهو مجاز مرسل علاقته المسببيه وقد أسند إلى الدينار والدرهم إسنادا مجازيا، فالتجوز واقع فى الإسناد ، وفى المسند ، فى الإسناد مجاز عقلى وفى المسند مجاز لغوى. وانظر فى قوله تعالى : (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)[1] حيث أسند «اشتعل» إلى «الرأس» إسنادا مجازيا لعلاقة المكانية ، إذ الرأس مكان للاشتعال والذى يفعل الاشتعال حقيقة إنما هو الشعر ولفظ المسند « اشتعل » مجاز لغوى، إذ المراد به : ظهور شيب الرأس، فاستعير الاشتعال للظهور ، و تفيد هذه الاستعارة عموم الشيب وإحاطته بجميع الرأس ، كما تفيد المفاجأة فى ظهور الشيب ، فهو اشتعال وليس ظهورا، وتفيد أيضا حب زكريا ـ عليه السلام ـ لهذا الشيب حيث أحس به إحساساً مشرقا مضيئا ، لا نكاد

(١) سورة مريم آية ٤ .

نراه فى شعر الشعراء الذين يصورون ظهور الشيب بالرأس تصويرا حزينا مؤلماً إذ يكون سبباً فى فراق الأحبة وابتعادهن . انظر إلى قول القائل :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وقول الآخر :

قالت فتيـــلة ماله قد جللت شيباً شواته

وقول الثالث :

له منظر فى العين أبيض ناصع ولكنه فى القلب أسود أسفع(١)

تجد أنهم يشعرون بالشيب شعوراً حزيناً كئيبا ، لأنه يؤذن بتولى الشباب ، ويعلن عن فراق الحبيبات . ونعود إلى المجاز العقلى لننظر فى شواهد هذه الصورة التى وقع التجوز فيها فى المسند وفى الإسناد ، فمنها قولهم : « سال بهم الوادى » ، استعير السيلان للسير ، ثم اشتق منه سال بمعنى سار على سبيل الاستعارة التبعية ، وأسند « سال » إلى « الوادى » إسناداً مجازيا لعلاقة المكانية ، ويفيد هذا التجوز المبالغة فى سرعة سير القوم وكأن المكان قد فاض بهم ودفع ، ومثله قول القائل :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

وقول الآخر :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

فى إسناد « السيلان » إلى « الأباطح » وإلى « شعاب الحى » مجاز عقلى علاقته المكانية . والمسند « سال » مجاز لغوى حيث استعير « السيلان » للسير ،

---

(١) الأبيض الناصع : شديد البياض . والأسود الأسفع : هو الأسود المائل إلى حمرة ، وقد استعير الأسود الأسفع لما يحدثه الشيب من الهم والحزن .

ولا يخفى عليك بلاغة المجاز فى البيتين ، فقد أبرز شدة اندفاع المطى فى الأباطح، وسرعة اندفاع الأنصار إلى الداعى ، وكأن الشعاب قد فاضت بهم ودفعتهم إليه ، وكأن الأباطح هى التى تسيل وتمضى لا الإبل ، وما من شك فى أن المجاز اللغوى قد ساهم فى تحقيق هذه المبالغة بنصيب وافر .

٣ — أن يكون المسند إليه مجازا لغويا والمسند مستعملا فيما وضع له استعمالا حقيقيا ، كقولك : أنبت شباب الزمان النبات فالمسند « أنبت » مستعمل فيما وضع له استعمالا حقيقيا ، والمسند إليه « شباب الزمان » مجاز لغوى ، حيث استعير لزمن الربيع وإسناد الإنبات إلى « شباب الزمان » مجاز عقلى علاقته الزمانية ... وانظر إلى قول ابن خفاجة الأندلسى :

وإنى إذا ما شاقنى حمامة ... رنين وهزتنى لبارقة ذكرى
لأجمع بين الماء والنار لوعة ... مقلة ريا ومن كبد حرّى

تجد أنه قد أسند الشوق إلى الرنين إسنادا مجازيا ، لأن الرنين باعث الشوق وليس بفاعله ، والرنين فى البيت مستعار لهديل الحمام وسجعه وترجيعه .

وخذ قول الفرزدق :

سقاها خروق فى المسامع لم تكن ... علاطا ولا مخبوطة فى الملاغم(١)

فهو يتحدث عن إبلهم المهملة فى الصحراء والتى ترد الماء فلا يمنعها مانع .

وخروق المسامع : مجارى الصوت فى الأذن ، يقال : جرى حديثه فى خروق المسامع أى : سمعه الناس . ومنه قول القائل :

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها ... سواها وما طهرتها بالمدامع
وتلتذ منها بالحديث وقد جرى ... حديث سواها فى خروق المسامع

---

(١) العلاط : صفحة العنق ويطلق على السمة فى عنق البعير مجازا مرسلا من إطلاق المحل على الحال وقد كثر هذا حتى صار كأنه حقيقة مخبوطة : موسومة والملاغم : الأشداق وما حولها .

أي : وقد جرى حديث سواها في أذنك ، وقد استعمل الفرزدق خروق المسامع مجازا مرسلا في شهرة الذكر وبعد الصيت ، من إطلاق المحل على الحال ، وفي إسناد السوق إلى خروق المسامع مجاز عقلي علاقته السببية ، لأن خروق المسامع بمعنى الذكر وبعد الصيت سبب في السوق ، وليست فاعله وهذا التجوز وضح السبب وأبرزه حين خيل أنه هو الذي سوق الإبل[1] :

٤ — أن يكون كل من المسند والمسند إليه مستعملا في غير ما وضع له استعمالا مجازيا ، فيكون في الجملة ثلاثة مجازات ، مجاز عقلي في الإسناد . ومجازان لغويان في كل من المسند والمسند إليه . وقد مثل البلاغيون لهذا بقولهم : أحيا الأرض شباب الزمان ، حيث استعير الإحياء الإنبات شباب الزمان للربيع وفي إسناد « أحيا » إلى « شباب الزمان » مجاز عقلي علاقته الزمانية ، ومن ذلك قولنا : « أحيتنا مصابيح الإسلام » و« أحيانا نبراس من الله » ، فقد استعيرت الحياة للهداية ، ومصابيح الإسلام للعلماء ، والنبراس للقرآن ، وفي إسناد الحياة إلى كل من المصابيح والنبراس مجاز عقلي ، ففي كل جملة ثلاثة مجازات مجازان لغويان في كل من المسند والمسند إليه ، ومجاز عقلي في الإسناد .

استلزام المجاز العقلي الحقيقية : ما من ريب في أن المجاز العقلي يستلزم الحقيقة العقلية ، فكل تجوز في الإسناد له في التقدير فاعل حقيقي ، إذا أسند إليه المسند صار الإسناد حقيقة ، غير أن الفاعل الحقيقي تارة يكون تقديره واضحاً يدرك بيسر وسهولة كقولك : شفى الطبيب المريض وأنبت الربيع النبات ، وكقول الفرزدق :

يحمى إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعد أرعل[2]

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٩١

(٢) اخترط السيوف : استلت . وأرعل : من رعل النبات فهو أرعل إذا تهدلت أغصانه . والمعنى : أن الضرب يطير سواعد المضروب ويقطع لحمه فيدعه متدلى كما تتدلى الأغصان المتهدلة .

وقول الله عز وجل : (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ)[1]. فالفاعل الحقيقى فى مثل هذه الشواهد واضح وجرى به الاستعمال العربى حيث قالوا : شفى الله المريض ، وأنبت الله النبات ، وربح الناس فى تجارتهم ، ونحمى نساءنا بضرب شديد أرعل ... وتارة يكون الفاعل الحقيقى خفيا لايدرك إلا بالتأمل والنظر ، كقولهم : سرتنى رؤيتك وأمتعنى حديثك ، ومحبتك جاءت بى وأقدمنى بلدك حق لى على فلان . وكقول أبى نواس:

وجوهر عندنا تحكى بدارة وجهها القمرا
يزيدك وجهها حسنا إذا ما زدته نظرا

وقول الآخر :

أتيتك عائذا بك منـ ـك لما ضاقت الحيل
وصيرنى هواك وبى لحينى يضرب المثل[2]
فإن ظفرت بكم نفسى فما لاقيته جلل
وإن قتل الهوى رجلا فإنى ذلك الرجل

فالفاعل الحقيقى فى هذه الشواهد هو « الله تعالى » إذ التقدير : سرنى الله وأمتعنى وجاء بى وأقدمنى بلدك بسبب رؤيتك وحديثك ومحبتك وحق لى على فلان ، وكذا التقدير فى البيتين : يزيدك الله حسنا بسبب النظر إلى وجهها ، وصيرك الله بسبب هواه ، ولكن لما كان الإسناد الحقيقى فى مثل هذه الشواهد لم يجر به الاستعمال العربى ، وأن الإسناد المجازى قد كثر وجرى على ألسنتهم ، خفى الإسناد الحقيقى ، وصار لايخطر على البال ولا يدرك إلا بشىء من التأمل والنظر وتذكر الحقيقة الثابتة التى تقرر أن الله تعالى هو خالق الأفعال كلها ،

---

(١) سورة البقرة آية ١٦ .

(٢) الحين فى الأصل : الهلاك وقد استعير هنا لما وصل إليه من سوء الحال فى هواه .

هذا واستلزام المجاز العقلى الحقيقة العقلية قد أجمع عليه البلاغيون واتفقوا ولكن بعضهم خفى عليه كلام عبد القاهر فى هذا الصدد فاعتقد أنه ينكر أن يكون لكل فعل فاعل حقيقى يصار إليه عند التقدير ، وكلام عبد القاهر لا يفيد هذا، إذ يذكر أن من أساليب المجاز العقلى ما يمكنك أن ترجع بالإسناد فيه إلى الفاعل الحقيقى ، مثل نام ليلى وتجلى همى ، وقوله تعالى : (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) وقول الشاعر:

تجوب له الظلماء عين كأنها زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر

فمن السهل معرفة الفاعل الحقيقى فى مثل هذه الشواهد ، إذ يقال : نمت فى ليلى وربحوا فى التجارة ، ويجوب الجمل الظلماء بعينه ، وهناك أساليب من المجاز العقلى لم يألفها الاستعمال مسندة إلى ما حقها أن تسند إليه ، مثل : أقدمنى بلدك حق لى عليك ، وقوله :

وصيرنى هواك وبى لحينى يضرب المثل

وقول الآخر :

يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نظرا

يقول عبد القاهر : « إنك لا تستطيع أن تزعم أن « صيرنى » فاعلا قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى ، كما فعل ذلك فى : « ربحت تجارتهم » ، ولا تستطيع كذلك أن تقدر « ليزيد » فى قوله : يزيدك وجهه ، فاعلا غير الوجه . . . »[1] ، ومراد عبد القاهر بعدم الاستطاعة أنه لم يوافق الاستعمال الحقيقى فى مثل هذا ولم يجر على ألسنة القوم ، بل الذى ألف وكثر استعماله وجرى على ألسنتهم هو الاستعمال المجازى . . وقد أخذ هؤلاء الذين خفى عليهم كلام عبد القاهر يقدرون لما ذكر من شواهد فاعلا حقيقيا ثم يقولون : إن أى مسند إليه يرتضى العقل صحة إسناد هذه الأفعال إليه يكون الإسناد

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٨٩

معه حقيقيا[1] . . وعبد القاهر لم ينكر هذا كما رأينا ، وقد وضحنا مراده . . ولا نرى للخوض فى مثل هذه الخلافات فائدة ترتجى ، ولذا ننصح الدارس بعدم الخوض فيها وأن يتجاوزها إلى ما هو مفيد ومثمر . .

إنكار المجاز العقلى : وقد أنكر السكاكى المجاز العقلى ورجعه إلى الاستعارة المكنية ، فقال فى نحو : أنبت الربيع البقل . إن الربيع استعارة مكنية ، حيث شبه الربيع بالفاعل الحقيقى وهو الله تعالى فى تعلق الفعل بكل منهما ، ثم حذف المشبه ورمز له بشىء من لوازمه وهو الإنبات ، وإثبات الإنبات للربيع استعارة تخييلية ، وبهذا يخرج السكاكى المجاز العقلى عن علم المعانى ويضعه فى علم البيان مع صور الاستعارة المكنية ، والذى دفعه إلى هذا - كما قال - الرغبـــة فى تقليل الأقسام ، ومن أجل تلك الرغبة أنكر أيضا الاستعارة التبعية وأدخلها فى المكنية . . . وممن أنكروا المجاز العقلى أيضا يحيى بن حمزة العلوى ، صاحب الطراز ، حيث عده من المجازات المركبة اللغوية ، إذ يقول : « اعلم أن هذه المجازات المركبة التى ذكرناها ومثلناها بقوله تعالى : (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)[2] ، وبقوله تعالى : (مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ)[3] ، وقوله تعالى : (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)[4] وغير ذلك من الأمثلة ، فإنها كلها مجازات لغوية استعملت فى غير موضوعاتها الأصلية ، فلأجل هذا حكمنا عليها بكونها لغوية ، وبيانه هو أن صيغة « أنبت » و« أخرج » و « أخذ » وضعت فى أصل اللغة بإزاء صدور الخروج والنبات والأخذ من القادر الفاعل . فإذا استعملت فى صدورها من الأرض ، فقد استعملت الصيغة فى غـــير موضوعها ، فلا جرم حكمنا بكونها مجازات لغوية »[5] ومما لاريب فيه أن تقليل الأقسام مما يفيد الدارس وينفع الباحث ،

---

(١) انظر نهاية الإيجاز
(٢) سورة الزلزلة آية ٢
(٣) سورة البقرة آية ٦١
(٤) سورة يونس آية ٢٤
(٥) الطراز ١/٧٥ ، ٧٦

بشرط ألا يؤدى هذا التقليل إلى تجاهل الخصوصيات ونحن عندما نقرأ صور المجاز العقلى، وننظر فى شواهده نرى لها مذاقا يختلف وخصوصيات تبتعد عن مذاق الاستعارة المكنية وعن خصوصياتها، وكذا القول فى المجاز المركب، وفى الاستعارة التبعية، ولا يخفى عليك هذا عندما تنظر فى قوله تعالى: (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) وقوله عز وجل (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) وفى قول الفرزدق:

سقاها خروق فى المسامع لم تكن علاطا ولا مخبوطة فى الملاغم

وقوله أيضا:

يحمى إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعد أرعل

وقول الهذلى:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقول الحبيب صلى الله عليه وسلم: خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها.. وقولنا للمتردد، أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، وقول ابن ميادة:

ألم تك فى يمنى يديك جعلتنى فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا

وقول الآخر:

فإن تعافوا العدل والإيمانا فإن فى أيماننا نيرانا

حيث ترى أن الخصوصيات التى اقتضاها المجاز العقلى فى الآيتين الكريمتين، وفى بيتى الفرزدق، تختلف عن الخصوصيات التى اقتضتها الاستعارة المكنية فى بيت أبى ذؤيب، والاستعارة التبعية فى الحديث الشريف، والاستعارة التمثيلية فى القول المذكور وفى بيت ابن ميادة. والاستعارة التصريحية فى البيت الأخير. وسيتضح لك هذا عندما تدرس هذه الألوان

فى علم البيان ، والمهم الآن أن تعرف أن مذاق المجاز العقلى يختلف عن مذاق تلك الألوان ، ففى الآية الأولى أفاد إسناد الربح إلى التجارة المبالغة فى تأكيد سببية التجارة فى الربح ، وفى الآية الثانية تجد أن إسناد الرضا إلى ضمير العيشة أفاد كمال المبالغة فى رضاهم بها وانسجامهم فيها ، وفى البيت الاول للفرزدق أفاد إسناد السوق إلى خروق المسامع ، تأكيد هذه السببية بجعلها فاعلا للسوق ، وكذا القول فى يحمى نساءنا ضرب ، وهكذا تجد للمجاز العقلى مذاقا لا تجده فى الألوان الأخرى ، فلا مجال لإنكاره إذاً ورده إلى المجازات المركبة ، أو رجعه إلى الاستعارة المكنية رغبة فى تقليل الأقسام ، لأن تقليل الأقسام : إذا تنافى مع الخصوصيات التى يقتضيها المقام ، فلا عبرة لهـــذا التقليل ، ولا يصح الأخذ به . .

هذا وقد دفع الخطيب القزوينى إنكار السكاكى للمجاز العقلى دفعا شديدا ورده بردود قوية وذلك حيث يقول : « وفيما ذهب إليه نظر ، لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة فى قوله تعالى (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) صاحب العيشة لا العيشة وبما فى قوله : (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ) فاعل الدفق لا المنى ، لأن مبنى الاستعارة بالكناية عنده أن المشبه يصير من أفراد المشبه به ، وألا تصح الإضافة فى نحو قولهم : فلان نهاره صائم ، لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه وإضافة الشىء إلى نفسه لا تصح وألا يكون الأمر بالإيقاد على الطين - فى الآية : (فَأَوْقِدْ لِى يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ) - لهامان مع أن النداء له - بل يكون لجنوده الذين شبه بهم - وأن يتوقف جواز التركيب فى نحو قولهم : أنبت الربيع البقل وسرتنى رؤيتك على الإذن الشرعى ، لأن أسماء الله تعالى توقيفية . . . ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم : فلان نهاره صائم ، فإن الإسناد فيه مجاز ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان ، لأن ذكر طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه . . . »(1) .

(1) الإيضاح جـ ١ ص ٧٠ ، ٧١

بلاغة المجاز العقلي ودقة مسلكه :

وتكمن بلاغة المجاز العقلي فيما يفيده من المبالغة في التعبير ، وإيجاز القول ، وإثارة الخيال عندما يسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقي . كما ترجع بلاغة المجاز العقلي إلى أنه يفتح أمام المتكلم الميدان للتفنن في القول ، وتلوين العبارة ، وإخضاع الكلام لما يريد ، وتشكيل البناء حسبما يهدف إليه ويرمي ، فهو يلجأ إليه لنفي تهمة ، أو لتخلص من جريمة ، أو لتحقيق مقصد من المقاصد ، حيث يجد في إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي ميداناً رحباً لتحقيق هذه المقاصد . ولذا يقول فيه عبد القادر . « وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ ، في الإبداع والإحسان ، والاتساع في طرق البيان ، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً ، وأن يضعه بعيد المرام ، قريباً من الأفهام »(١) ، ويتضح لك هذا من خلال تأملك لشواهده وأمثلته .. انظر في قوله تبارك وتعالى : (وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) تجد أن الفعل قد أسند إلى مكانه ، وفي هذا الإسناد تخييل محرك ومثير . إذ يصور لنا الأرض فاعلة جاهدة ، تخرج أثقالها وتقذف بنفسها ما بداخلها ، فلا تبقي في باطنها شيئاً . وتأمل الشواهد التي أسند فيها الفعل إلى سببه أو إلى زمانه أو مكانه نحو : بنى الأمير ونهاره صائم وليله قائم وطريق سائر . ولاحظ ما فيها من الإيجاز وتقليل الألفاظ ، إذ المراد : بنى العمال بأمر الأمير وصام الناس في النهار وقام العابد الليل ومضى السائرون في طريقهم ، وفضلاً عن إفادة الإيجاز تجد التجوز في تلك الأمثلة قد أفاد المبالغة في وقوع هذه الأفعال وشدة اهتمام الأمير بالبناء وتأكيد كمال الصوم وتمام القيام وسرعة السير في الطريق .. وكثيراً ما يلجأ المتكلم إلى المجاز العقلي لتحقيق مقصد من المقاصد كما قلت ـ انظر إلى قولهم : « فلان قتله جهله وقضى عليه غروره » ، وهم يريدون بهذا تبرئة

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٨٨

القائل من جريمة قتله ، ونفى التهمة عمن قضى على غيره ، وذلك بإسناد القتل إلى جهل المقتول ، « وقضى » إلى غرور المقضى عليه وتكبره وعجرفته . فقد وجدوا فى المجاز العقلى تحقيقا لهذا المقصد .

ومن هذا ما روى أن عمار بن ياسر - رضى الله عنه - لما قتل يوم صفين وكان فى جند على - كرم الله وجهه - ، اضطرب أهل الشام لعلمهم بقول النبى - صلى الله عليه وسلم - : « عمار تقتله الفئة الباغية » ، فقال لهم معاوية - رضى الله عنه -: « إنما قتله من أخرجه » ، فقد وجد معاوية - رضى الله عنه - فى المجاز دفعا للتهمة عن جماعته وإزالة لاضطراب الناس وارتيابهم . ومنه أيضا ما ورد أن زياداً عندما كان والياً على الكوفة من قبل معاوية ، اتهم حُجْر بن عدى وأصحابه بالخروج على معاوية ، وأشهد على ذلك سبعين من وجوه الكوفة ، ثم أرسلهم إلى معاوية مع شهادتهم بهذا الخروج فقتل معاوية حجراً وصحبه ، فلما حج معاوية ، مر على أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - ، فاستأذن عليها فلما أذنت له وقعد سألته : « أما خشيت الله فى قتل حجر بن عدى وأصحابه » فأجاب : لم أقتلهم ، وإنما قتلهم من شهد عليهم . فقد وجد فى المجاز ما يدفع به عن نفسه تهمة قتل حجر وأصحابه .

هذا والمتكلم يحتاج فى استخدامه لهذا المجاز أن يهيىء العبارة له . فليس كل شىء - كما يقول عبد القاهر - يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز ، بل تجدك فى كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهيىء الكلام ، وتصلحه لذلك بشىء تتوخاه فى النظم ، وكلما هيأ المتكلم العبارة لهذا المجاز تجده قد صار أوقع فى النفس وألطف ، وآكد وأبلغ . انظر إلى قول الشاعر :

تناهى طلابَ العامرية إذ نأت ... بأسجع مرقالِ الضحى قلق الضَّفْرِ
إذا ما أحسته الأفاعى تحيزت ... شـــواة الأفاعى من مُثَلَّمَةٍ سُمْرِ

تجوب له الظلماء عين كأنها   زجاجة شرب غير ملأى ولا صِفْر(١)

تجده قد أسند « تجوب » إلى « العين » والأصل : يجوب الجمل بعينه الظلماء ، ولكنه عدل إلى المجاز فأسند الفعل إلى آلته ، ثم هيأ البيت وتوخى من النظم ما يجعل المجاز ألطف وأوقع فى النفس . إذ تراه نكر العين ليتسنى له وصفها بالجملة الواقعة بعدها ، ولو قال : تجوب له الظلماء عينه ما تمكن من وصفها بتلك الجملة ، وعندما نكر العين وقطعها عن الإضافة إلى الجمل وصلها به بقوله « له » فبدون الضمير فى « له » يصير الكلام لا علاقة له بالجمل(٢) .

وانظر فى قول الفرزدق :

يحمى إذا اخترط السيوف نساءنا   ضرب تطير له السواعد أرعل

تجده قد قدم الشرط : « إذا اخترط السيوف » على الفاعل والمفعول فأبرز بهذا صعوبة الموقف وشدة الحال . ثم إن بناء الفعل المجهول « اخترط » قد أشار إلى سرعة سل السيوف باندفاع وتهور ، وتأمل القولين : يحمى نساءنا ضرب إذا اخترطنا السيوف ، ويحمى إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تجد أن تقديم الشرط والمجىء به معترضا بين الفعل وفاعله ، قد هيأ العبارة للمجاز العقلى فدق ولطف ، ووقع فى النفس موقعه ، وخذ قول الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت   فإنما هى إقبال وإدبار

(١) الأسجح من الإبل : الرقيق المشفر . ومر قال : سريع العدو والضفر : الحزام فهو قاق الضفر من شدة الضمور . وشواه الأفاعى : جلودها . وتحيزت : انقبضت . والثلة السمر : الأخفاف ونالها من السير على الحجارة والسمر منها أقواها . وصفر : خالية . وتجوب : تقطع وتنفذ .

(٢) انظر الدلائل ٢٩٠ .

تجد أن أسلوب القصر قد هيأ المجاز العقلى أحسن تهيؤ حيث قصرت الناقة على الإقبال والإدبار ، وقارن بين : هى إقبال وإدبار ، وإنما هى إقبال وإدبار ، فستتضح لك قوة المبالغة المنبعثة من أسلوب القصر . ثم تأمل قول كثير :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

تجد أن اختيار هذا الجزء من الإبل « الأعناق » قد أضفى على العبارة جمالا وأبرز وجلى ما يفيده المجاز العقلى من تخييل وتصوير الأباطح متحركة تدفع بهذه المطى دفعا وتسيل بها سيلانا ، وذلك لأن حركة الإبل عندما تسرع فى السير تظهر تمام الظهور فى أعناقها، ويتضح لك هذا عندما تقارن بين قولك وسالت بالمطى الأباطح وبين ما قاله كثير :

.. وسالت بأعناق المطى الأباطح ..

وهكذا تجد المجاز العقلى فى حاجة إلى تهيئة العبارة وتوخى النظم ، وأن الشاعر أو المتكلم عندما يراعى هذا فيتوخى من النظم ما يلائم المجاز ويهيىء العبارة له ، فإنه يقع فى النفس موقعه ، ويحقق ما يقصده الشاعر من الإيجاز والمبالغة والتخييل . . .

الفصل الثاني

أحوال المسند إليه

المسند إليه هو أحد أجزاء الجملة - كما عرفت - إذ تتكون الجملة من مسند ومسند إليه وأحد المتعلقات - إن وجد - كالمفعول والظرف والمصدر والجار والمجرور .. وسنتناول في هذا الفصل أحوال المسند إليه من حذف وذكر وتعريف وتنكير وإتباع وتقديم وتأخير ... ثم نتبع ذلك بأحوال المسند وأحوال المتعلقات في الفصلين التاليين .. وفي ختام هذا الجزء سنعرض لظواهر أسلوبية تشمل كل أجزاء الجملة المذكورة .

حذف المسند إليه : لابد لكل حذف يقع في اللغة من وجود أمرين بدونهما يكون الحذف عبثاً وضربا من الهذيان ، وهذان الأمران هما :

١ - وجود القرينة الدالة التي تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه .

٢ - وجود سر بلاغي يدعو إلى الحذف ويرجحه على الذكر .. وهذه الأسرار كثيرة ، ولا يمكن استقصاؤها والإحاطة بها ، ولذا يقول عبدالقاهر في إبراز فوائد الحذف وبيان قيمته البلاغية : « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن .. وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر ، وأنا أكتب لك بديئا أمثلة مما عرض فيه الحذف ، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه ، وأقيم الحجة من ذلك عليه .. »(١) ، وأخذ يعرض

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٠ .

كثيرا من شواهد حذف المبتدأ والمفعول مبينا دقة الحذف فيها ومزيته وفضله على الذكر، وموضحا أن تقدير المحذوف والنظر إليه واعتباره فى الكلام يعد تكلفا ويذهب بمزية الحذف ويضيع رونقه . . . « تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه فى سمعك. فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلت وأن رب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد ... إنك ترى نصبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ أو تباعده عن وهمك، وتجتهد ألا يدور فى خلدك، ولا يعرض لخاطرك وتراك كأنك تتوقاه توقى الشيء يكره مكانه، والثقيل يخشى هجومه .. ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره، وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به ... فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه ، وحذف فى الحال التى ينبغى أن يحذف فيها ، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره فى النفس أولى وآنس من النطق به[(1)] .

هذا ونستطيع أن نقول إن هناك ثلاث مزايا تراها كامنة وراء كل حذف يقع فى اللغة وهى: الإيجاز، وإثارة وتحريك خيال المخاطب وأحاسيسه ليدرك من العبارة ما طوى ذكره وسكت عنه، والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر؛ لأن ذكر الكلمة التى أقيم عليها الدليل وأشار إليها السياق وأرشدت إليها قرائن الأحوال ، يعد عبثا بمقتضى البلاغة ، وإن كان لا يسمى عبثا عند التحقيق ، ولذا قيدوه بقولهم : « بناء على الظاهر » . . .

وعندما نمعن النظر ونتأمل الشواهد التى طوى فيها المسند إليه نجد أن أهم الأسرار البلاغية الكامنة وراء حذفه تنحصر فيما يلى :

ذكر عبد القاهر أن حذف المسند إليه « المبتدأ » يكثر عند ذكر الديار والأطلال ، ويطرد كذلك عند المدح والفخر وعند الهجاء أو الرثاء إذ تراهم

---

(١) انظر الدلائل ١٦٤ ، ١٧٥

يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام ويستأنفون كلاما آخر ، وهم إذا فعلوا ذلك أتوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ . .
ويعرض عبد القاهر كثيرا من الشواهد لهذا نحو قول الشاعر :

اعتاد قلبَكَ من ليلى عوائدُه وهاج أهواءك المكنونة الطلل
ربع قواء أذاع المعصرات به وكلُّ حيرانَ سارٍ ماؤهُ خَضِل (١)

أراد : ذلك ربع قواء فحذف المبتدأ ...

ومثله قول عمر بن أبى ربيعة :

هل تعرف اليوم رسم الدار والطللا كما عرفت بجفن الصَّيْقَلِ الخِللا
دار لميه إذ أهـلى وأهلهم بالكانسية نرعى اللهو والغزلا (٢)

كأنه قال : تلك دار .. ونحوه قول ذى الرمة :

إلى لوائح من أطلال أحـوية كأنها خِلَلٌ موشـية قشب
ديار مية إذ مى تساعفنـا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب (٣)

أراد : تلك ديار أو هذه ديار ...

ومما ورد من ذلك فى مقام المدح ونحوه قول الشاعر :

هم حلوا من الشرف المعـلى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

---

(١) قواء : موحش قفر . والمعصرات : السحـاب وكذا الحيران والسارى وخضل : كثير .

(٢) الصيقل : السيف المصقول . والخلل : مفردها خلة وهى جفن السيف المبطن بالجلد ونحوه والكانسية . موضع .

(٣) اللوائح : ماتبين ولاح . وأحوية : بيوت مجتمعة مفردها : حواء . وموشية : منقوشة . وقشب : جدد .

بناة مكارم وأساة كلم ... دماؤهم من الكلب الشفاء(١)

وقول عمرو بن معد يكرب :

وعلمت أنى يوم ذا ... ك منازل كعبا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديـ ... ـد تنمروا حلقا وقدا(٢)

وقول الآخر :

سأشكر عمرا إن تراخت منيتى ... أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

وقوله :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
نجوم سماء كلما انقض كوكب ... بدا كوكب تأوى إليه كواكبه(٣)

وقول الأقيشر الأسدى فى هجاء ابن عمه :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعى الندى بسريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه ... وليس لما فى بيته بمضيع

أرادوا : هم بناة مكارم .. هم قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا .. هو فتى .. هم نجوم سماء .. هو سريع وحريص .

وعبد القاهر كعادته يحيلك إلى الذوق لتدرك سر بلاغة الحذف فى تلك

---

(١) الكلم : الجرح . والكلب : داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب ، وكانوا يعتقدون أن دم الشريف إذا قطر فى فم المصاب بداء الكلب فإنه يشفيه .

(٢) كعب ونهد : قبيلتان . وتنمروا : اشبهوا بالنمور والقد : الجلد تصنع منه بعض الدروع والحلق : حلق الدروع .

(٣) الجزع : خرز فيه بياض وسواد .

الشواهد ، ويطلب منك أن تقارن بين الجمل وقد قدرت المحذوف وبين ماقاله الشاعر لتدرك بعد مابين الكلامين وتعرف أن تقدير المحذوف قد أفسد المعنى الذى أراده الشاعر .

وأزيدك أن حذف المبتدأ عند ذكر الديار والأطـــلال يحقق معنى أراده الشاعر وهو كراهته أن تنسب تلك الرسوم والأطلال والدمن والآثار التى تغيرت وتبدلت وأذاعت بها المعصرات فصارت تلوح لك كالحلل الموشية ، وكانت من قبل دياراً للهو والغزل .. كراهته أن تنسب تلك الديار التى بدلت إلى اسم حبيبته فيقال : تلك ديارمية . وذاك ربع ليلى ، ونظير هـذا أن ترى صديقا حميما لك قد رسب فى الامتحان ولم يوفق فتقول محدثا عنه : رسب . . لم ينجح ، ولا تذكر اسمه كراهة أن تضيف الرسوب إليه .. وقارن كما يقول عبد القاهر بين : « دار لمية » ، وبين « تلك دار لمية » ، فستجد أن ذكر اسم الإشارة قد جعل ديارمية تنتسب إليه وهو مشار به إلى الرسوم والدمن التى عصفت بها الرياح فصارت تلوح لك كالحلل الموشية القشب، أما طيه والسكوت عنه فيجعـــل الديار ديارا باقية بذكرياتها وحياتها ، ذكريات اللعب ولهو الشباب وحياة الحب والعشق .

وشىء آخر وراء هذا الحذف وهو أن الشاعر عند ذكر الأطلال والديار والمنازل التى بددتها الأيام وغيرها الزمن ، يكون ممتلىء النفس ، متوتر الحس ، حزينا كئيبا ، وتلك حال تقتضى الحذف ، وتدعو إلى طى الكلمات وإيجاز القول .

أما حذف المبتدأ فى مقام المدح ونحوه ، عندما يقطع الشاعر المعنى مستأنفا معنى آخر ، فأرى أن سر الحذف عندئذ هو رغبة الشاعر فى تمييز هذه المعانى ، وظهورها صنوفا متباينة وألوانا مختلفة وأجناساً متغايرة وحذف المبتدأ وطيه فى تلك الجمل المستأنفة ، يحقق هذه الرغبة ، إذ يجعل الجمـــل

المستأنفة مستقلة بمعانيها ، غير مرتبطة بما قبلها ، وعليك أن تقارن بين قولهم بناة مكارم .. قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا .. فتى غير محجوب الغنى .. نجوم سماء كلها .. سريع إلى ابن العم ، وبين قولك : هم بناة مكارم .. هم قوم .. هو فتى .. هم نجوم سماء .. هو سريع إلى ابن العم .. فستجد أن ذكر الضمير « المسند إليه » قد ربط بين المعانى المسندة إليه ، وبين المعانى السابقة ، إذ يرجع إلى المتحدث عنهم فيجعل تلك الأوصاف التى يراد وصفهم بها واحدة مرتبطة يندمج بعضها فى بعض ، وهذا مالا يريده الشعراء فى هذا المقام ، إذ أرادوا بحذفه من صدر الاستئناف ، تميز المعانى المستأنفة عن المعانى السابقة وكأنها - كما قلت - ضروب متباينة وأجناس متغايرة ، وإضافة تلك المعانى إلى المتحدث عنهم على هذا النحو مما يفيد كمال المبالغة فى المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء .. إلخ .

وشىء آخر وراء حذف المسند إليه فى هذا المقام ، وهو أنه ينبىء بمدى انفعال الشاعر ، وامتلاء نفسه بتلك المعانى ، فيقذف بها صنوفا مختلفة ، وألوانا متميزة .

« ومن الأسرار البلاغية الكامنة وراء حذف المسند إليه : « ضيق المقام » ويرجع ذلك إلى ما يكون فيه المتحدث من حزن ، وألم ، أو ملل وسأم ، أو إلى خوفه من فوات فرصة أو ضياع شىء ، او إلى سماعه أمراً غريبا يدعو إلى التعجب ويثير الاستغراب ... أنظر إلى قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا : لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ • فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ : عَجُوزٌ عَقِيمٌ)(١) ، فقد حذف المسند إليه وتقديره : « أنا عجوز عقيم » ، وسر بلاغة حذفه ، يرجع إلى تعجبها من بشارة الملائكة ، واستبعادها ان تلد وهى عقيم وقد وصلت حد الكبر وصار

---

(١) سورة الذاريات آية ٢٨ ، ٢٩ .

بعلها شيخا كبيرا ، وكأن المقام وما هى فيه من تعجب واستغراب واستبعاد يضيق بالمسند إليه ويقتضى طيه وحذفه.. وتأمل قول الشاعر :

قال لى : كيف أنت قلت عليل ‏ ‏ ‏ ‏ سهر دائم وحزن طـــويل

تجد أن ضيق المقام بسبب ما هو فيه من حزن وألم قد اقتضى حذف المسند إليه ، وتقديره . قلت : أنا عليل وحالى حزن دائم وسهر طويل .. وتسمع من ينادي مستغيثا : حريق أو غريق ، والتقدير : هذا حريق ، وهذا غريق ، فضيق المقام بسبب خشية المنادى أن تفوت فرصة الإنقاذ ، جعله يطوى المسند إليه ، ويبادر بذكر المسند .. والحذف لضيق المقام يقع كثيرا فى اللغة ، ومنه فى غير المسند إليه ، قوله تعالى : (وَنَادَوْا يَا مَالِ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ)(١) فى قراءة من قرأ بترخيم المنادى ، فقد قالوا فى سبب هذا الترخيم : إنهم لشدة ماهم فيه من عذاب وتألم ، عجزوا عن إتمام الكلمة ، وكأن المقام لايسعفهم لنداء مالك ، فحذفوا آخر الاسم ترخيما : « يامال » .. وقوله عز وجل : (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)(٢) ، فقد حذف حرف النداء ، وهذا الحذف يشير إلى ما صار إليه حال العزيز ، وقد رأى براءة يوسف ، وأيقن بثبوت التهمة على امرأته ، وأنها هى التى أرادت السوء ، وكأن الكلمات لاتسعفه حتى يتم النداء فطوى هذا الحرف ، ثم أجمل القصة كلها فى اسم الإشارة « هذا » ؛ لأن المقام مقام ضيق وحزن ، فهو يقتضى الإيجاز وطى الكلمات .. وانظر إلى قول الحارث يخاطب امرأته وقد أخذت تحثه على أخذ ثأر أخيه من قومه :

قومى هم قتلوا أميم أخى ‏ ‏ ‏ ‏ فإذا رميت يصيبنى سهمى

---

(١) سورة الزخرف ٧٧

(٢) سورة يوسف ٢٩

فحال الشاعر حال حزينة مؤلمة ؛ لأن قاتلى أخيه هم قومه فكيف ينتقم منهم ، إنه إن رمى يصيبه سهمه . . وتأمل إضافة القوم إلى ياء المتكلم « قومى » و ما يكمن وراء هذه الإضافة من أحزان وآلام ، تلك الحال قد اقتضت من الشاعر إيجاز القول وطى الكلمات ، فحذف حرف النداء ورخم المنادى ، إذ الأصل « قومى هم قتلوا يا أميمة أخى » وتأمل أيضا قوله : « هم قتلوا » ، وما يفيده تقديم المسند إليه وإيلائه الخبر الفعلى من تأكيد القتل وقصره عليهم ، فهذا الشعر ينبعث منه ما يمزق نفس الشاعر ويوجع قلبه ويضيق صدره ، فقد استطاع الشاعر أن يصور آلامه وأحزانه ، وأن يبرز مبعث أساه : « قومى . . هم قتلوا » . . ومن ثم اقتضى المقام الحذف وإيجاز القول . وعد إلى المسند إليه . فانظر إلى طيه فى قوله تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)[1] تجد أنه قد طوى لأن المسند المذكور : « عالم الغيب » لا ينصرف إلا له « سبحانه وتعالى » ، ولذا قال البلاغيون : إن سر حذف المسند إليه فى الآية هو تعينه للمسند المذكور ، وهو هنا متعين حقيقة إذ علم الغيب لا يكون إلا له تعالى ، وقد يحذف لتعينه ادعاء ومبالغة كما فى قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ‎٠‏ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا : سَاحِرٌ كَذَّابٌ)[2] ، أى : هذا ساحر كذاب ، فحذفوا المسند إليه لتعينه ـ فى اعتقادهم ـ المسند المذكور « ساحر كذاب » ، وغلبة هذا المسند عليه وشهرة اتصاف موسى به ـ فى اعتقادهم ـ ، إلى حد أنه إذا أطلق لفظ « ساحر » أو « كذاب » انصرف إليه وكأنه قد تعين له ادعاء ومبالغة . . ومن ذلك قولنا . « عادل فى حكمه » ، نريد بهذا عمر الفاروق رضى

---

(١) سورة الرعد آية ٩

(٢) سورة غافر ٢٣ - ٢٤ .

الله عنه ، فقد حذف المسند إليه فى هذا القول لتعينه للوصف المذكور مبالغة فى عدالته ، وذلك لشهرته رضى الله عنه بالعدل . . فنى الحذف دلالة على أنه قد بلغ فى الاتصاف بهذه الصفة حد الكمال . . وقد يحذف المسند إليه لتعينه عهداً كقولك لصديقك : « حضر » تريد شخصا معهودا لك وله ، فقد طويت المسند إليه فى هذا القول لتعينه للاتصاف بالمسند المذكور عهدا ، إذ ينصرف ذهن صديقك إليه عند سماعه لقولك حضر . . وتأمل تلك الأمثال : رمية من غير رام . . قضية ولا أبا حسن لها . . شنشنة أعرفها من أخزم ، تجد أنها قد وردت بحذف المسند إليه ، إذا التقدير : تلك رمية . . هذه قضية وتلك شنشنة . . وعندما تضرب هذه الأمثال ينبغى عليك أن تلتزم حذف المسند إليه اتباعاً للاستعمال الوارد ، لأن الأمثال لا تتغير .

ومن حذف المسند إليه : بناء الفعل للمفعول ، إذ يحذف الفاعل ويقام مقامه غيره ، ووراء هذا الحذف أغراض كثيرة ، منها الخوف على الفاعل الحقيقى ، كما فى قول الشاعر :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد

والخوف منه كقولك : « سرق المتاع » ، تريد : سرق اللص .

واحتقاره كما فى قول الشاعر :

لئن كنت قد بلغت عنى خيانة لمبلغك الواشى أغش وأكذب

وضيق المقام كقول الآخر :

أسرت وما صحبى بعُزْل لدى الوغى

ولا فرسى مُهر ولا ربه غَمْر

والجهل به كقولك: قتل المجرم والعلم به كقول الشاعر

سُبِقْنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها ... مُنِعْنا بها من جيئة وذُهُوبِ

وكقوله عز من قائل: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ)(١).
وتأمل قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)(٢)، تجد أن الفعل قد بنى للمفعول فى قوله: «قيل.. غيض.. قضى» للعلم بالفاعل الحقيقى وهو الله القادر. ووراء حذف الفاعل سر آخر وهو الإشارة إلى سرعة الإجابة والامتثال وأن هنالك قوة خارقة قد اختطفت الماء فانمحى وزال. وانظر فى قوله عز وجل: (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)(٣)، تجد أن وراء حذف المسند إليه دقائق ولطائف أهمها الإشارة إلى قدرة الخالق فهو الغالب وليس موسى؟ بل لقد أوجس موسى فى نفسه خيفة عندما رأى حبالهم وعصيهم وخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فقوله تعالى: «غلبوا» بالبناء للمجهول إشارة إلى قدرة الله القاهر وتنبيها على أن الغلبة كانت بتدبيره وصنعه، وبهذا يظل موسى فى مرتبة العبودية العاجزة التى لا تصنع شيئا خارقا، وإنما يجريه الله تعالى على يديها. وتأمل قوله تعالى: (وألقى السحرة) وإشارته إلى سرعة امتثالهم لأمر الله وكأن قوة القهار قد نزعت العناد والكفر من رءوسهم فانكبوا ساجدين، مؤمنين برب العالمين.
وقد يحذف المسند إليه لظهوره ظهوراً لا لبس فيه، انظر إلى قوله تعالى: (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)(٤) وقوله عز وجل: (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)(٥)

---

(١) سورة الجمعة آية ١٠.
(٢) سورة هود آية ٤٤.
(٣) سورة الأعراف آية ١١٩ و ١٢٠.
(٤) سورة القيامة آية ٢٦
(٥) سورة الواقعة آية ٨٣.

تجد أنه قد طوى المسند إليه وتقديره : إذا بلغت الروح التراقى والحلقوم ، وطيه فى الآيتين لظهوره ظهورا بيناً ، إذ لا يبلغ الحلقوم والتراقى عند الموت إلا الروح والنفس ، وشيء آخر وراء الحذف فى الآيتين وهو الإشارة إلى ما عليه الروح من وشك المفارقة وكان إسقاطها من العبارة يؤذن بذهابها وزوالها . ومن ذلك قول حاتم :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

أراد : إذا حشرجت النفس ، فحذفت النفس لما بينا من أن طيها من العبارة يوحى بوشك زوالها وانتقالها إلى بارئها . ومن ذلك أيضاً قوله عز وجل: (إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)[1] فالمراد: حتى توارت الشمس، فحذفت لظهورها ظهورا تاما، ولإيذان الحذف بالمواراة والاختفاء ، وكان إسقاطها من العبارة ينبيء بالغروب والاختفاء . وتأمل قوله تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)[2] ، وقوله عز وجل : (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)[3]، تجد أن المسند إليه قد حذف فى الآيتين والتقدير: لقد تقطع ما كان بينكم من علاقات موهومة . ثم بدا لهم الأمر وهو السجن وحذف المسند إليه يشير إلى عدم الاعتداد به وسقوطه فتلك علاقات واهية وأمور واهمة لا اعتداد بها ، وهذا أمر ساقط جائر وضح لهم بعد ما رأوا الآيات فكيف يسجنونه عندئذ ؟ ، الحذف فى الآيتين يشير إلى عدم الاعتداد بالمسند إليه ، وكان إسقاطه من العبارة ينبيء بأنه لا وجود له ولا اعتداد به عند ذوى العقول السليمة والفكر السديدة .

---

(١) سورة ص آية ٣٢ . (٢) سورة الأنعام ٩٤ .

(٣) سوة يوسف آية ٣٥ .

هذا ويذكر البلاغيون من أغراض حذف المسند إليه : تعجيل المسرة بسرعة إيراد المسند والمبادرة بذكره كقولك لمخاطبك : انظار «دينار» تريد : هـذا دينار ، فحذفت المسند إليـه تعجيلا للمسرة بذكر الدينار ، ومثله أن يبادرك أخوك بقوله : حفل مقام . يريد ذاك حفل . ومن تلك الأغراض أيضا : تأتى الإنـكار عند الحاجة كقولك فى شأن إنسان يطغى ويتـكبر : لئيم فاجر غادر ، ولا تصرح بذكر اسمه ليتأتى لك الإنكار إذا ما واجهك فتقول له : ماقصدتك بقولى .. ومنها تحقير المسند إليه وصون اللسان عن النطق به كما فى قوله تعالى : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)(١) ، فحذف المسند إليه فى قـوله : « يقاتلون . ظلموا » تحقيرا له وصونا للسان عن ذكره أما حذفه فى قـوله : « أذن » فللتعظيم والإجلال ، وللعلم به تعالى .. ومن الحذف تحقيرا وصيانة للسان قول بعضهم فى ابن عم له موسر سأله فمنعه ولم يعطه واطم وجهه :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعى الندى بسريع
حـريص على الدنيا مضيع لدينه وليس لما فى بيتـه بمضـيع

فقد حذف المسند إليه تحقيرا له وصونا للسان عن التلفظ به وقد ذكرنا سرا آخر وراء الحذف فى البيت فارجع إليه وتبينه ، وفى معنى صون اللسان عن النطق بالمسند إليه يقول الشاعر :

ولقد علمت بأنهم نجس فإذا ذكرتهم غسلت فمى

ومنها تعظيم المسند إليه وصونه عن اللسان ، كما فى قـوله تعـالى : (والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)(٢) ، فقـد حذف لفظ الجلالة تعظيما له . ومن ذلك حذف أسماء الممدوحين كما فى قول الشاعر :

---

(١) سـورة الحج ٣٩ . (٢) سـورة البقرة آية ٤ .

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

وارجع إلى ما قلناه من أسرار أخرى فى مثل هذا البيت ، ويعد من هذا القبيل إخفاء الشاعر لأسماء صواحبه حتى لا تتردد على ألسنة الغير ، وإيثاره أن ينطق بأسمائهن وحده بعيدا عن الناس ، كما يدل على هذا المعنى قول الشاعر :

وإياك واسم العامرية إننى أغار عليها من فم المتكلم

وقول ذى الرمة :

أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم

إلى غير ذلك من الأسرار والدقائق التى تراها وراء حذف المسند إليه والتى لا يمكن الإحاطة بها ـ كما ذكرت ـ ، لأن الذى يرشد إليها هو السياق وقرائن الأحوال ، فما يبدو للمتأمل الواعى ذى الذوق السليم والطبع القويم . من دقائق كامنة وراء حذف المسند إليه وطيه فى الأساليب الجيدة ، فهو ذاك الذى تبين له .

ذكر المسند إليه :

قد توجد فى الكلام القرينة القوية التى تدل على المسند إليه لو حذف ولكن المتكلم لا يحذفه بل يذكره على الرغم من وجود تلك القرينة القوية وذلك ليحقق غرضا من الأغراض الآتية :

١ — زيادة التقرير والإيضاح كما فى قوله تعالى (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(١) ، ففى إعادة ذكر المسند إليه : « وأولئك هم المفلحون » زيادة تقرير وإيضاح وإبراز لمكانة هؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا بما نزل وأيقنوا بالدار

(١) سورة البقرة آية ٥

الآخرة وما فيها من جزاء ، فاستحقوا تلك المكانة السامية : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ، فقد أدى تعريفهم باسم الإشارة ، وإعادة ذكره ، إلى زيادة إيضاح وتقرير تلك المعانى السامية المنسوبة إليهم « على هدى من ربهم .. هم المفلحون » . . . ومن ذلك قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)(١) ، ففى إعادة ذكر المسند إليه : « الروح » زيادة تقرير وإيضاح ، إذ تجد فى ارتباطها بخبرها ما يثبت معنى الجملة فى النفس ويجمع أطرافها فى الفؤاد ، فيزداد المعنى إيضاحا وتقريراً ومثله قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(٢) ففى إعادة ذكر اسم الإشارة : « أولئك » ما يبرز تلك المعانى المنسوبة إليهم ويزيدها إيضاحا . .

وترى ذكر المسند إليه لهذا الغرض يكثر فى مقام المدح والفخر والعتاب والرثاء ونحو ذلك ، حيث يذكر الشاعر اسم الممدوح أو اسم من يعاتبه أو يرثيه ، ثم يعيد ذكره مع كل خبر يريد أن يضيفه إليه ، فتبدو المعانى بهذا فى صورة واضحة ومؤكدة . . . انظر إلى قول عمرو بن كلثوم :

وقد علم القبـائل من مَعَدٍّ   إذا قُبَبٌ بأبطحها بنينا
بأنا المطعمون إذا قدرنا   وأنا المهلكون إذا أُتينا
وأنا العاصمون إذا أُطعنا   وأنا العازمون إذا عُصينا
وأنَّا الحاكمون بما أردنا   وأنا النازلون بحيث شينا

تجد أن تكرار ذكر المسند إليه : « أنا » قد أبرز تلك المعانى التى افتخر بها الشاعر والتى قد علمتها القبائل من معد ، ووراء هذه النون المشددة يكمن

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥   (٢) سورة الرعد آية ٥

النغم الموسيقى الذى حلا للشاعر أن يتغنى به مفتخرا . . ، وتأمل قول الخنساء فى رثاء صخر :

وإن صخرا لكافينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحار
وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

تجد أن تكرارها لاسم صخر قد أبرز تلك المعانى التى أضافتها إليه فى صورة مقررة مؤكدة ، كما أن فى ترديدها لهذا الاسم ما يخفف آلامها ويداوى جراحها ، وشىء آخر وراء ذكر المسند إليه وتكراره فى البيتين ، يشعر به الدارس الواعى ، ويدركه المتأمل الدقيق ، وهو إبراز هذا الاسم فى الوجود وتخليده فى الأذهان فهو وإن كان قد طوى من الحياة ، إلا أنه مذكور فى المقول دائما ومخلد فى الأذهان أبداً . . . وانظر فى قول ابن الدمينة معاتبا صاحبته :

وأنت التى قطعت قلبى حزازة ... وقرقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التى كلفتنى دلج السرى ... وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التى أحفظت قومى فكلهم ... بعيد الرضا دانى الصدود كظيم

تجد أن الشاعر كرر ضمير صاحبته فى كل بيت مضيفا إليه تلك الأخبار، فبدت فى صورة واضحة مقررة ، وحققت ما أراده من العتاب واللوم . .

ومن أغراض ذكر المسند إليه الرغبة فى إطالة الكلام وامتداد الحديث ، كما فى قوله : تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (١) فقد كان يكفى فى الجواب أن يقول : عصا ، ولكن موسى ـ عليه السلام ـ رغبة منه فى أن يطول الكلام إذ هو فى حضرة رب العزة جل وعلا ، ذكر المسند إليه

---

(١) سورة طه آية ١٧ ، ١٨

« هى » ، وأضاف العصا إليه : « عصاى » ثم أخذ يتحدث عن عصاه : « أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » ، وأجمل تلك المآرب طمعا فى أن يسأل عنها فيجيب ، وبهذا يزداد الحديث طولا . .

وقد يذكر المسند إليه تلذذا بذكره وترديده ، ويحلو هذا فى مقام الغزل وذكر الأحبة كما فى قول الشاعر :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وقول الآخر :

ألا ليت لبنى لم تكن لى خلة ولم تلقنى لبنى ولم أدر ما هيا

فقد كرر الأول اسم ليلى تلذذا بنطق اسمها والتغنى به وكرر الثانى اسم لبنى لنفس الغرض ، فحب الشاعر لاسم صاحبته يجعله يكثر من ذكره وترديده تمتعا ، بل يذكر ويردد كل ما أشبه اسمها أو قاربه :

أحب من الأسماء ما وافق اسمها وأشبهه أو كان منه مدانيا

وهو عندما يردد ذلك ويستمتع به ، يختار الأماكن البعيدة النائية حتى لا يسمعه أحد فيردد ما ردد :

أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم

فهو يغار على صاحبته ويكره تلذذ الغير بترديد اسمها ، ولذا أحب ذلك المكان القفر ، بل توعد من يردد اسمها فقال :

وإياك واسم العامرية إننى أغار عليها من فم المتكلم

وقد يذكر المسند إليه بغرض التسجيل على السامع حتى لا يتأتى له الإنكار بعدئذ ، انظر إلى قول الفرزدق فى على بن الحسين عندما أنكر هشام ابن عبد الملك معرفته له :

هـذا ابن خير عباد الله كلهم   هـذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله   بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره   العرب تعرف من أنكرت والعجم

فقد كرر المسند إليـه مضيفا إليـه تلك الصفات تسجيلا على المخاطب المنكر حتى لا يتأتى له الإنكار بعدئذ ، وتلاحظ أن الفرزدق لم يعتد بإنكار المنكر فأورد له الخبر خاليا من التوكيد منبها بهـذا إلى وضوحه وظهوره وأنه لا ينبغى لأحد إنكاره أو تجاهله ...

وذكر البلاغيون من أغراض ذكر المسند إليه كذلك : ضعف التعويل على القرينة كما إذا سئلت : من حضر ومن ذهب ؟ فتجيب الذى حضر هو عمرو والذى ذهب خالد ، لأنك لو حذفت المسند إليه فقلت : عمرو وخالد ، لم يفهم السائل المراد لضعف القرينة عندئذ . . . والتنبيه على غباء السامع كقولك لسائل غبي لا يفهم إلا بالتصريح ، وقد سألك : من حضر ؟ فتجيبه الذى حضر على . . وإظهار تعظيمه أو إهانته كقولك لمن ينتظر مقدم الأمير ، ويترقب رؤية السارق أمير المؤمنين سيأتى ... السارق اللئيم يتقدم أمامك الآن ... والتبرك بذكره كقولك فى جواب من سألك : هل الله يرضى هذا ؟ وهل محمد خاتم الأنبياء ؟ : الله جل جلاله يرضى هـذا ومحمد صلى الله عليـه وسلم خاتم الأنبياء . إلى غير ذلك من الأغراض التى تجعل المتكلم يصرح بالمسند إليه ويعمد إلى ذكره فى الـكلام .

تعريف المسند إليه : يرد المسند إليه معرفة ويرد نكرة ولـكل منهما مقام يقتضيه وداع يستدعيه ، وسيأتى الحديث عن تنكير المسند إليه ، ودواعيه أما تعريفه فقد يكون بنفس اللفظ دون حاجة إلى قرينة ، وذلك فى التعريف بالعلمية ، وقد يكون بقرينة التكلم أو الخطاب أو الغيبة ، وذلك

فى التعريف بالضمائر ، وقد يكون بقرينة حسية كتعريفه باسم الإشارة ، أو بنسبة معهودة كتعريفه بالاسم الموصول ، أو بحرف وهو المعرف بأل ، أو بإضافة معنوية وذلك عند التعريف بالإضافة . وإليك بيان هذه المعارف وما يكمن وراء التعريف بها من دقائق وأسرار .

التعريف بالضمائر : يؤتى بالمسند إليه ضميراً إذا كان الحديث فى أحد المقامات الثلاثة : التكلم - الخطاب - الغيبة ، فإذا كان المتكلم يتحدث عن نفسه ، كان المقام لضمير المتكلم نحو : أنا فعلت كذا ، ونحن فعلنا ، وتكمن وراء التعبير بضمير المتكلم معان دقيقة ومزايا لطيفة يدركها ذو الحس المرهف والذوق السليم . انظر فى قوله تبارك وتعالى : (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)(١) ، تجد أن التعبير بضمير التكلم : « إنى أنا ربك . وأنا اخترتك ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا » أفاد من الإيناس والتلطف مالا يفيده غيره ، خاصة وأن الله تبارك وتعالى ينادى موسى أول مرة فالمقام يحتاج إيناساً وتلطفاً . وخذ قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(٢) وتأمل إيثاره التعبير بضمير التكلم « إنا نحن نزلنا . إنا له . » وما وراءه من تأكيد الحفظ وبث الطمأنينة فى نفس المؤمن .. ثم تأمل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » ، وما وراء التعبير بضمير التكلم عن الاعتداد بالنفس وتمام الثقة وبعث الطمأنينة فى نفوس المؤمنين وكذا القول فى بيت المتنبي :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتى من به صمم

---

(١) سورة طه آية ١١ — ١٤ . (٢) سورة الحجر آية ٩ .

وقول بشار بن برد :

أنا المرعّث لا أخفى على أحد ذرّت بى الشمس للقاصى وللدانى (١)

وقول عمرو بن كلثوم :

ورثنا المجد قد علمت معدٌّ نطاعن دونه حتى يبينا
ونحن إذا عماد الحى خرت على الأحفاض نمنع من يلينا

إذ لا يخفى عليك ما يكمن وراء التعبير بضمير التكلم فى الأبيات من الفخر والاعتداد بالنفس .

وإذا كان المتكلم يخاطب إنسانا أمامه ، كان المقام للخطاب ، كقوله تعالى مخاطباً النبى صلى الله عليه وسلم : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(٢) وقوله عز وجل : (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)(٣) وقوله جلا وعلا : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)(٤) ، ويكثر التعريف بضمير الخطاب فى مقام العتاب واللوم ، إذ يحلو المتكلم أن يخاطب من يعاتبه وأن يردد ضميره مسندا إليه ما يريد من لوم وعتاب ، على نحو ما نرى فى قول أمامة الخثعمية تخاطب ابن الدمينة :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى وأشمت بى من كان فيك يلوم
وأبرزتنى للنـــاس ثم تركتنى لهم غرضا أرمى وأنت سليم

---

(١) المرعث : المقرط ، وكان بشار يلقب بالمرعث لقرط كان يعلقه فى اذنه وهو صغير . وذرت : طلعت ، كناية عن الشهرة والذيوع ، يصف نفسه بأنه ذائع الصيت .

(٢) سورة القلم آية ٤ . (٣) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٤) سورة الضحى آية ٩ — ١٠ .

فأجابها ابن الدمينة :

وأنت التى قطعت قلبي حزازة
وقرفت قرح القلب فهو كليم
وأنت التى كلفتنى دلج السرى
وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التى أحفظت قومى فكلهم
بعيد الرضا دانى الصدود كظيم

وأصل الخطاب أن يكون للمعين المشاهد ، وقد يعدل عن هذا الأصل لسر بلاغى ، فيخاطب غير المشاهد إشارة إلى حضوره فى الذهن وقربه من القلب ، وتعلق النفس به ، كما رأيت فى الشواهد المتقدمة .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[1] فتوجه المؤمن بالخطاب إلى المولى جل وعلا يكمن وراءه ماذكرنا من التقرب إليه تعالى وتعلق الفؤاد به ودوام حضوره فى نفس المؤمن .. وقد يخاطب غير المعين كقولنا : «فلان لئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك...» ، إذ لا يراد بالخطاب فى مثل هذا القول مخاطب معين، بل يراد به العموم ، ويكمن وراء ذلك معنى دقيق وهو الإشارة إلى شناعة اللؤم وقبح الصنع وفظاعة الإساءة ، وأن هذا لا يختص بواحد دون آخر ... ومثله قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقول الآخر :

---

(١) سورة الفاتحة آية ٥ ، ٦ .

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هوانا بها كانت على الناس أهونا

وقول الثالث :

إذا ما كنت ذا قلب قنوع   فأنت ومالك الدنيا سواء

فليس المراد بالخطاب فى تلك الأبيات مخاطباً معينا ، بل أريد عموم الخطاب وشموله لكل من يتأتى منه الخطاب . . . وانظر فى قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[1] ، تجد أن الخطاب فى قوله: « ترى» قد أريد به كل من يتأتى منه الخطاب . وهذا ينبىء بأن الأمر من الوضوح بمكان وأن حال المجرمين وما هم فيه ، قد بلغ من الظهور لأهل المحشر مبلغا يمتنع خفاؤه ، فلا يختص به راء دون آخر ولا يخفى عليك ما يفيده حذف جواب « لو » من شدة هذه الحال وفظاعتها ، كما لا يخفى عليك ما يريده النظم القرآنى من التنفير والتحذير من صنيع هؤلاء المجرمين الذى أدى بهم إلى تلك الحال المخزية .

ومثل هذا تراه فى قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)[2] وقوله عز وجل : (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)[3] وتأمل قـــول الحبيب المصطفى : « بشر المشائين إلى المساجد فى الظلمات بالنور التام يوم القيامة . . » تجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرد مخاطبا معينا وإنما أراد أن : كل من يتأتى منه الخطاب ينبغى أن يقوم بهذا التبشير ، وفى هذا غاية التكريم وتمام الرضا عن هؤلاء المشائين إلى المساجد فى الظلمات .

---

(١) سورة السجدة ١٢   (٢) سورة سبأ ٥١

(٣) سورة الإنسان ٢٠

وإذا كان المتكلم يتحدث عن غائب فينبغى أن يتقدم ذكره إما لفظا كقوله تعالى : (فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)[١].

وقول الشاعر :

من البيض الوجوه بنى سنان | لو انك تستضىء بهم أضاءوا
هم حلوا من الشرف المعلى | ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

ونجد أن ضمير الغائب « هم » قد أشار إلى علو مكانتهم وبعد منزلتهم .

وإما معنى بأن يكون فى حكم الملفوظ به كقوله تعالى : (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)[٢] وقوله جل وعلا : (وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ)[٣] ، فالضمير « هو » يعود إلى العدل والرجوع المفهومين من قوله : « اعدلوا .. فارجعوا ... » .

وقد يكون المرجع قرينة تدل عليه كقوله تعالى : (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)[٤] فالضمير المستتر « هى » يرجع إلى الشمس ، وقد دلت عليها قرائن السياق والأحوال من ذكر العشى والتوارى وفوات وقت الصلاة .. وقد يكون المرجع متقدما حكما كما فى ضمير الشأن نحو قوله تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ)[٥] فالضمير فى « إنها » يرجع إلى الأبصار ، ولا يخفى عليك ما فى ذلك من الإيضاح بعد الإبهام ، وأن لهذا أثره ووقعه فى أنفس المخاطبين .

التعريف بالعلمية : ويؤتى بالمسند إليه معرفا بالعلمية لأغراض كثيرة أهمها :

---

(١) سورة الأعراف ٨٧
(٢) سورة المائدة ٨
(٣) سورة النور ٢٨
(٤) سورة ص ٣٢
(٥) سورة الحج ٤٦

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

وقول الثالث :

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء

فليس المراد بالخطاب فى تلك الأبيات مخاطباً معيناً ، بل أريد عموم الخطاب وشموله لكل من يتأتى منه الخطاب . . . وانظر فى قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[١] ، تجد أن الخطاب فى قوله : « ترى قد أريد به كل من يتأتى منه الخطاب . وهذا ينبىء بأن الأمر من الوضوح بمكان وأن حال المجرمين وما هم فيه ؛ قد بلغ من الظهور لأهل المحشر مبلغا يمتنع خفاؤه ؛ فلا يختص به راء دون آخر ولا يخفى عليك ما يفيده حذف جواب « لو » من شدة هذه الحال وفظاعتها ، كما لا يخفى عليك ما يريده النظم القرآنى من التنفير والتحذير من صنيع هؤلاء المجرمين الذى أدى بهم إلى تلك الحال المخزية .

ومثل هذا تراه فى قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)[٢] وقوله عز وجل : (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)[٣] وتأمل قول الحبيب المصطفى : « بشر المشائين إلى المساجد فى الظلمات بالنور التام يوم القيامة . . . » تجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرد مخاطبا معينا وإنما أراد أن : كل من يتأتى منه الخطاب ينبغى أن يقوم بهذا التبشير ، وفى هذا غاية التكريم وتمام الرضا عن هؤلاء المشائين إلى المساجد فى الظلمات .

---

(١) سورة السجدة ١٢ (٢) سورة سبأ ٥١
(٣) سورة الإنسان ٢٠

(وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)(١) وقوله عز وجل : (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)(٢) وقوله تعالى :(اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)(٣) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

٢ — أن يقصد إلى تعظيمه أو إلى إهانته وتحقيره ، وذلك عند استخدام الكنى والألقاب المحمودة أو المذمومة كقولك : « أبو الخير جارك وأبو المعالى جاء » وأبو الجهل صديقك وأنف الناقة حضر ، والعربى بطبعه ينفر من الألقاب المذمومة ويكره الانتساب إليها ويقبل إلى اللقب المحمود ويحب الانتساب إليه . . وقد كان لقب « أنف الناقة » مكروها ، ولا يحب أهله الانتساب إليه حتى قال الشاعر :

قوم هم الأنوف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فصاروا بعد ذلك يفخرون بالانتساب إلى أنف الناقة . . وكان الرجل من نمير يفخر بنسبته إليها ويمد صوته عند النطق بهذه النسبة « نميرى » مفتخرا بذلك فلما قال الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

صار يكره وينفر من تلك النسبة .

٣ — أن يقصد إلى التبرك والتلذذ بنطق العلم كقولك : الله ربى ومحمد نبى . وكقول الشاعر متلذذا بليلاه :

بالله ياظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وقول الآخر مرددا اسم لبنى ومتلذا بهذا الترداد :

---

(١) سورة آل عمران ٣٦ (٢) سورة الأنعام ١٢٤

(٣) سورة الرعد ٢

ألا ليت لبنى لم تكن لى خلة ، ولم تلقنى لبنى ولم أدر ماهيا

ولذا يقول المتنبى معللا ذكره لأسماء آباء الممدوح :

أبا شجاع بفارس عضد الدو لة فناخسرو شهنشاها

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

٤ ــ أن يقصد إلى التفاؤل كقولك : سعد فى دارك ، أو إلى التطير كقولك : السفاح قادم .. إلى غير ذلك من أغراض يقصدها المتكلم بتعريف المسند إليه بالعلمية .

١١ التعريف بالأسماء الموصولة : عندما يعرف المسند إليه بالاسم الموصول ينبغى أن يكون المخاطب والمتكلم عالمين بجملة الصلة ، فأنت لا تقول : الذى تحدث الآن رجل فاضل ، إلا إذا كنت عالما بحديثه ، وكان مخاطبك أيضا يعلمه ، ولذا يعمد المتكلم إلى تعريف المسند إليه بالموصولية . إذا كان لا يعلم هو أو مخاطبه من أحوال المسند إليه سوى جملة الصلة ، كأن يقول : الذى كان معنا بالأمس رجل صالح ، وهو لا يعلم عن ذلك الرجل سوى وجوده بالأمس معهما ، أو يعلم عنه ولكن المخاطب لا يعرفه إلا بهذه الصلة فقد وجد المتكلم فى جملة الصلة ما يمكنه من الحديث عمن تحدث عنه ، حيث لا يعرف إلا بها .. ومن أغراض تعريف المسند إليه بالصلة : زيادة التقرير ، كما فى قوله تعالى : (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ)(١) فجملة الصلة : «هو فى بيتها» أبرزت نزاهة يوسف ـ عليه السلام ـ وهى الغرض المسوق له الكلام ، وزادتها تأكيدا وتقريرا ؛ لأن كونه فى بيتها وهى متمكنة منه : وعلى الرغم من ذلك أعرض ونأى وقال : (مَعَاذَ اللهِ) مما يؤكد نزاهته وإعراضه عن تلك الفاحشة ، وفى الصلة تقرير أيضا للمراودة وهى المسند ، لأن وجوده فى بيتها ، وانفرادها به ، مما يدعو إلى تمكنها منه ، وإقبالها على مراودته ، وتفننها فى تلك المراودة ، وفيها أيضا زيادة تقرير المسند إليه وهو : «التى» وتأكيد

(١) سورة يوسف آية ٢٣ .

أنها هى الفاعلة دون غيرها ، ولو قيل : راودته امرأة العزيز أو زليخا ، لأمكن احتمال أن المراودة غيرها أو شبيهة بها . فالتعبير بالاسم الموصول نفى أى احتمال يحتمل وأكد أنها هى الفاعلة المراودة . ووراء التعبير بالموصول فى الآية سر بلاغى آخر وهو استهجان التصريح باسمها أو بنسبتها إلى العزيز ، لأن من تقبل على فعل الفاحشة ، تنفر منها النفوس وتكره الألسن التفوه باسمها ، وتأبى الطباع نسبتها إلى زوجها وهو ذو الشأن فى الدولة ، إنه العزيز ، وهى بفعلها هذا صارت لا تستحق أن تنتسب إليه .. ومما عرف فيه المسند إليه بالصلة استهجانا للتصريح به قولنا : الذى يخرج من السبيلين ناقض للوضوء ، والخارج هو البول والغائط وغيرهما وهو قذر ينفر اللسان من النطق به وتأبى الأذن سماعه ، ولذا لجأنا إلى التعريف بالصلة تحاشيا للنطق به وتلافيا لإسماعه المخاطب .. وانظر إلى قول حسان رضى الله عنه فى تبرئة نفسه مما نسب إليه من حديث الإفك :

فإن الذى قد قيل ليس بلائط ... ولكنه قول امرىء بى ماحل

وقوله فى بيت آخر :

فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتم ... فلا رفعت سوطى إلى أناملى

فقد استهجن أن يصرح بحادثة الإفك ، وأن يذكر اتهام عائشة رضى الله عنها ، فعبر بالاسم الموصول «الذى» وقد مكنته جملة الصلة من أن يشير إلى معنى لطيف دقيق ، فتأمل : «قد زعمتم» «قد قيل» ، فهو مجرد زعم ، وهو قول ساقط غير منسوب إلى عاقل يستحق أن يذكر .. وقد يكون التعريف بالصلة لتنبيه المخاطب إلى خطئه ، كما فى قول عبدة بن الطبيب من قصيدة له فى وصية بنيه :

إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

فجملة الصلة : «ترونهم إخوانكم» تفيد : تنبيه الأبناء إلى خطئهم فيما يرون وأنهم مخدوعون فى هؤلاء حيث ظنوهم إخوانهم والواقع أن صدورهم

تتوقد حقدا عليهم ، ويتمنون هلاكهم ، ولو قال عبدة : « إن قوم فلان يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا ، ما أفاد هذه الإفادة . وخذ قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)(١) تجد أن جملة الصلة : « تدعون من دون الله » ، تفيد تنبيه المشركين إلى خطئهم فى عبادتهم غير الله تعالى . وقد يكون فى التعريف بالصلة إيماء إلى وجه بناء الخبر كما فى قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)(٢) فإن الاستكبار عن عبادة الله الذى دلت عليه الصلة : « يستكبرون عن عبادتى » ، قد أومأ إلى وجه بناء الخبر ، وأنه من جنس العذاب والنكال : « سيدخلون جهنم » ، ومثله قوله تعالى : (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(٣) وقوله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)(٤) وقوله جل وعلا : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)(٥)، وهذا كثير فى النظم الكريم ، ومنه شعرا قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنــا   بيتا دعائمه أعز وأطــول

فقوله: «سمك السماء» يشير إلى أن الخبر من نوع الرفعة والسمو، وتقول: الذى لا يتذوق الجمال ألف فى البلاغة ، فتشير بهذا إلى سوء ما ألف وحقارته، كما يفهم منه إهانة من ألف والحط من شأنه. وقد يفهم من تحقير الخبر تعظيم غيره كما فى قوله تعالى . (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ)(٦) فقد أومأت الصلة «كذبوا شعيبا» إلى وجه بناء الخبر وأنه من جنس الخسران والبوار ، ويفهم من هذا تعظيم شعيب الذى كذب ورفعة شأنه .

ومن أجل إيماء الصلة إلى وجه بناء الخبر عيب قول عبدة بن الطبيب :

---

(١) سورة الأعراف ١٩٤
(٢) سورة غافر ٦٠
(٣) سورة النور ١١
(٤) سورة الكهف ١٠٧
(٥) سورة فصلت ٣٠
(٦) سورة الأعراف ٩٢

إن التي ضربت بيتاً مهاجرة   بكوفة الجند غالت ودها غول(١)

فقد جرت عادة الشعراء على أن البعد والحرمان يلهب العاطفة ويضاعف الشوق والحنين ، ولذا قال قائلهم :

لكم التمست البرء من داء الهوى   بالبعد عنك فزدته أزمانا

وكم من شاعر قد اشتد غرامه واشتعل هيامه بعد رحيل القوم بفتاته وابتعادها عنه . . أما عبدة فقد انقطع حبه وزال وده لخولة بعد أن هاجرت وأقامت بعيداً عنه ، وبيان ذلك أن جملة الصلة : « ضربت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند » ، يومىء إلى أن وجه بناء الخبر هو اشتعال نار الحب وازدياد الود الروحي بينهما ، ولكن الشاعر خالف هذا وبنى الخبر بناء مغايراً إذ جعله زوال الحب وانقطاع الود : « غالت ودها غول » ، وهذا يناقض ما جرت عليه عادة الشعراء كما بينا . وربما يعتذر لعبدة أنه قد قال هذا البيت بعد تولي الشباب وحلول الشيخوخة وفتور الصبوة ، وكأنه كان ينتظر هجرتها ليقطع وده ولذا قال عقب البيت المذكور :

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل   إن الصبابة بعد الشيب تضليل .

وقد نظر السكاكي إلى هذا فجمل ما في البيت إيماء إلى وجه بناء الخبر ، بل إيماء إلى تحقيقه . . ونظر الخطيب إلى عادة الشعراء فجمل الصلة في البيت تومىء إلى نقيض ما ذكره الشاعر(٢) . .

وقد يقصد من التعريف بالموصولية إفادة معنى التفخيم والتهويل كما في قوله تعالى : (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)(٣) ، وقوله عز وجل : (إِذْ يَغْشَى

---

(١) غالت : أكلت والود مفعول به مقدم والغول فاعل مؤخر وهو حيوان خرافي . . .
(٢) انظر مفتاح العلوم ٩٧ والإيضاح ٨٩/١
(٣) سورة طه الآية ٧٨

السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)[١] ، وقوله جل وعلا : (فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى)[٢] ، فالاسم الموصول فى هذه الآيات الكريمة ، فيه إبهام أدى إلى التفخيم والتهويل ولو أردت تفصيل ما أفاده الموصول فقلت : غشيهم من اليم أمور عظيمة مبهم أمرها .. إذ يغشى السدرة خلائق عظيمة مبهم أمرها فى الجلال والكثرة ، لو قلت مثل هذا ما أفدت ما أفاده الاسم الموصول من تفخيم وتهويل ، فقد أفاد ما لا يكتنهه النعت ولا يحيط به الوصف .. وانظر إلى قول الشاعر فى وصف ما تفعله الخمر بعقل شاربها :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها
وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

تجد أن الموصول : « ما مضى » أفاد تفخيم أمر الخمر وتهويل ما تفعله بعقول شاربيها ، ونلمس وراء ذلك معنى لطيفا وهو التحذير من شرب الخمر لما تصنعه بالعقل ، ولأن من أدمن شربها فلن يتركها إلا بعد فقدان عقله ، فلو بقيت بقية من عقله لطالبته الزجاجة حتى تذهبه : « وفى الزجاجة باق يطلب الباقى » .. ومن ذلك فى غير باب المسند إليه قول الحماسى :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه
فلما علاه قال للباطل ابعد

وقول أبى نواس :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فإذا عصارة كل ذاك أثام

(١) سورة النجم الآية ١٦
(٢) سورة النجم الآية ٥٤

وقول كثير :

تجافيت عنى حين لا لى حيلة وخلفت ما خلفت بين الجوانح

ولا يخفى عليك ما يفيده التعريف بالموصولية فى الآيات من تهويل وتفخيم ... وقد يعرف المسند إليه بالموصولية لتشويق السامع إلى الخبر حتى يتمكن فى ذهنه فضل تمكن ، كما فى قول أبى العلاء :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

فقد تضمنت جملة الصلة أمراً غريبا جعلت السامع مشتاقا إلى معرفة الخبر والوقوف عليه ، فعندما يأتى الخبر يتمكن فى نفسه فضل تمكن .. وقد يقصد بالتعريف بالموصولية إخفاء الأمر عن غير المخاطب كقول الشاعر :

وأخذت ما جاد الأمير به وقضيت حاجاتى كما أهوى

وقد يقصد إخفاء اسم المتحدث عنه رغبة فى هدايته واستمالة له نحو الحق والهدى ، كما فى قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)(١) ، وقوله عز وجل : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)(٢) وقوله جل وعلا : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا)(٣) ، إلى غير ذلك من المقاصد التى يقصد إليها البلاغى عندما يعرف بالموصولية ...

التعريف بأسماء الإشارة : ويعرف المسند إليه باسم الإشارة لأغراض بلاغية كثيرة أهمها :

١ - أن يقصد تمييز المسند إليه أكمل تمييز ، لأن اسم الإشارة بطبيعة

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٤ (٢) سورة الحج الآية ٨

(٣) سورة لقمان الآية ٦

دلالته يفيد تحديد المراد منه تحديدا ظاهرا وتمييزه تمييزا تاما ، ولذ
المتكلم قد يقصد إلى هذا التحديد ليحضر المسند إليه فى ذهن السامع ،
تمام التميز ، وذلك عندما يكون معنيا بالحكم الذى يريد إضافته إليه و
فى إبرازه وزيادة تأكيده .

انظر إلى قول ابن الرومى فى مدح أبى الصقر الشيبانى :

هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه
من نسل شيبان بين الضال والسـ

نجد أن اسم الإشارة : « هذا » أفاد تميز الممدوح وحضوره فى ذهن
السامع محسوسا مشاهدا ، وبعد هذا التميز أضاف إليه الشاعر هذه الصـ
التى تفيد تفرده فى المحاسن وبلوغه الغاية فى العزة والمجد فهو من نسل شـ
عاش بين الضال وهو شجر السدر البرى ، والسلم وهو شجر ذو شوك ،و
الأشجار بالبادية وهى مجد العرب وعزهم ، وإضافة الشاعر هذه المآثر
الممدوح بعد تميزه فى الذهن واستحضاره أمام السامع يؤدى إلى تمكنـ
الأنفس أفضل تمكن ، وكأنه يتحدى أن يكون له ضريب أو نظير . .

وتأمل قول الفرزدق مشيرا إلى على بن الحسين عندما تجاهله هشام

هذا ابن خير عباد الله كلهم — هذا التقى النقى الطاهر العـ
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته — والبيت يعرفه والحل والحر
إذا رأته قريش قال قائلها — إلى مكارم هذا ينتهى الكر
يكاد يمسكه عرفان راحته — ركن الحطيم إذا ما جاء يستلـ

فقد دفع الفرزدق إنكار هشام بهذا الفيض من الإشارات التى أ
ذيوع مناقب على وشهرة مآثره ، حيث أضيفت إليه هذه المناقب و
المآثر بعد كمال تميزه ، وبعد صيرورته حاضرا فى الأذهان ، مرئيا أمام الأ
ومن إفادة اسم الإشارة لكمال التميز قول الشاعر :

ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى فى شأن القرآن : (إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ)(١) فأتى باسم الإشارة الموضوع للقريب مؤذنا بقربه قربا يحقق الانتفاع به والاسترشاد بهديه العظيم ، لأن المقام مقام حديث عن هدايته إلى أقوم الطرق : وكلما كان الهادى قريبا ، كان أنجح لرسالته ، وأقطع لعذر من ينصرف عن هدايته والاسترشاد به .. وعد إلى أبيات الفرزدق فى على بن الحسين ، تجد أن إشارته إليه بالقريب يفيد تعظيمه وقربه من القلوب وتعلق الناس به ومحبتهم له .. ومن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)(٢) ، فقد دلت الإشارة بالبعيد « ذلك » على حقارة المكذب ، وحرمانه من ساحة القرب وشرف الحضور ... وتقول : ذلك الواشى وشى بى عند فلان ، فتحقره بالإشارة وتبعده عن نفسك وعن المخاطبين .. ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى : (الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ)(٣)

أشار إلى القرآن بالبعيد « ذلك » لبيان بعد منزلته وعلو مكانته وأنه لاتدانيه منزلة ، فقد بلغ الغاية فى الكمال والهداية ... وقوله تعالى : (فَذَلِكُنَّ الذى لُمْتُنَّنِي فِيهِ)(٤) ، أشارت إليه بالبعيد وهو قريب حاضر لتظهر علو منزلته فى الحسن ، ولتبرز عذرها فى الافتتان به . وقوله جل وعلا : (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)(٥) أفادت الإشارة تعظيم الجنة وبعد مكانتها ... ومن أقوالهم فى هذا الصدد قول الفرزدق مفتخرا بآبائه ومشيرا إلى علو مكانتهم ورفعة شأنهم :

---

(١) سورة الإسراء ٩ (٢) سورة الماعون ١ ، ٢
(٣) سورة البقرة ١ ، ٢ (٤) سورة يوسف ٣٢
(٥) سورة مريم ٦٣

ولا يخفى عليك ما وراء الإشارة من تحقير وإهانة لمن خاض فى هذه الحادثة . . .

٢ - القصد إلى تعظيم المسند إليه أو إلى تحقيره ، وهذا مقصد تحققه أسماء الإشارة أحسن تحقق وتقوم به خير قيام ، لأنك تعلم أن الإشارة تكون للقريب ، فيقال هذا رجل ، وللبعيد فيقال : ذلك وللتوسط فيقال ذاك وقد ينزل البعد أو القرب المعنوى منزلة القرب أو البعد الحسى ، وعندئذ ترى أسماء الإشارة تفيد ما تفيد من التعظيم أو التحقير ، فمن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُواً ، أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولا)(١) وقوله تعالى: (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً، أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؟)(٢)، فقد أشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم باسم الإشارة الموضوع للقريب «هذا» تحقيرا له ، وإعلانا عن رفضهم رسالته ، وأنه لا يليق به أن يذكر آلهتهم بسوء ، لقربه ودنو منزلته . . وانظر إلى قول الشاعر متحدثا عن زوجه :

تقول وقد دقت نحرها بيمينها ... أبعلى هذا بالرحا المتقاعس
فقلت لها لا تعجبى وتبينى ... بلائى إذا التفت على الفوارس

فى إشارتها إليه بالقريب «هذا» معانى الاستخفاف والتحقير ودنو المنزلة ، ولذا رد عليها مبينا منزلته فى ميدان القتال ، وبلاءه عند الموقف الصعب . . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)(٣) ، فقد أشار إلى الدنيا بالقريب «وما هذه» تنبيها على حقارتها وضعتها فى نفس المؤمن الذى لا يلقى لها بالا .

---

(١) سورة الفرقان ٤١ — (٢) سورة الأنبياء ٣٦
(٣) سورة العنكبوت ٦٤

ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى في شأن القرآن: (إنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ)(١) فأتى باسم الإشارة الموضوع للقريب مؤذنا بقربه قربا يحقق الانتفاع به والاسترشاد بهديه العظيم ، لأن المقام مقام حديث عن هدايته إلى أقوم الطرق : وكلما كان الهادي قريبا ، كان أنجح لرسالته ، وأقطع لعذر من ينصرف عن هدايته والاسترشاد به .. وعد إلى أبيات الفرزدق في علي بن الحسين ، تجد أن إشارته إليه بالقريب يفيد تعظيمه وقربه من القلوب وتعلق الناس به ومحبتهم له .. ومن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)(٢) ، فقد دلت الإشارة بالبعيد « ذلك » على حقارة المكذب ، وحرمانه من ساحة القرب وشرف الحضور ... وتقول : ذلك الواشي وشى بي عند فلان ، فتحقره بالإشارة وتبعده عن نفسك وعن المخاطبين .. ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى . (الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)(٣)

أشار إلى القرآن بالبعيد « ذلك » لبيان بعد منزلته وعلو مكانته وأنه لا تدانيه منزلة ، فقد بلغ الغاية في الكمال والهداية ... وقوله تعالى : (فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ)(٤) ، أشارت إليه بالبعيد وهو قريب حاضر لتظهر علو منزلته في الحسن، ولتبرز عذرها في الافتتان به . وقوله جل وعلا : (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)(١) أفادت الإشارة تعظيم الجنة وبعد مكانتها ... ومن أقوالهم في هذا الصدد قول الفرزدق مفتخرا بآبائه ومشيرا إلى علو مكانتهم ورفعة شأنهم :

---

(١) سورة الإسراء ٩ — (٢) سورة الماعون ١ ، ٢

(٣) سورة البقرة ١ ، ٢ — (٤) سورة يوسف ٣٢

(٥) سورة مريم ٦٣

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فقد أفادت الإشارة : « أولئك » تعظيم الآباء وسمو مكانتهم . وفى ذلك تعريض بالمخاطب ودنو آبائه وضعة شأنهم ، والأمر فى قوله (فجئنى) للتعجيز .. ومثله قول الحطيئة :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا
وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا(١)

فقد أفادت الإشارة (أولئك) تعظيم المشار إليهم وبعد مكانتهم وعلو مجدهم .. ولكن يؤخذ على الشاعر ، استخدامه (إن) دون (إذا) فقلل بهذا بناء المجد والعهد والعقد .. ولو استخدم (إذا) لكان أبلغ وأوفى المدح .. وقد اجتمع التعظيم والتحقير فى قوله تعالى : (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)(٢) .

٣ — وقد يقصد بالتعريف باسم الإشارة : التنبيه على أن المشار إليه المذكور بعد أوصاف عديدة للشىء ، جدير من أجل تلك الصفات بما يذكر بعد اسم الإشارة .. من ذلك قوله تعالى : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(٣) . فقد تقدم وصفهم بالتقوى وبالإيمان بالغيب وهو أعلى مراتب الإيمان ، ثم وصفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فوفوا بذلك حق الله وحق الفقراء ، وهم يؤمنون بكل ما أنزل على أنبيائه . ثم جاءت الإشارة (أولئك) لتفيد أنهم جديرون من أجل الصفات المتقدمة بما يذكر

---

(١) بنوا : يريد به مايبنونه من المجد والمكارم ويقال : بنا : يبنو : بناء فى المجد والشرف ، وبنى : يبنى بناء فى العمران . وعقدوا : أبرموا أمراً وعزموا عليه ..

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) سورة البقرة آية ٥ .

عقبها من الهدى والفلاح . . وهذا كثير فى النظم القرآنى . . ارجع إلى قوله تعالى فى سورة « المؤمنون » : (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)(١) . وفى سورة البقرة : « أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(٢) . وفى سورة الرعد : (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)(٣) وتأمل ما قبله وما بعده ليتضح لك ما قلناه . .

٤ — ومن أغراض التعريف بالإشارة : تجسيد المعنويات وإبرازها فى صورة محسوسة مشاهدة ، على نحو ما ترى فى قوله تعالى : (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)(٤) ، فالإشارة ، قد أبرزت التقليب فى صورة محسوسة مرئية ، ولكنها بعيدة : « ذلك » ؛ لأنه لا يأخذ العظة منها إلا النفوس المؤمنة القوية المهيأة للوعى والإدراك . . ومثله قوله تعالى : (قَالُوا : أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)(٥) ، فقد أبرزت الإشارة البعث فى صورة محسوسة مرئية . . وقوله تعالى : (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)(٦) . . وعد إلى الآيات التى ذكرناها فى حادثة الإفك لترى كيف أبرزت الإشارة تلك الحادثة فى صورة مرئية مشاهدة . .

٥ — ومن مزايا اسم الإشارة أنك تجده فى كثير من الأساليب يلخص الكلام إذ يستطيع به المتحدث أن يطوى جملا كثيرة بل وربما صفحات كاملة دون حاجة إلى إعادتها ؛ لأن اسم الإشارة يقوم مقام هذه الاعادة ويغنى عنها . . انظر إلى قوله تعالى فى سورة الإسراء : (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٠
(٢) سورة البقرة آية ٢٧
(٣) سورة الرعد آية ٥ .
(٤) سورة النور آية ٤٤
(٥) سورة المؤمنون آيتا ٨٢ ، ٨٣
(٦) سورة يوسف آية ٣٧

إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)(١) نجد أن اسم الإشارة : « ذلك » قد أغنى عن آيات عديدة حوت كثيرا من الأوامر والنواهى . . وهذا كثير فى النظم الكريم وفى الأساليب الرفيعة وهو لا يخفى على الناظر الدقيق والمتأمل الواعى . .

٦ — ومن مزايا اسم الإشارة أيضا أنه يقوم مقام أدوات الربط فيصل بين الجمل المستأنفة والجمل المتقدمة على نحو ما ترى فى الآيات الكريمة : (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ . هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ)(٢) . . (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ . هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ)(٣) ... إلى غير ذلك من الأغراض والمزايا والمعانى اللطيفة الدقيقة التى تكمن وراء التعريف بأسماء الإشارة...

التعريف بالألف واللام : يعرف المسند إليه بالألف واللام لغرضين :

أولهما : الإشارة إلى فرد من أفراد الحقيقة، معهود بين المتكلم والمخاطب، وتسمى اللام عندئذ . لام العهد الخارجى وتأتى على ثلاثة أنواع :

١ — لام العهد الخارجى الصريحى : وهى التى يتقدم لمدخولها ذكر صريح فى الكلام ، كما فى قوله تعالى : (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ)(٤) . فلفظا « المصباح والزجاجة » كل منهما مسند إليه . وقد جاءا معرفين « بأل » إشارة إلى معهود خارج ، وهذا المعهود قد صرح به فى قوله تعالى : « فيها مصباح . . فى زجاجة » ، ولذا تسمى اللام « لام

(١) سورة الإسراء آية ٣٩
(٢) سورة ص آية ٤٨ ، ٤٩
(٣) سورة ص آية ٥٤ ، ٥٥
(٤) سورة النور آية ٣٥

العهد الخارجى الصريحى .. ومنه قولك : غرست شجرة فأثمرت الشجرة وأينعت وآتت أكلها ..

٢ — لام العهد الخارجى الكنائى ، وهى التى يتقدم لمدخولها ذكر كنائى كما فى قوله تعالى : (رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)(١) ، فلفظ : « الذكر » مسند إليه ، وقد عرف « بأل » إشارة إلى العهد الخارجى الكنائى ، حيث لم يصرح بلفظه ، وإنما كنى عنه بقوله تعالى : « ما فى بطنى محررا » ؛ إذ أرادت ذكراً كى تهبه لخدمة بيت المقدس ، أما « أل » فى « الأنثى » فللعهد الخارجى الصريحى لتقدم مدخولها صريحا فى قوله تعالى : « رب إنى وضعتها أنثى » ..

٣ — لام العهد الخارجى العلمى ، كما فى قوله تعالى : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)(٢) ، فاللام فى : « الشجرة » للعهد الخارجى العلمى حيث لم يتقدم لمدخولها ذكر لا صريحاً ولا كنائياً .

ثانيهما : الإشارة إلى نفس الحقيقة وتسمى اللام عندئذ لام الحقيقة أو لام الجنس ، وترد أيضاً على ثلاثة أنواع :

١ — لام الجنس أو الحقيقة ، وهى التى يكون مدخولها مراداً به الحقيقة نفسها ، كقولك : الرجل خير من المرأة ، أى : حقيقة الرجل خير من حقيقة المرأة ، فلام الجنس أغنت عن تفصيل يتعذر إذ لا يستطيع القائل أن يستقصى جميع أفراد الجنس فى تلك المفاضلة ، كما أن التعريف بلام الجنس فى المثال

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٦ ، ٣٧ (٢) سورة الفتح آية ١٨

المذكور، لا ينافى أن بعض أفراد حقيقة المرأة، خير من بعض أفراد حقيقة الرجل، ففى هذا إيجاز وإيحاء دقيق .. ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى:

والخل كالماء يبدى لى ضمائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

أراد جنس الخل وجنس الماء .. وانظر إلى قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ)(١)، تجد أن اللام فى «الناس» يصح أن تكون لام العهد العلمى، أى: كما آمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه، ويصح أن تكون لام الجنس، أى: كما آمن جنس الناس، والجنسية هنا يتولد منها معنى لطيف؛ لأنها تشير إلى أنهم هم الناس الكاملون فى الإنسانية، فالذين آمنوا هم جنس الناس، ومعدن الإنسانية، ومن عداهم ليسوا منها فى شىء(٢).

٢ - لام العهد الذهنى: وهى أن يأتى المعرف بلام الحقيقة أو الجنس مرادا به فرد مبهم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته فى الذهن لاشتمال الحقيقة عليه، كقولك لمخاطبك: «ادخل السوق»، وليس بينك وبينه سوق معهودة فى الخارج .. وعليه قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبنى فاعف ثم أقول لا يعنينى

فالمراد باللئيم فرد غير معين من أفراد الحقيقة، وليس المراد به الحقيقة لاستحالة المرور على مالا وجود له، ولا فردا معينا من أفرادها، إذ لا عهد به فى الخارج، ومثله قول الآخر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقوله عز وجل: (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)(٣)

---

(١) سورة البقرة آية ١٣ (٢) انظر الكشاف جـ ١ ص ١٨٢

(٣) سورة يوسف آية ١٣

فلفظ « الذئب » فى الآية المراد به فرد من أفراد حقيقة الذئاب ، كما أن لفظى « الكريم » و « اللئيم » فى البيت، المراد بالأول فرد من أفراد حقيقة الكرام، وبالثانى فرد من أفراد حقيقة اللئام .

٣ ـ لام الاستغراق : وهى التى يراد بمدخولها جميع الأفراد المندرجة تحت الحقيقة عند قيام القرينة الدالة على ذلك ، وقد سميت لام الاستغراق لاستيعابها جميع الأفراد ، والاستغراق إما حقيقى ، كما فى قوله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)(١) ، فاللام فى « الإنسان » للاستغراق الحقيقى لجميع أفراد جنسه ، ولذا استثنى الذين آمنوا فهم ليسوا فى خسران . . ومنه قوله تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)(٢) ، أى : كل غيب وكل شهادة ، « فأل » فيهما الاستغراق الحقيقى ، إذ أريد بمدخوليها جميع الأفراد التى يتناولها اللفظ بحسب الوضع

وإما عرفى كقولك : امتثل الطلاب رأى المعلم ، « فأل » فى الطلاب أريد بها الاستغراق العرفى لأن مدخولها أريد به جميع الأفراد التى يتناولها بحسب العرف وما جرت به العادة ، لا جميع الأفراد حقيقة ، ومثله قولك : جمع الأمير الصاغة ، فالمراد : جمع صاغة بلده أو أطراف مملكته لحسب لا صاغة الدنيا ، فأل فى « الصاغة » للاستغراق العرفى .

التعريف بالإضافة : ويعرف المسند إليه بالإضافة لإفادة أغراض بلاغية والدلالة على أسرار ومزايا عديدة أهمها ما يلى :

١ ـ إرادة الإيجاز كقولك : كتابى مفيد ، إذ الإضافة فيه هى أخصر طريق لإحضار المسند إليه « كتابى » فى ذهن السامع فما من ريب فى أن هذا أخصر من قولك : الكتاب الذى أملكه مثلا . . وانظر إلى قول جعفر

(١) سورة العصر آية ٢

(٢) سورة الأنعام آية ٧٣ .

الحارثى وكان مسجونا بمكة فزارته فتاته مع ركب قومها فلما رحلت عنه قال واصفا ألمه وأحزانه :

هواى مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثمانى بمكة موثق(١)

تجد أن الإضافة فى قوله : « هواى » هى أخصر طريق لإحضار المسند إليه فى ذهن المخاطب، وقد اقتضى المقام هذا الإيجاز، لأن الشاعر حزين متألم ضائق الصدر لسجنه وفراق أحبته ومثل هذا المقام يلائمه الإيجاز وطى الكلمات واختصار القول .

٢ - أن يكون التعريف بالإضافة مغنيا عن تفصيل يتعذر أو عن تفصيل تركه أرجح لاعتبار ما ، فمن الأول قولك : أهل مصر كرام ، إذ يتعذر عليك ذكرهم والإحاطة بهم . . ومثله قول الشاعر :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها فى غيل خفان أشبل(٢)

إذ يتعذر عليه الإحاطة ببنى مطر واستقصاء أسمائهم ومن الثانى قول الحارث بن وعلة الجرمى - وقد مر بك - :

قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

فالإضافة فى قوله : « قومى » أغنت عن تفصيل تركه أرجح ؛ لأنه لو فصل فذكر القتلة بأسمائهم لأوغر صدورهم عليه ، ولا يخفى عليك ما وراء الإضافة

---

(١) هواى : المراد الذى أهوى فهو من إطلاق المصدر على اسم المفعول مجازا مرسلا ، واليمانين : جمع يمان وألفه عوض عن ياء النسب والمصعد : اسم فاعل من أصعد بمعنى أبعد فى السير ، والجنيب : المستتبع من جنب البعير إذا قاده إلى جنبه ، وموثق : متقيد محبوس .

(٢) بنو مطر : قوم الشاعر أو قوم الممدوح . والغيل : الشجر الملتف . وخفان . مأسدة قرب الكوفة ، والأشبل : أولاد الأسود مفرده شبل .

والاختصاص . « هم قتلوا » وترخيم المنادى : « أميم » ، من حزن وألم ومن إبراز لجريمة قومه وتصوير لبشاعتها(١) .

٣ — أن تكون الإضافة متضمنة تعظيم المضاف كقوله تعالى : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ)(٢) ، وقوله عز وجل : (قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا)(٣) ، وقوله جل وعــلا : (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)(٤) ، فالإضافة إلى الله تعالى تشريف ما بعده تشريف وتعظيم ما بعده تعظيم ، ولذا حق للشاعر أن يقول مفتخراً بعبوديته لله الخالق تبارك وتعالى :

ومما زادنى شرفا وتيهــا   وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك : « ياعباد »   وأن جعلت أحمد لى نبيا

أو تعظيم المضاف إليه كقولك : خادمى جاء . . . أموالى لاتعد ، تفتخر بأنك عظيم لك خادم ولديك أموال ، فالإضافة تضمنت تعظيم المضاف إليه أى : « المتكلم » .

٤ — أن يقصد بالإضافة تحقير شأن المضاف أو المضاف إليه كقولك : أعداء الإسلام يتربصون به . أموال السارق لم تنفعه ، فلا يخفى عليك تحقير المضاف فى الأول والمضاف إليه فى الثانى .. وقد اجتمع التحقير والتعظيم فى قول الشاعر :

أبوكَ حُبَابٌ سارقُ الضيفِ بُرْدَه   وجَدِّى يا حَجاجُ فارسُ شُمَّرا

فالإضافة فى « سارق الضيف » أفادت تحقير أبى المخاطب « حباب » ، وفى « فارس شمرا » أفادت تعظيم جد الشاعر .

---

(١) ارجع إلى ماقلناه فى هذا البيت عند حديثنا عن حذف المسند إليه
(٢) سورة الجن آية ١٩   (٣) سورة مريم آية ٣٠ .
(٤) سورة الفرقان آية ٦٣

٥ ـ وقد يقصد بالإضافة إفادة معنى لطيف كما فى قول الشاعر :

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة ... سهيل أذاعت غزلها فى الأقارب

فقد جعل للخرقاء كوكبا وأضافه إليها لأدنى مناسبة وهى أنها لا تتذ
كسوة الشتاء إلا وقت طلوعه سحراً ، وهو لا يطلع سحراً إلا فى الشتا
وتكمن وراء تلك الإضافة معان دقيقة كالمداعبة والمزاح ، والسخرية
تلك المرأة الخرقاء الكسول ، وإثارتها وحثها على العمل وترك الإهمال

٦ ـ وقد يقصد بالإضافة الاستعطاف والحث على الشفقة ، كما فى قوله تع
(لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ)[٢] ، فقد أضيف ا
إليها وإلى الأب : «بولدها .. بولده» ، استعطافا لها وحثا على الإشفاق =
والكف عن مضرته ، أو عن المضارة بينهما بأن يضر كل منهما الآخر به
لأن تلك المضرة ترجع فى الأخير إلى ولدهما .. يقول الزمخشرى : «فإن قا
كيف قيل بولدها وبولده ؟ ، قلت : لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف
الولد استعطافا لها عليه ، وأنه ليس بأجنبى منها فمن حقها أن تشفق عل
وكذلك الوالد »[٣] .

تنكير المسند إليه : يأتى المسند إليه نكرة لإفادة أنه فرد غير ،
من أفراد جنسه ، أو لإفادة النوعية ، فإذا قلت : جاءنى رجل ، صلح
القول لإرادة الإفراد ، أى : جاءنى رجل لا رجلان وصلح لإرادة النو
أى : جاءنى رجل لا امرأة ،، وهذه الإفادة إفادة أصلية للنكرة ، وقد تتجه
النكرة للدلالة على العدد ، وذلك إذا وصفت به كقولك : جاءنى رجل وا

(١) الخرقاء : يريد : المرأة الخرقاء أى المهملة الكسول . وسهيل بدل الكوكب ، وأذاعت غزلها فى الأقارب : فرقته عليهم ليغازلوها ويسمعوها .

(٢) سورة البقرة ٢٣٣ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣٧١

ورجلان اثنان، ومن ذلك قوله تعالى: (وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)(١) .. وقد تتمحض لإفادة النوعية أى الجنس، كما فى قوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)(٢) فقد محض الوصف «فى الأرض .. ويطير بجناحيه» النكرتين: «دابة وطائر»، لإفادة الجنس .. هذا وقد يقصد بتنكير المسند إليه وجوه بلاغية كثيرة أهمها:

١ — القصد إلى أن المسند إليه فرد غير معين من أفراد حقيقته حيث لا يتعلق بتعريفه غرض، كما فى قوله تعالى: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)(٣)، وقوله جل وعلا: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ)(٤)، فقد نكر المسند إليه فى الآيتين: «رجل»، لأن القصد إلى إفادة أنه فرد غير معين من أفراد جنسه، إذ لا حاجة إلى تعريفه ولا غرض من تعيينه، فالمراد أن يصل إلى موسى نبأ الائتمار لقتله، وأن يعلم المخاطب أن قولا قد قيل وأن تنبيها إلى ما فى قتل موسى من خطأ، قد وقع، ولا يخفى عليك ما وراء التنكير من تعظيم المسند إليه وإعلاء شأنه، فقول كلمة الحق فى مثل هذه المجتمعات الفاسدة لا يصدر إلا من رجل عظيم الشأن جليل القدر، كما لا يخفى عليك ما أفاده تنكير المفعول فى قوله تعالى: «أتقتلون رجلا» من تعظيم لموسى عليه السلام.

٢ — القصد إلى تعظيم المسند إليه، كما فى قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ)(٥)، فقد نكرت الحياة التى يحققها القصاص للإشارة إلى أنها حياة عظيمة .. وقوله عز وجل: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ

---

(١) سورة النحل آية ٥١
(٢) سورة الأنعام آية ٣٨
(٣) سورة القصص آية ٢٠
(٤) سورة غافر آية ٢٨
(٥) سورة البقرة آية ١٧٩

الْعُسْرِ يُسْرًا)(١). أفاد «تنكير اليسر وتكراره الدلالة على تفخيمه وتعظيمه.
يقول الزمخشري: «فإن قلت: فما معنى هذا التنكير.. قلت: التفخيم، كأنه قيل إن مع العسر يسرا عظيما، وأي يسر»(٢). ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة» أي سحراً عظيما وحكمة رائعة... ومنه من غير باب المسند إليه قول المتنبي:

أهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد

فقد نكر «بشيء» ليشير إلى أن مايهم به شيء عظيم تطارده الليالي عن إدراكه، ويطاردها، فهو يهم بعظائم الأمور ويطارد الليالي من أجل نيل جلائل الأشياء.

٣ ـ القصد إلى تحقيره، كقولك: لك عدو لا يعتد به، أي: عدو حقير الشأن، لا يقام له وزن، ولا يلقى له بال، وكقول إبراهيم بن العباس وكان واليا على الأهواز من قبل الواثق بالله ثم عزل في وزارة محمد بن عبد الملك الزيات فقال مخبرا بنبو الدهر عنه وتخلي الصاحب وتسلط الأعداء وغياب النصير:

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الأهواز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور

فقد نكر الدهر ليشير إلى أنه دهر منكر مجهول، وليس هو الدهر الذي كان يعهده أيام ولايته على الأهواز، ولذا تمنى أن تكون داره بعيدة عنها عندما تغير وتبدل الدهر، وقلب له ظهر المجن.. كما نكر «صاحب» ليشير إلى حقارته ولؤمه، ثم تأمل بناء الفعل للمجهول وأنه لم يقل: وأنكرت صاحبا، حتى لا يسند إنكار الصاحب إلى نفسه صريحا في اللفظ، ولو كان صاحبا لئيما حقيراً. وتأمل تنكير الأعداء وبناء الفعل للمجهول: «وسلط أعداء» للإشارة إلى حقارتهم وضعة شأنهم، وأنهم أداة في أيدي الغير وليسو

---

(١) سورة الانشراح آية ٥، ٦ (٢) الكشاف ج ٤ ص ٢٦٧

مشاهير الرجال . أما تنكير « نصير » في قوله : « وغاب نصير » فالإشارة لتعظيمه وفخامته ، وأنه لولا غيابه لما حدث للشاعر ما حدث ، ومما اجتمع التعظيم والتحقير قول الشاعر .

فتى لا يبالى المدلجون بنوره ... إلى بابه ألا تضىء الكواكب
له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

فقد أفاد تنكير « حاجب » الأول : التعظيم والتفخيم ، فهو حاجب أى حاجب ، ذلك الذى يحول بينه وبين فعل ما يشين ، إنه حاجب قوى هائل ، وأفاد تنكير « حاجب » الثانى ، التحقير والتقليل ، فليس له حاجب ما ، يحول بينه وبين طالبى معروفه . . ومثله قول الآخر :

ولله منى جانب لا أضيعه ... وللهو منى والخلاعة جانب

فتنكير « جانب » الأول للتعظيم ، والثانى للتحقير والتقليل .

أما قوله تعالى : (يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)(١) ، فقد قالوا : إن تنكير « عذاب » يفيد أنه عذاب هائل عظيم لا يكتنه ولا يحيط به الوصف ، ولا تتعارض هذه الإفادة مع ذكر « المس » ، لأنه ذكر مع العذاب العظيم : (لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(٢) ، كما لا تتعارض مع ذكر الرحمن ، لأن عذاب الرحمن يكون أشد وأعظم وغضبه يكون أقوى وأعتى ، ولذا قال الحبيب صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بالله من غضب الحليم » ، وقيل : « اتق شر الحليم إذا غضب » ، ورأى الزمخشرى أن تنكير « عذاب » فى الآية ، يفيد التقليل ، لأن الكلام لم يخل من حسن الأدب مع أبيه إذ لم يصرح بأن العذاب لاحق به ولا صق ، بل قال : « أخاف » ، وذكر أنه مس والمس أقل تمكناً من

---

(١) سورة مريم الآية ٤٥   (٢) سورة النور الآية ١٤

الإصابة ، ثم نكر العذاب وذكر « الرحمن » ولذا يكون تنكير العذاب — فى رأيه — للتقليل وليس للتعظيم والتهويل كما ذكر البلاغيون[١] ..

٤ — القصد إلى تكثيره ، كما فى قولهم : « إن له لإبلا وإن له لغنما » يريدون بذلك الكثرة ، أى : إبلا كثيرة وغنما عديدة ، ومنه قوله تعالى : (وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا : إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ)[٢] أفاد تنكير المسند إليه أنهم يريدون أجراً كثيراً ومكافأة كبيرة إن تحققت لهم الغلبة على موسى — عليه السلام — وقد أجابهم فرعون بأن لهم ما طلبوا وزيادة : (قالَ : نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)[٣] .

ومن ذلك قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها ⁂ وهمته الصغرى أجل من الدهر

أفاد تنكير « همم » التكثير والتعظيم ، أى « همم كثيرة عظيمة » ، ولذا قال : « لا منتهى لكبارها » . . « أجل من الدهر » ، فدل الأول على الكثرة ودل الثانى على التعظيم والتفخيم .. ومنه قول الآخر :

وفى السماء نجوم لا عداد لها
وليس يكسف إلا الشمس والقمر

أراد : نجوما كثيرة .. ومما أفاد التكثير والتعظيم معاً قوله تعالى : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)[٤] ، فالمقام مقام تسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — وقد أفاد تنكير « رسل » الإشارة إلى أنهم رسل عظام كثير و العدد ..

---

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٥١١
(٢) سورة الأعراف الآية ١١٣
(٣) سورة الأعراف الآية ١١٤
(٤) سورة فاطر الآية ٤

٥ — القصد إلى إفادة التقليل، كما فى قوله تعالى: (وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ)[١]، أفاد تنكير «رضوان» الإشارة إلى أن القليل من رضوان الله أكبر من كل نعيم، فالمعنى: وشىء ما من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأن رضاه سبب كل سعادة وفلاح، فالعبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر فى نفسه مما وراءه من النعيم، ولذا كان القصد من تنكير المسند إليه «رضوان» إفادة التقليل، أى: أقل قدر من رضاء الله خـــير من كل نعيم، ولا يخفى عليك ماوراء ذلك من تعظيم رضوان الله تعالى... ومن ذلك قوله تعالى: (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)[٢]، فقد أفاد تنكير المسند إليه: «سلام» التقليل، لأنه من قبل الله تعالى: والقليل منه كثير ومغن عن كل تحية، ولذا جاء معرفا فى قصة عيسى — عليه السلام — (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)[٣]، لأنه ليس واردا من جهة الله بل هو من قول عيسى — عليه السلام — ولهذا الغرض، تجد أن السلام لم يرد من جهة الله تعالى فى النظم الكريم إلا منكرا، ارجع إلى الآيات الكريمة: (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ. اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا.. سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ)..

ومما أفاد تنكيره التقليل أيضاً قوله تعالى: (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ)[٤]، فقد أفاد التنكير وبناء المرة فى «نفحة» التقليل؛ أى: نفحة قليلة ضئيلة، ولا يخفى عليك ما فى هذا اللفظ من التهكم والسخرية؛ لأن

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٢ (٢) سورة مريم الآية ١٥
(٣) سورة مريم الآية ٣٣ (٤) سورة الأنبياء الآية ٤٦

النفح يستعمل فى الخير كنفح الطيب ونفح الهواء العليل ، وقد استعملت هنا فى الشر على حد قوله تعالى : (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)(١) ، وقوله جل وعلا : (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)(٢)

٦ ـ القصد إلى إفادة أن المسند إليه من نوع خاص متميز عما يعرفه الخاطب ويألفه ويعهده ، من ذلك قوله تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)(٣) فقد أفاد تنكير ، غشاوة ، الإشارة إلى أنها نوع خاص من الغشاوة متميز عن سائر الغشاوات ، لا يعرفه الناس ، ولا يعهدونه فهو يغطى مالا يغطيه شىء من الغشاوات المعهودة ، ولا يخفى عليك ما يفيده التنكير بالإضافة إلى ذلك ـ من تعظيم وتهويل .

ومنه فى غير باب المسند إليه قوله تعالى : (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ)(٤) أى : على نوع من أنواع الحياة يكون زائدا ومميزا عن حياة الناس .. وقوله تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ)(٥) ، فالتنكير فيهما يحتمل النوعية بمعنى خلق كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء ، ويحتمل الإفراد ، أى خلق كل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف . ومما أفاد تنكير المسند إليه فيه النوعية قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)(٦) أى : حياة متميزة خاصة ، فاقت كل حياة وأربت عليها ، وقد مر بك ما أفاده التنكير فى هذه الآية أيضا من تعظيم وتفخيم لشأن تلك الحياة الخاصة .. ومن ذلك قول عبد الله بن المعتز :

ولى على إشفاق عينى من العدا ... لتجمح منى نظرة ثم أطرق

(١) سورة الدخان الآية ٤٩
(٢) سورة آل عمران الآية ٢١
(٣) سورة البقرة الآية ٧
(٤) سورة البقرة الآية ٩٦
(٥) سورة النور الآية ٤٥
(٦) سورة البقرة الآية ١٧٩

فقد أشار بتنكير النظرة إلى أنها نظرة من نوع خاص ، نظرة طائشة شرود ؛ ولذا وصفها بالجموح وأخبر أنه لا يستطيع أن يردها ويسيطر عليها إلا بعد زمن طويل ممتد ، ثم أطرق ، وذلك على الرغم من وجود الرقباء وإشفاقه منهم ، وهذا يوضح أنها نظرة متميزة تختلف عن النظرات المعهودة لدى البشر .

ومنه قول الآخر :

لكل داء دواء يستطب بـــه ‍ ‍ ‍ ‍ إلا الحماقة أعيت من يداويها

أفاد تنكير الداء والدواء النوعية وأن لكل نوع من الداءات نوعاً خاصاً من الأدوية ، يصلح لعلاجه ، فمتى اهتدى إلى ذلك النوع الخاص من الدواء وعولج به الداء شفى وبرئ صاحبه إلا داء واحدا وهو الحماقة فإنها داء أعيا الأطباء فلم يجدوا لها دواء .

٧ ـ وقد يقصد بتنكير المسند إليه : كراهة أن ينسب الفعل إليه معرفا ، ويكون ذلك فى مقامات المدح والفخر التى تقتضى المبالغة فى الصفات ...

انظر إلى قول الشاعر :

إذا سئمت مهنده يمين ‍ ‍ ‍ ‍ لطول الحمل بدله شمالا

فالمراد « بيمين » : يمين الممدوح ، ولكن الشاعر نكرها فلم يقل : « إذا سئمت مهنده يمينه » ، احترازا من نسبة السآمة فى اللفظ إلى يمين الممدوح ؛ لأن فى ذلك الإسناد جفوة ينبو عنها حس الشعر حيث يقلل من شأن المبالغة فى صفة الشجاعة التى يقتضيها مقام المدح ، ويؤخذ على الشاعر استخدامه « إذا » التى تفيد تحقق وقوع الشرط ، ولو عبر « بإن » دون « إذا » لكان أبلغ فى هذا المقام حيث تفيد « إن » ندرة وقوع الشرط كما سيأتى .

٥٥٥

توابع المسند إليه : وقد يتبع المسند إليه بتابع كالوصف والبدل والتوكيد والعطف وذلك لغرض يقصد إليه البلاغي ، وشأن المسند إليه في هذا شأن غيره من أجزاء الجملة ، كما لا يخفى عليك أن الأحوال التى ذكرناها للمسند إليه تجرى أيضا على غيره من أجزاء الكلام وإليك بيان هذه التوابع

١ـ الوصف : يوصف المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقات الفعل لدواع بلاغية كثيرة . . منها أن يكون الوصف مفسراً وكاشفاً عن معنى الموصوف كما فى قول أوس بن حجر يرثى فضالة بن كلدة :

أيتها النفس أجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا
إن الذى جمع الشجاعة والنجـ   ـدة والبر والتقى جمعا
الألمعى الذى يظن بك الظن   كأن قد رأى وقد سمعا
أودى فلا تنفع الإشاحة من   أمر لمرء يحاول البدعا

فقوله : « الألمعى » صفة كاشفة وموضحة المسند إليه « الذى جمع الشجاعة والنجدة والبر والتقى » ولذا حكى أن الأصمعى سئل عن الألمعى فأنشد تلك الأبيات ولم يزد .. واقرأ قوله تعالى : (إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً • إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً • وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)[1] . فقوله « هلوعا » حال من نائب الفاعل فهو وصف كاشف ومفسر وموضح لحقيقة الإنسان ، يقول الزمخشرى : « الهلع سرعة الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير ، من قولهم « ناقة هلوع » : سريعة السير وعن أحمد بن يحيى[2] قال لى محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع ؟ قلت : قد فسره الله تعالى . . . »[3] .

---

(١) المعارج ١٩ – ٢١ .
(٢) أحمد بن يحيى هو أبو العباس ثعلب من أئمة اللغة والنحو .
(٣) الكشاف ٤/١٥٨، وانظر الإيضاح ١/١٠٨ .

ومنها أن يكون الوصف مخصصا للموصوف ، ومعنى تخصيصه له : تحديده ورفع احتمال غيره في المعارف ، وتقليل الاشتراك في النكرات كقولك : زيد التاجر حضر ومحمد العالم ذهب . . ورجل فقير عندي وامرأة مؤمنة تزوجت . . ومنها أن يكون الوصف مشعراً بمدح كما في قوله تعالى: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، وقوله عز وجل : (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ)(١) ، وقوله جل وعلا : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)(٢) .. أو بذم كما في قوله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)(٣) .. أو بتأكيد لإظهار الفرح والسرور أو التأسف ونحو ذلك كقولك : أمس الدابر كان يوما عظيما .. ومنها أن يكون الوصف بياناً للموصوف ومحدداً المراد منه ، كما في قوله تعالى : (وَقَالَ اللَّهُ : لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)(٤) ، وذلك أن الاسم النكرة الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين : الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والذي سيق له الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه ، والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الألوهية لا الوحدانية ، وكذا إذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما الجنسية شفع بالصفة التي تبين ذلك . كما في قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)(٥) فقد شفع لفظ « دابة » « في الأرض » ولفظ « طائر » « يطير بجناحيه » لبيان أن القصد بهما إلى الجنسية لا إلى العدد . وفي ذلك زيادة لمعنى التعميم والإحاطة ، كأنه

---

(١) سورة الحشر الآية ٢٤

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٨

(٣) سورة النحل الآية ٩٨

(٤) سورة النحل الآية ٥١

(٥) سورة الأنعام الآية ٣٨

ين : وما من دابة في جميع الأرضين السبع ولا طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ... ومنها إفادة الترحم وطلب المغفرة كما في قول الشاعر :

إلهى عبدك العاصى أتاك   مقرا بالذنوب وقد دعاك

فقد وصف العبد التائب المقر بالذنوب « بالعاصى » استعطافا وطلبا للمغفرة والرحمة ...

هذا وعندما تقع الجملة صفة للنكرة يشترط فيها أن تكون خبرية ، لأنها في المعنى حكم على صاحبها كالخبر ، فلا يستقيم أن تكون إنشائية ، أما قول عبد الله بن رؤبة التميمى :

حتى إذا جن الظلام واختلط   جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط[1]

فمعناه : جاءوا بمذق يقال عند رؤيته : هل رأيت الذئب قط ؟ فالجملة الاستفهامية ليست صفة وإنما هى مقول للصفة المحذوفة كما هو واضح .

٢ — التوكيد : يؤكد المسند إليه وكذا المسند أو أحد المتعلقات ليتحقق بهذا التأكيد أغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم .. منها إبراز المؤكد وزيادة تقرير المعنى فى ذهن السامع كقولك : هو يعطى الجزيل هو يدفع الشدائد ، فتقديم المسند إليه على خبره الفعلى فى المثالين قد أفاد تأكيد المعنى وتقريره وإبراز المسند إليه لوقوعه فى ابتداء الكلام فانشغل الذهن به وتطلع إلى خبره ، وأيضا لتكرار الإسناد ، لأن الفعل أسند إلى الضمير المذكور مرتين ، مرة باعتباره مبتدأ وأخرى باعتباره فاعلا[2] .. ومنها دفع توهم التجوز ، كقولك : قطع الأمير نفسه السارق ، فلو لم تقل : « نفسه » لجاز أن يتوهم أن

(١) جن الظلام : أقبل أوله ، واختلاطه : إنما يكون بعد ذهاب نور النهار كله . والمذق : اللبن المخلوط بالماء وهو مصدر بمعنى اسم المفعول .. والشاعر يصف قوما أضافوه فأطالوا عليه ثم أتوه بهذا المذق .

(٢) ارجع إلى تقديم المسند إليه ص ١٥٩ وما بعدها .

طع غيرة بأمره على ماجرت به العادة فى ذلك .. ومنها دفع توهم السهو
الك : نجحت أنا ، وأقبل زيد زيد ، وجاءنى محمد محمد ، وقلت أنت هذا
ل ، فهذا التأكيد يدفع توهم السامع أن المتكلم سها فى إثبات الحكم
ماهوله . ومنها دفع توهم عدم الشمول كقولك : عرفنى الرجلان
ما ، وجاءنى القوم كلهم ، فإنك لو قلت : عرفنى الرجلان ، جاءنى القوم ،
نا كيد ، لتوهم أن أحد الرجلين هو الذى عرفك وأن بعض القوم قد جاء
ض لم يأت ، ولكنك لم تعتد بمن لم يعرفك ولا بمن لم يأت فأطلقت الكل
دت البعض على سبيل المجاز . فدفعاً لهـذا التوهم جاء التوكيد لإفادة
ول والعموم ، ومن ذلك قوله تعالى : (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي
ئِيلَ إلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ)[1] ، وقوله عزوجل :
قَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى)[2] ، وقوله جل وعـلا :
قَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ
مُقْتَدِرٍ)[3] ، وقوله تبارك وتعالى : (فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .
إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)[4] ولا يخفى عليك ما فى الآية
لى من إشارة إلى عظم النعمة ، حيث أحل لهم كل الطعام ، كما لا يخفى
ك ما فى الآيات الأخرى من إشارة إلى فظاعة تكذيب فرعون وقومه
كذبوا بالآيات كلها ، وإلى فظاعة استكبار إبليس اللعين ، حيث سجد
ئكة كلهم أجمعون إلا هو أبى واستكبر وكان من الكافرين ..

هذا ولفظ « كل » تارة يقع تأكيدا وذلك عندما يستخدم مع المعارف كما فى
اهد المذكورة ، ومعنى وقوعها تأكيدا أن الشمول مفاد بدونها فهى تأتى
كيده ودفع توهم غيره - كما رأيت - ، وتارة تقع تأسيسا وذلك عند إضافتها
لنكرات كما فى قوله تعالى : (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٣ . (٢) سورة طه آية ٥٦
(٣) سورة القمر آيتا ٤١ ، ٤٢ . (٤) سورة الحجر آيتا ٣٠ ، ٣١ .

بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)(١)، وقوله عز وجل : (وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً)(٢)، وقوله جل وعلا : (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)(٣)، ومعنى وقوعها تأسيساً أنها هي التي تفيد الشمول وتؤسسه، فهو لا يفاد أصلا إلا بها، وهذا واضح في الآيات الكريمة، إذ بدون «كل» لا تجد فيها شمولا . .

٣ - عطف البيان : ويقصد البلاغي إلى عطف البيان لأغراض بلاغية أهمها : إيضاح المعطوف عليه باسم مختص به كقولك : قدم صديقك خالد ، فخالد عطف بيان للصديق وقد وضحه وبينه ، لأن المخاطب له أصدقاء كثيرون، فعندما تقول له : جاء صديقك ، لا يدري أيهم ، وعندما تقول : خالد ، فقد وضحت وبينت ، إذ حصرت المجيء في خالد دون غيره من الأصدقاء .

وقد يكون عطف البيان غير مختص بمتبوعه ولكن يحصل الإيضاح والاختصاص بمجموعهما ، كما في قول الشاعر :

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرِ يمسحها ... ركبانُ مكة بين الغيل والسَّنَد
ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه ... إذن فلا رفعت سوطاً إليَّ يدي(٤)

والمعنى : والله الذي آمن الطير الملتجئة للحرم والساكنة به للأمن من

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥٣ (٢) سورة الإسراء آية ١٢ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٩٦

(٤) والمؤمن : الواو للقسم والمراد بالمؤمن : الله جل جلاله . والعائذات : جمع عائذة من العوذ وهو الالتجاء وترب مفعولا به للمؤمن أو مضافا إليه . . والطير : عطف بيان على العائذات . . والغيل : بفتح الغين وسكون الياء ، والسند بفتح السين والنون : موضعان في جانب الحرم فيهما الماء . . وجواب القسم قوله : « ما إن أتيت بشيء » . وإن فيه : زائدة للتأكيد .

الاصطياد والأخذ ، وقد حصل لها ذلك ، إذ لا يجوز لأحد أخذها ، بل الركبان قاصدون مكة المارون بين الغيل والسند تمسحها ولا تتعرض لها .. فالطير عطف بيان للعائذات وهو غير مختص بها ؛ لأن العائذات صادق على الطير وعلى غيره مما يعوذ بالحرم ويؤمنه الله سبحانه وتعالى فيه . . . وعند التأمل نجد أن عطف البيان في المثال الأول غير مختص أيضاً بمتبوعه ، لأن الصداقة تطلق على خالد وعلى غيره .. ولذا فالمهم أن يكون عطف البيان أخص من متبوعه حتى يتحدد ويتضح ذلك المتبوع في ذهن السامع عندما ينصرف إلى تابعه .. ومنها مدح المتبوع والدلالة على عظم شأنه كما في قوله تعالى : (جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ)(١) فالبيت الحرام عطف بيان للكعبة قصد به المدح والدلالة على عظم شأنها لا الإيضاح ، لأن الكعبة أظهر من نار على علم ، فليست في حاجة إلى إيضاح وبيان ، وكان البيت الحرام مدحاً وتعظيما ؛ لأن فيه دلالة على أن هذا البيت موصوف بالحرمة والاحترام والمنع من كل امتهان وانتهاك .. ومنها ذم المتبوع والدلالة على حقارته ، كما في قوله تعالى : (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ)(٢) ، فالصديد بيان الماء قصد به الذم والدلالة على حقارته وامتهانه وقبحه .. وذلك حتى ينزجر ذلك الجبار ويقلع عن عناده .

٤ — البدل : ويقع الإبدال من المسند إليه أو المسند أو أحد المتعلقات لأغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم ويقتضيها المقام ، أهمها : زيادة التقرير والإيضاح كقولك : جاء زيد أخوك ، فأخوك بدل من زيد وقد دل على تقريره وإبرازه ، لأن مفهومه هو مفهوم زيد ومنه قوله تعالى : (اهْـــدِنَا

---

(١) سورة المائدة ٩٧ .
(٢) سورة إبراهيم ١٥ - ١٧ .

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)(١) فصراط الذين أنعمت عليهم ، بدل من الصراط المستقيم وفيه بيان وإيضاح وزيادة تقرير لكون الصراط المستقيم هو صراط المنعم عليهم بالإيمان والرضوان . . . ومنها التفصيل بعد الإجمال والإيضاح بعد الإبهام ، كما فى قوله تعالى : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً • يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً)(٢) فقوله : « يلق أثاما » فيه إجمال للعقاب وقوله بعده : « يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا » بدل من القول الأول وفيه تفصيل وإيضاح لما أجمل فيه ، ولا يخفى عليك ما للبيان والتفصيل بعد الإجمال من وقع فى النفس ، لأنه عند الإجمال تتطلع النفس وتستشرف إلى التفصيل ، فعندما يأتى التفصيل يكون له وقعه وأثره ، حيث أتى والنفس إليه متطلعة وله مترقبة .

ومنه قول الشاعر :

وكنت كذى رجلين : رجل صحيحة
ورجل رمى فيها الزمان فشلت

فى قوله : « ذى رجلين » إبهام وإجمال أزاله ووضحه البدل فى قوله : « رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت . . . » .

ومثله قول الآخر :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ۞ وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فى قوله : « بلغنا » إجمال وقد جاء البدل : « مجدنا وسناؤنا » مفصلا وموضحا لهذا الإجمال . . ولا يخفى عليك أن البدل فى البيت الأخير ، بدل اشتمال وفى الشواهد السابقة بدل مطابق .

---

(١) سورة الفاتحة آية ٦ ، ٧ (٢) سورة الفرقان آية ٦٨ ، ٦٩ .

ومن بدل الاشتمال أيضا قولك : سلب عمرو ثوبه . . وأعجبنى المعلم علمه . . والغرض البلاغى من البدل فى المثالين هو الإيضاح والتفصيل بعد الإبهام والإجمال ، لأن قولك : سلب عمرو ، وأعجبنى المعلم . . فيه إبهام وإجمال يظل معه المخاطب متعلقا إلى إيضاحه ومستشرفا إلى تفصيله وعندئذ يأتى البدل : « ثوبه وعلمه » ، موضحا ومبينا فيقع المعنى فى النفس موقعاً حسناً ويثبت فيها ويرسخ . . ومن بدل البعض قولك : جاءنى القوم أكثرهم ، وفيه كما ترى ، زيادة إيضاح وتقرير ، وبيان لما فى المسند إليه « القوم » من إجمال . . ومن الأغراض البلاغية للبدل ، القصد إلى المبالغة والتفنن فى بناء العبارات ، ويكثر هذا فى بدل الغلط كما فى قول البحترى :

المع برق سرى أم ضـــوء مصباح
أم ابتسامتها بالمنظر الضــاحى

حيث أراد المبالغة فى وصف الابتسامة ومدى وقعها عليه فتفنن فى العبارة كما ترى . . وقوله أيضاً فى وصف الإبل الأنضاء :

كالقسى المعطفات بل الأسـ   ـهم مبرية بل الأوتار

فقد قصد إلى المبالغة فى وصف الإبل المهازيل فتفنن فى التشبيه مترقيا عن طريق الإضراب من الدقيق إلى الأدق .

وبهذا يتضح لك أن نظرة البلاغى للتوابع تختلف عن نظرة النحوى فالبلاغى ينظر إلى ما وراءها من دقائق وأغراض ومزايا جمالية ، أما النحوى فينظر إلى أحكامها وكيفية استعمالها فى الـكلام . ولذا نجـــد النحوى مثلا يسوى بين البدل المطابق وعطف البيان فيجعلهما شيئاً واحداً ، وليس الأمر كذلك عند البلاغى ، بل هما مختلفان ولكل منهما مقامات خاصة به ومقاصد يقصد إليها على نحو ما رأيت فى الشواهد . .

٥ - عطف النسق : يستخـدم البلاغى عطف النسق ليحقق أغراضا بلاغية ومقاصد يقصد إليها ، وهذه الأغراض تراها كامنة وراء حروف العطف ، وهى : الواو وثم والفاء ولا وبل ولكن وحتى وأو ، وما بين تلك الحروف من فروق دقيقة ، فالواو لمطلق الجمع ، والفاء للترتيب مع التعقيب و « ثم » للترتيب مع التراخى وبل للإضراب وصرف الحكم عن محكوم له إلى آخر ، و « لا » للعطف ونفى الحكم عما بعدها و « لكن » عكس لا ، وحتى للتـدرج إلى الأعلى أو إلى الأدنى ، وأو « للتخيير أو الإباحة أو للشك أو للتشكيك . . والبلاغى يستغـل تلك المعانى - كما قلت - ليحقق أغراضا بلاغية يهدف إليها ، تقول مثلا : جاءنى زيد وعمرو وخالد ، فتفيد تفصيل المسند إليه مع الإيجاز ، حيث أفادت الواو اشتراك زيد وعمرو وخالد فى المجىء فتفصلت المسند إليه وأغنت عن قولك : جاءنى زيد وجاءنى خالد وجاءنى عمرو ، وهذا هو وجه الإيجاز فى المثال . . وتأمل قوله تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)[1] تجد أن فرعون وهامان قد ذكرا منفصلين معطوفا أحدهما على الآخر ثم عطف عليهما بقية القوم إجمالا ، و « جنودهما » وذلك لغرض بلاغى وهو أن فرعون وهامان كانا السبب فى الخطيئة دون جنودهما . . وتقول : جاء زيد فعمرو فتفيـد تفصيل المسند « المجىء » مع الإيجاز والإنباء بالتعقيب . إذ المراد : جاء زيد ، وجاء عمرو بعده مباشرة ، وتقول : جاء زيد ثم عمرو فتومىء إلى ما بين المجيئين من تراخ بالإضافة إلى إفادة التفصيل والإيجاز . . وكذا تقول : اشتدت العاصفة ثم هدأت مشيراً بالحرف « ثم » إلى امتدادها وأنها لم تسكن إلا بعد زمن طويل . . وقد تريد التدرج بالمعانى علوا أو دنوا فتستعمل « حتى » فى عطف تلك المعانى ... انظر إلى قول الشاعر :

---

(١) سورة القصص الآية ٨

قهرناكم حتى الكماة فأنتم تهابوننا حتى بنينا الأصاغرا[1]

حيث ارتفع بقهرهم إلى أعلاهم : « حتى الكماة » ثم انخفض بهيبتهم إلى مالا يخيف : « حتى بنينا الأصاغر » ، وهذا معنى جميل ونموذج رائع ، إذ بدأ بالأدنى مرتفعا بالقهر ثم انحدر بالإخافة منتهيا إلى أدنى ما يمكن أن يخيف ..
وقد يلجأ البلاغي إلى عطف النسق ليرد السامع عن الخطأ فى الحكم إلى الصواب بأخصر طريق فيقول مثلا : جاء زيد لا عمرو ، لمن اعتقد أنهما جاءا معاً أو أن الذي جاء عمرو دون زيد .. وكذا تقول: ماجاء زيد لكن عمرو وماجاء زيد بل عمرو لمن اعتقد مجيئهما معا أو مجيء زيد دون عمرو .. وقد يراد بالعطف التشكيك كما فى قول الشاعر :

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسى تقاها أو عليها فجورها

فقد عطف « بأو » ليشكك السامع وعندئذ ينظر فى أمره ويتأمل حتى يصل إلى الخبر اليقين ويعرف أفاجر الشاعر أم تقى .

وقد يراد به الإبهام استمالة للمخاطب، وترغيبا له فى الحق والاهتداء ، كما فى قوله تعالى : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[2]
ومنه قول الشاعر :

نحن أو أنتم الأولى ألفوا الحق فبعداً للمبطلين وسحقا

فقد استخدمت « أو » الإبهام حتى لايواجه الضال بضلاله فيكون فى هذا تنفير له من قبول الحق والهداية .

وبهذا يتضح لك أن البلاغى يجد فى معانى حروف العطف وسائل لتحقيق مآربه وإبراز أهدافه البلاغية السامية ، التى يهدف إليها ويقصد .

---

(١) الكماة : جمع كمى وهو الفارس المقدام .
(٢) سورة سبأ الآية ٢٤

تعقيب المسند إليه بضمير الفصل : وقد يعقب المسند إليه بضمير الفصل فيفيد ذلك القصر، أي قصر المسند على المسند إليه. كقولك : زيد هو المنطلق وخالد هو الذي يجود بماله ، ومنه قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)(١) ، فالمعنى لا يقبل التوبة عن عباده إلا الله . . أو قصر المسند إليه على المسند ، كقولك : الكرم هو التقوى ، والحسب هو المال ، أي : لا كرم إلا بالتقوى ، ولا حسب إلا بالمال .. وقد يكون ضمير الفصل لمجرد التوكيد ، وذلك إذا كان القصر مفادا بغيره بأن تكون الجملة معرفة الطرفين مثلا ، كما في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)(٢) ، وقوله عز وجل : (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ)(٣) ، وقوله جل وعلا : (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)(٤) . . وسيتضح لك هذا عند دراستك لأسلوب القصر وطرقه في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

تقديم المسند إليه : اهتم البلاغيون في دراستهم لتقديم المسند إليه بدراسة تقديمه على الخبر الفعلي في النفي أو في الإثبات نحو : ما أنا فعلت هذا ، وأنا مافعلت هذا ، وأنا فعلت . . كما اهتموا بدراسة تقديم النكرة ، ومثل وغير ، وألفاظ العموم نحو : كل وجميع ، ولعل اهتمام البلاغيين بدراسة هذه الأمور وإبرازها ، يرجع إلى ما يكمن وراءها من دقائق وأسرار ينبغي على الدارس الوقوف عليها والإحاطة بها . . وإليك بيان ذلك :

تقديم المسند إليه في النفي : إذا تقدم المسند إليه فولى أداة النفي مثل : ما أنا فعلت . . ما محمد صنع هذا ، أفاد التقديم عندئذ « الاختصاص » ، لأن

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٤
(٢) سورة الذاريات الآية ٥٨
(٣) سورة المائدة الآية ١١٧
(٤) سورة الحشر الآية ٢٠

مثل هذا التعبير : « ما أنا فعلت .. ما أنت قلت .. ماهو بجود بمال .. ما محمد صنع » .. يفيد - كما قال عبد القاهر - ثلاثة أمور :

١ - نفى الفعل عن المسند إليه المقدم .

٢ - إثبات نفس الفعل المنفى .

٣ - وجود فاعل آخر غير المسند إليه المقدم قد فعل هذا الفعل .

فعندما تقول : ما أنا قلت هذا الشعر .. ما أنا بنيت هذه الدار .. فأنت تنفي عن نفسك قول هذا الشعر ، وبناء تلك الدار ، وتثبتهما لفاعل آخر غيرك ، ولذا كان من الخطأ أن تقول : ما أنا قلت هذا الشعر ولا قاله أحد .. ما أنا بنيت هذه الدار ولا غيرى . ما محمد صنع هذا الشيء ولا غيره .. لأن صدر الجملة أفاد بتقديمك المسند إليه ، أن الفعل قد انتفى عنه وأثبت لغيره ، وعجزها أفاد نفى الفعل المذكور عن الغير وهذا تناقض وتدافع ، إذ كيف تثبت الفعل للغير وتنفيه عنه فى آن واحد .. إن العطف فى الأمثلة المذكورة قد جعل الفعل يقع بغير فاعل وهذا محال ، فالصواب أن يقال : ما أنا قلت هذا الشعر بل قاله غيرى .. ما أنا بنيت هذه الدار بل بناها أحد غيرى .. ما محمد صنع هذا الشيء بل صنعه غيره .

فإن قلت : ألا يجوز أن تقول : ماقلت هذا ولا قاله أحد غيرى .. ؟ مابنيت هذه الدار ولا بناها غيرى .. ؟ ماصنع محمد هذا الشيء ولا صنعه أحد غيره .. ؟ فالجواب : يمنع من هذه الأقوال اسم الإشارة المذكور ؛ لأنك تشير به إلى معين قد وجد وفعل ، تشير إلى الشعر مقولا « هذا الشعر » وإلى الدار مبنية : « هذه الدار » وإلى الشيء مصنوعا : « هذا الشيء » ولا يتأتى أن يكون المشار إليه ، الموجود أمامك ، لم يفعله أحد لا أنت ولا غيرك ، اللهم إلا إذا قيل : إن اسم الإشارة ، لم يشر به إلى شيء محقق مرئى ، بل أشير به إلى معنى فى ذهن المخاطب .. إلى دعوى قد ادعاها .. وكأنه قد ادعى أن شعرا قيل

وأن دارا بنيت وأن شيئا قد صنع ، فأنت تقول : هذا ، مشيرا إلى ما تدعاه وقاله ، لا إلى شيء مشاهد أمامكما وكذلك تقول له : إن ما ادعيته لم يفعل لا منى ولا من غيرى ، فأنت فى دعواك واهم . وهـــذا الذى فى ذهنك لا وجود له مطلقا ، إن أردت ذلك فما سألت عنه جائز ولك أن تقوله .

ومن الخطأ أيضا أن تقول : ما أنا أكلت اليوم شيئاً . ما أنا قلت شعرا قط فتجعل المنفى هكذا عاماً . لأنه يقتضى المحال وهو أن يكون ههنا إنسان غيرك قد قال كل شعر فى الدنيا وأكل كل شيء يؤكل . ولكن الصواب فى مثل هذا أن تقول : ما أكلت اليوم شيئا . . ماقلت شعرا قط ، لأن قولك « مافعلت » ، لايفيد سوى نفى الفعل عنك فقط ، دون تعرض للغير لا بنفى عنه ولا بإثبات له . ومن الخطأ كذلك قولك: ما أنا ضربت إلا زيدا ، لأن معناه : ما أنا ضربت أحداً إلا زيدا ، وهذا يقتضى أن يكون هناك أحد غيرك قد ضرب جميع الناس ماعدا زيدا وهذا محال .. فالصواب فى مثل هذا أن يقال : ما ضربت إلا زيداً .

ومما جرى على هذا الأسلوب فى إفادة الاختصاص من التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة ، قول المتنبي :

وما أنا أسقمت جسمى بـــه ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

فالمعنى : هذا السقم الحاصل فى جسدى وتلك النيران المشتعلة فى فؤادى ، لم أفعلهما أنا ، بل فعلهما غيرى ، ووراء هذا التركيب معنى لطيف هو عجز الشاعر أمام عواطفه المشبوبة التى أضنته وكأنه يقول : لو كان الأمر بيدى لأنقذت نفسى ، ولـكن لا طاقة لى بذلك .. ومثله قوله أيضا :

وما أنا وحـدى قلت ذا الشعر كله
ولـكن لشعرى فيك من نفسه شعر

فهو ينفى أن يكون هذا الشعر الكائن قد قاله هو وحده وإنما قاله معه

غيره ، وهذا الغير هو الشعر نفسه لأنه شعر شاعر .. وتلاحظ أن المسند فى كل ما ذكر من شواهد وأمثلة فعل ، فهل تلك الإفادة ، إفادة تقديم المسند إليه بعد النفى للقصر ، قاصرة على الخبر الفعلى ؟ قال بهذا بعض البلاغيين ، وقال آخرون : هى ليست قاصرة على الخبر الفعلى . بل تتعداه إلى غيره ، وأن قولك : ما أنا ضارب زيدا . وما محمد بجاحد نعمة ربه . يفيد الاختصاص كما يفيده قولك : ما أنا ضربت . وما محمد جحد نعمة ربه .

والذى أراه أن السياق هو الذى يحدد الإفادة . . ففى قوله تعالى : (قَالُوا : يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ)(١) ، فقوله تعالى : « وما أنت علينا بعزيز » أفاد الاختصاص بمعنى : نفى العزة عن شعيب وإثباتها لرهطه ، ولذا قال ـ عليه السلام ـ فى جوابهم منكراً ذلك منهم : « أرهطى أعز عليكم من الله » . . . ومثله قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)(٢) فالخروج من النار منفى عن المسند إليه المقدم ، هم ، العائد إلى الكفار الذين تبرأ بعضهم من بعض ، ومثبت لغيرهم وهم عصاة المؤمنين لأن المؤمن العاصى لا يخلد فى النار .. أما قوله عز من قائل : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ)(٣) ، وقوله عز وجل : (مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)(٤) ، وقوله تعالى : (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ)(٥) ، فواضح أن

---

(١) سورة هود ٩١
(٢) سورة البقرة ١٦٧
(٣) سورة البقرة ٨
(٤) سورة إبراهيم ٢٢ .
(٥) سورة الطور ٢٩

تقديم المسند إليه : «وما هم بمؤمنين، «ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى» «فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون» ، لا يفيد الاختصاص ، بل يفيد فقط تأكيد نفى المسند عن المسند إليه المقدم . ولهذا ينبغى علينا ألا نغفل دور السياق وأثره فى تحديد الإفادة فى مثل هذه الأساليب وأن ننظر إليها فى سياقها ، فنحكم بما السياق ويقضى فهو ذاك .. كما أنه ينبغى أن تبنى الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب ولا تبنى على القطع والإطلاق ، لأننا عندما نتأمل التراكيب الجيدة نرى أن ما قطع البلاغيون بإفادته للقصر وهو تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى بعد النفى نحو : ما أنا فعلت ، نراه متخرما وقابلا للرد ، انظر إلى قوله تعالى : (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ . بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ)[1] نجد أن قوله «ولا هم ينصرون» ، قد أفاد الاختصاص ، إذ النصر فى هذا اليوم منفى عن الكفرة مثبت لغيرهم وهم المؤمنون فالله عز وجل ينصرهم فى ذلك اليوم ويتجلى عليهم بنعمة ، وهذا يتفق مع ما قاله البلاغيون . . أما قوله تعالى : «ولا هم ينظرون» فالتقديم فيه يفيد التأكيد وتقوية الحكم ، ولا يفيد الاختصاص ، لأنه لا أحد ينظر حين تأتيه الساعة . وهذا يتعارض مع ما قاله البلاغيون . ولذا القول ينبغى أن تبنى الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب ، لا على القطع والإطلاق[2] .

فإذا قدم المسند إليه على أداة النفى نحو : أنا ما فعلت وأنت ما قلت ومحمد لا يصنع هذا والمؤمن لا يرضى الضيم ، أفاد هذا التقديم إما الاختصاص وإما التوكيد وتقوية الحكم .. والسياق هو الذى يحدد المراد ، انظر إلى قوله عز وجل : (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[3] . وقوله

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) انظر خصائص التراكيب ١٧٩ . (٣) سورة يس الآية ٧ .

تعالى : (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ)[١] وقوله جل وعلا : (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[٢] تجد أن التقديم فى هذه الآيات الكريمة قد أفاد من التأكيد وتقوية الحكم مالا يفيده تأخير المسند إليه ، وتأمل قولك : « فلا يؤمنون » وما عليه النظم الكريم « فهم لا يؤمنون » ، فستدرك ماقد أفاده تقديم المسند إليه فى النظم القرآنى من تأكيد نفى الإيمان عن هؤلاء . . وقد يفاد بهذا التقديم القصر كقولك : أنا لا أقبل الظلم . . المؤمن لا يسعى فى الشر ، إذا كنت تريد نفى الفعل عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره .

تقديم المسند إليه فى الإثبات : وتقديم المسند إليه فى الإثبات يفيد كذلك أحد الأمرين المذكورين، إما التأكيد وتقوية الحكم وإما الاختصاص، حسبما يحدد السياق وقرائن الأحوال ، فقولك . محمد يفعل الخير ، صالح لإفادة التأكيد فهو آكد من قولك : يفعل محمد الخير وصالح لإفادة الاختصاص ، إذا كنت تريد أن فعل الخير مقصور على محمد المقدم ومنفى عن غيره . . وتقول : أنا فعلت كذا . . أنا أطعم الفقير . . تريد أنك وحدك تفعل هذا أو أنك تفعله دون فلان ، فيكون التقديم مفيدا للقصر الحقيقى أو القصر الإضافى . واقرأ قوله تعالى : (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)[٣] ، وقوله عز وجل : (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)[٤] . وقوله جل وعلا : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا

---

(١) سورة القصص الآية ٦٦ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٢٢ .
(٣) سورة التوبة الآية ١٠١ .
(٤) سورة هود الآية ٦١ .

مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)[١]. وقوله عز من قائل (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً)[٢]. واقرأ فى سورة النحل : (وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ... وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ... وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ... وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ... وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً .. وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً ... وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً)[٣] . تجد أن الفعل مختص بالمسند إليه المقدم وهو لفظ الجلالة أو الضمير العائد إليه ، فالتقديم فى الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص — كما لا يخفى — وعندما يفيد التقديم الاختصاص فهو يفيد التوكيد لا محالة ، لأن الاختصاص يستلزم التوكيد .. ومن ذلك المثل المشهور : « أنا أعلمنى بشب أنا حرشته » ، أى : صدته فالتقديم فيه أفاد الاختصاص ، لأن المراد : أنا حرشته وحده دون غيره فهو عليم به وخبير وإذا أنكر أن يعلمه به أحد .

ومما أفاد التقديم فيه التأكيد وتقوية الحكم دون الاختصاص قوله تعالى (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[٤] فقوله : « وهم يخلقون » ، أفاد التقديم فيه تأكيد خلقهم فهم من مخلوقات الله تعالى والمخلوق لا يعبد ولا يستطيع أن يخلق شيئا وفيه ما فيه من تسفيه أحلام الكفرة الذين دعوا هؤلاء من دون الله . . ولا يفيد التقديم فى الآية الكريمة اختصاصاً ، لأن الخالق ليس مقصورا عليهم ، فالله تعالى يخلقهم ويخلق غيرهم .

---

(١) سورة الزمر ٢٣ — (٢) سورة الإنسان ٢٣ .

(٣) سورة النحل ٦٥ — ٨١ — (٤) سورة النحل ٢٠

وقد علل البلاغيون سر إفادة تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى للتأكيد وتقوية الحكم ، فقال عبدالقاهر : «فإن قلت : فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل آكد لإثبات ذلك الفعل له ، وأن يكون قوله: «هما يلبسان المجد» أبلغ فى جعلهما يلبسانه من أن يقال: يلبسان المجد؟ . . فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه ، وإذا كان كذلك فإذا قلت : عبد الله ، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا : قام أو قلت : خرج أو قلت : قدم ، فقد علم ماجئت به ، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المتهيء له المطمئن إليه وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل فى التحقيق . . وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له ؛ لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام فى التأكيد والإحكام ، ومن ههنا قالوا : إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار . . »(١) .

وعلله السكاكى بتكرار الإسناد فى مثل قولهم : «هم يضربون الكبش يبرق بيضه» قد أسند الضرب إليهم مرتين ، مرة إلى واو الجماعة فى «يضربون» والثانية فى إسناد جملة : «يضربون» إلى الضمير «هم» الذى هو المسند إليه المقدم ، فهذا التكرار للإسناد هو منشأ التوكيد وتقوية الحكم ودفع الشك عند السكاكى(٢) .

وقد ذكر عبد القاهر المقامات التى تقتضى التأكيد وتقوية الحكم والتى ينبغى أن يقدم فيها المسند إليه على خبره الفعلى وهى :

---

(١) دلائل الإعجاز ١٥٩ .

(٢) انظر مفتاح العلوم ٩٣ .

١ — ماسيق فيه إنكار من منكر كقولهم : هو يعلم ذلك وإن أنكره ، وهو يعلم أن الكذب فيما قال وإن حلف عليه ، ومن ذلك قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[١] أى يعلمون كذبهم ، فهم ينكرون الكذب ، وينكرون أيضا علمهم بكذبهم ؛ لأن الكاذب لا يعترف بكذبه وإذا لم يعترف بكذبه ، كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب .. ومعلوم أن الإنكار يقتضى توكيد الحكم ، ومن أجل ذلك قدم المسند إليه .

٢ — مقام التكذيب وإبطال دعوى مدع : كما فى قوله تعالى : (وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)[٢] فقولهم : « آمنا » دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به ، فالمقام مقام تكذيب يقتضى التأكيد إبطالا لما ادعوه ، ولذا قدم المسند إليه « وهم قد خرجوا به » .

٣ — فيما القياس فى مثله ألا يكون ، كما فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[٣] ، وقوله جل وعلا : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[٤] وذلك أن عبادتهم لتلك الآلهة تقتضى أن تكون خالقة لا مخلوقة ؛ لأن من شأن المعبود أن يكون خالقا ، وهم وإن كانوا لا ينكرون أنها مخلوقة ، إلا أنهم نزلوا منزلة من ينكر ذلك ، فأكد لهم الكلام ، تنبيها إلى خطئهم وضلالهم .

٤ — أن يكون الخبر غريبا لوقوعه على خلاف العادة ، كقولك : البقرة تكلمت .. الجبان يصارع الأسود .. ونحو ذلك .

---

(١) سورة آل عمران آية ٧٥ .
(٢) سورة المائدة آية ٦١
(٣) سورة النحل آية ٢٠ .
(٤) سورة الفرقان آية ٣

٥ — فى مقام الوعد والضمان ، كقولك للفقير : أنا أعطيك وأكفيك . أنا أقوم بهذا الأمر ، وذلك لأن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه شك فى تمام الوعد وفى الوفاء به فهو أحوج إلى التوكيد .

٦ - يكثر فى مقام المدح والفخر، كقولك : هو يعطى الجزيل .. وأنت تقرى الضيف .. ومنه قول الشاعر :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى   لاترى الآدب منا ينتقر(١)

وقول الآخر :

هم يضربون الكبش يبرق بيضه   على وجهه من الدماء سبائب(٢)

وقوله :

هُم يفرشون اللِّبدَ كل طمرَّةٍ   وأجرد سباح يبذ المغاليا(٣)

وقوله :

هما يلبسان المجد أحسن لبسة   شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

وإنما احتاج المدح والفخر إلى التوكيد ؛ لأن من شأن المادح والمفتخر أن يلقيا الخبر مؤكدا كما امتلأت به أنفسهما وأن يمنعا السامعين من الشك فيه والارتياب(٤) .

---

(١) المشتاة : زمن الشتاء أو مكانه . والجفلى : الدعوة العامة لايخص بها أحد . والآدب . الداعى إلى الطعام .. وينتقر : يدعو النقرى وهى بالدعوة الخاصة .

(٢) الكبش : رئيس القوم، والبيض : مفردها بيضة وهى الخوذة . والسبائب : الطرائق .

(٣) اللبد : المتلبد من الصوف أو الشعر . والطمرة : الفرس الكريمة وللذكر طمر . والأجرد : القصير الشعر . والسباح : الذى يشبه سيره السباحة فى اليمين واليسر ويبذ : يغلب . والمغاليا : المبالغ فى عدوه .

(٤) انظر دلائل الإعجاز ١٦٠ ، ١٦١

واقرأ قوله تعالى : (وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)[١] ، تجد التقديم فى قوله : « فهى تملى » قد أكد الخبر وأنبأ بما فى أنفس الكفرة ورغبتهم فى أن يلقى الخبر مؤكدا وأن تقرع به الأسماع قويا فيثبت فيها ويقر ، ولا يكون هنالك مجال للشك فيما يخبرون والارتياب فيما يصفون ، بل تمتلىء به أنفس السامعين ويرسخ بها كما امتلأت به أنفس الكفرة . . وخذ قوله تعالى :(إن وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)[٢] وتأمل قوله : « وهو يتولى الصالحين » ، وكيف أفاد تقديم المسند إليه قوة إيمان المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وكمال ثقته بربه ، حيث جاء الخبر قويا مؤكداً ، قد امتلأت به نفسه - عليه الصلاة والسلام - فلا شك - ولا ارتياب فى نصر الله تعالى وتوليه له . وانظر إلى قوله عز وجل : (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)[٣] وقف على معنى كلمة : « يوزعون » ، إذ معناها : يحبس أولهم على آخرهم بإيقاف أولهم حتى يلحق به آخرهم ، هذا خبر غريب جرى على خلاف ما تقضى به العادة، إنس وجن وطير على هيئة من الإيزاع والتداخل . قد ضج بهم المكان واضطرب ، فغرابة هذا الخبر تقتضى تأكيده حتى تأنس به النفوس ويتقرر لديها ، ولو قيل : « يوزعون » هكذا مرسلا بلا تأكيد ، لما كان التركيب ملائما لحال النفس المتلقية[٤] .

ولذا رأينا عبد القاهر يقول فى مثل هذه الآيات الكريمة : « ومما هو بهذه المنزلة فى أنك تجد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم قوله تعالى : (إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى

---

(١) سورة الفرقان آية ٥ (٢) سورة الأعراف آية ١٩٦

(٣) سورة النمل آية ١٧ .

(٤) انظر خصائص التراكيب ١٧٤ ، ١٧٥ .

الصَّالِحِينَ) وقوله تعالى : (وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) ، وقوله تعالى : (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) ، فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غير مبني على الاسم فقيـــل : إن وليي الله الذي نزل الكتاب ويتولى الصالحين ، واكتتبها فتملى عليه ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون : لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها »(١)

ونبو اللفظ عن المعنى عندئذ مرجعه إلى خلو التركيب من التوكيد الذي اقتضاه المقام على نحو ما بينت لك .

تقديم النكرة : إذا كان المسند إليه نكرة وقدمت على الخبر الفعلي فإن تقديمها لا يختلف في الدلالة عن تقديم المعرفة سوى أن النكرة قد يراد بها الجنس وقد يراد بها العدد ، فأنت تنظر في إفادة تقديم النكرة للاختصاص أو للتأكيد إلى أحد هذين الأمرين : الجنس أو العدد ، فتعتبر التخصيص أو التأكيد لأحدهما ، حسبما يقتضيه المقام ويحـــدده السياق وقرائن الأحوال فإذا قلت : ما رجل جاءني ، فالمراد نفي المجيء عن الرجل وإثباته لغيره ، وهذا الغير إما : امرأة وإما : رجلان أو أكثر حسبما يقتضيه المقام . فإن كان المخاطب يعتقد أن الذي جاء رجل وقد أتتك امرأة ، فالمراد عندئذ : ما رجل جاءني بل امرأة وإن كان يعتقد أن من جاءك رجل واحد وقد جاءك أكثر من رجل ، كان المراد ما رجل جاءني بل رجلان أو ثلاثة أو أربعة حسب العدد الذي قد حل بك ونزل عندك . وإذا قلت : رجل جاء ، فالمراد إما التأكيد وتقوية الحكم ، وإما التخصيص حسبما يقتضي المقام . فإن كان مخاطبك ينكر المجيء ويجحده أو يشك فيه أو يستبعده . فالمقام عندئذ يستدعي

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٦٣ .

التأكيد ويتطلب التقوية ، وعندما تقول له : رجل جاء وتقدم المسند إليه النكرة ، فأنت تؤكد له الخبر ليقر فى ذهنه ويثبت .. أما إن كان يعتقد أن الذى جاء امرأة ، أو أكثر من رجل . فالمراد بالتقديم عندئذ تخصيص الجنس فى الأول وتخصيص العدد فى الثانى ، أى : رجل جاء لا امرأة .. ورجل جاء لا رجلان .. فإذا لم ترد لا تأكيدا ولا تخصيصا قلت : جاء رجل بدون تقديم .. وكذا القول فى نحو قولك « رجل ما جاءنى » ، على حسب ما مر بك فى تقديم المعرفة .

تقديم « مثل » و « غير » : مثل وغير يلزم تقديمهما إذا أريد بهما الكناية عما أضيفتا إليه بدون تعريض ، كما فى قولنا : مثلك يرعى الود .. مثلك يعطى الجزيل .. غيرك لا يجود ، نريد بذلك الكناية عن الممدوح دون أن نعرض بشخص آخر ، فالمراد : أنت ترعى الود ، وأنت تعطى الجزيل ، وأنت تجود ، استعملت « مثل وغير » مكنى بهما عما أضيفتا إليه دون تعريض بغيره أو إيماء إلى أن هذا الغير لا يفعل مثلما يفعل المتحدث عنه .. وتقديم « مثل وغير » إنما يكون لازما عندئذ ، لأن الكناية أبلغ من التصريح وآكد فهى كدعوى الشىء بدليل وبينة والدعوى المشفوعة بالبينة ، والمصحوبة بالدليل أقوى وآكد من الدعوى المرسلة ، الخالية من الدليل ، العارية من البينة .. فلما كان الغرض هو التأكيد والتقوية لزم أن تقدم « مثل وغير » ، لأن تقديمهما مما يحقق التأكيد ويفيد التقوية .. ولزوم التقديم إنما هو لزوم بلاغى مرجعه إلى استعمال العرب وإلى كون التقديم أعون على تحقيق الغرض المقصود .. ولذا ذكر عبد القاهر أن هذا التقديم كاللازم حيث يقول : « ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم « مثل وغير » ، فى نحو قوله :

مثلك يثنى المزن عن صوبه ‏ ‏ ‏ ويسترد الدمع عن غربه(١)

---

(١) المزن : السحاب وصوبه : انسكابه وغرب الدمع : انهماله من العين .

وقول الناس : مثلك رعى الحق والحرمة ، وكقول الذى قال له الحجاج لأحملنك على الأدهم ، يريد القيد ، فقال على سبيل المغالطة : « مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب »(١)

فقد كنى المتنبي فى البيت المذكور عن الممدوح وهو عضد الدولة وقد كان يعزيه فى فقد عمته ، كنى عنه بقوله : « مثلك » ، ولم يرد « بمثل » شخصا آخر مماثلا له ، وقد صرح بهذا فى نفس القصيدة إذ قال :

ولم أقـــل مثلك أعنى   سواك يا فردا بلا مشبه

فكان تقديم لفظ المثل لازما لزوما بلاغيا أو كما قال عبدالقاهر « كاللازم ليفيد مع الكناية المبالغة فى التوكيد وتقوية معنى المدح .. وكذا قول الناس « مثلك رعى الحق والحرمة » ، وقول الخارجي للحجاج : «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب » المراد بلفظ المثل فيهما : الكناية عما أضيفتا إليه ، ولذا لما قال الحجاج للخارجي : « إنه الحديد » قال : لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليداً ، ومراد عبد القاهر بقوله : « على سبيل المغالطة » أسلوب الحكيم ، وقد كان يسميه بالمغالطة وهي مغالطة أدبية لطيفة - كما سنرى عند دراسة هذا الأسلوب .. ومما جاء فيه لفظ : «غير » مقدما على سبيل الكناية عما أضيفت إليه ، قول أبى تمام :

وغيرى يأكل المعروف سحتا   وتشحب عنده بيض الأيادى(٢)

لم يرد أبو تمام شخصا آخر مغايراً له هو الذى يصنع ذلك بل أراد الكناية عن نفسه ، وأنه لا يفعل ماذكر . وكان قد وشى به واش إلى وزير المعتصم ، فزعم أن أبا تمام قد هجاه ، وكانت للوزير أياد بيض على أبى تمام فقال مدافعا

(١) دلائل الإعجاز ١٦٤

(٢) السحت : الحرام ، وشحب لونه تغير من هزال أو مرض ، وبيض الأيادى: النعم ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

ورادا لتلك الوشاية: «كيف أهجوك وقد غمرنى معروفك ؟ لو فعلت لكنت آكلا له حراما وأنا لا آكل المعروف حراما» ، فقد أراد بقوله : «غيرى يأكل» الكناية عن نفسه - كما قلت - ولم يرد تعريضا بغيره . . . ومثله قول المتنبى :

غيرى بأكثر هذا الناسِ ينخدع　　إن قاتلوا جَبُنُوا أو حدثوا شجعُوا

أراد : أنه لا ينخدع ولم يقصد التعريض بشخص آخر يغر ويخدع فقد كنى عن نفسه بقوله : «غيرى» ، كنى عن نفسه بضد هذا الحكم ، وهو أنه لا يغر ولا يخدع .

فإن أريد بمثل شخص آخر مماثل أو مشابه لما أضيفت إليه . . وأريد بغير شخص مغاير له ، فعندئذ لا يلزم تقديمهما ، لأن الكلام فيهما يكون على سبيل الحقيقة لا الكناية .. من ذلك قول الصابى :

تشابه دمعى إذ جرى ومدامتى　　فمن مثل ما فى الكاس عينى تسكب

وقول ابن شرف القيروانى :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم　　فكأننى سبابة المتندم

فلم يرد بمثل وغير فى البيتين الكناية ، بل أريد بهما الحقيقة ، ولذا فإن تقديمهما غير لازم فى حكم البلاغة ، إذ ليس هنالك ما يقتضى ويستلزم تقديمهما .

تقديم ألفاظ العموم على النفى : ألفاظ العموم مثل «كل» و «جميع» ، إذا تقدمت على أدوات النفى فى التعبيرات أفادت عموم السلب بمعنى شموله لكل أفراد المسند إليه .. من ذلك قول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى　　علىّ ذنباً كلُّه لم أصنع

فقوله : «كله لم أصنع» أفاد عموم السلب أي أنه لم يفعل شيئا مما تدعيه أم الخيار . . وقول الآخر :

فكيف وكل ليس يعــدو حمامه
ولا لامرىء عما قضى الله مزحل(١)

فالمعنى على نفي أن يعدو أحد من الناس حمامه .

ومثله قول دعبل :

فوالله ما أدري بأي سهامها رمتني وكل عندنا ليس بالمكدي
أبالجيد أم مجرى الوشاح وإنني لأتْهِمُ عينيها مع الفاحم الجعد(٢)

والمعنى : على نفي أن يكون في سهامها مكد على وجه من الوجوه ومن الواضح في إفادة عموم السلب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما سأله ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يارسول الله ؟ قال : «كلّ ذلك لم يكن» أي : لم يكن واحد منهما ، لا قصر ولا نسيان ، ولذا قال ذو اليدين وقد سمع إجابة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - «بعض ذلك قد كان» .

وتقول : جميع القوم لم يأتوا ، وعامة الطلاب لم يحضروا ، تريد بهذا أنه لم يأت أحد من القوم ولم يحضر أحد من الطلاب .

وإنما كان تقديم لفظ العموم على النفي مفيدا لعموم السلب ، لأنك إذا

---

(١) الحمام : قضاء الموت وقدره والمراد : الأجل المحتوم . ومزحـل : زوال أو مفر .

(٢) المكدي . الذي يحفر ولا يجـد ماء ، يريد أن سهامها لا تخطىء المرمى ، والوشاح : مايضرب للمرأة من العاتق إلى الكشح ، والفاحم : الشعر الأسود وأتهم : بسكون التاء وكسر الهاء من أتهمه إذا نسب إليه مااتهم به .

بدأت به كانت قد بنيت النفي عليها ، وسلطت الكلية على النفي وأعملها فيه ، وإعمال معنى الكلية فى النفى يقتضى ألا يشذ شىء عن النفى .

أما إذا تقدم النفى على ألفاظ العموم ، فإنه يفيد سلبها ، أى : سلب العموم والشمول بمعنى ثبوت البعض ونفى البعض الآخر . . .

من ذلك قول المتنبى :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لا تشتهى السُّفُنُ(١)

يريد أن المرء قد يدرك بعض ما يتمناه ولكنه لا يدركه جميعه ، فتقدم « ما » على « كل » أفاد سلب العموم .

ومثله قول أبى العتاهية :

ما كل رأى الفتى يدعو إلى رَشَد إذا بدا لك رأى مشكل فقف

يريد أن بعض رأى الفتى قد يدعو إلى رشد وبعضه قد لا يدعو . . .
وقول البحترى :

واعلم ما كل الرجال مُشَيَّع وما كل أسياف الرجال حسام(٢)

يريد : أن هناك رجالا فيهم أصالة الشجاعة والإقدام وهنالك من ليس كذلك ، وأن بعض الأسياف تقطع وبعضها ليس كذلك . . . ولو قيل : كل ما يتمنى المرء لا يدركه . . كل رأى الفتى لا يدعو إلى رشد . . . كل الرجال ليس مشيعا وكل الأسياف ليست حساما . . لتغير المعنى وكان المراد عموم السلب ، أى أن المرء لا يدرك شيئا مما يتمناه ، ورأى الفتى لا يدعو إلى رشد أبداً ، والشجاعة منفية عن كل رجل ، والجودة منفية عن كل سيف .

---

(١) السفن : روى بضم السين والفاء جمع سفينة وروى بفتح السين وكسر الفاء وهو ربان السفينة .

(٢) المشيع : الشجاع الصعب المتهور الذى كأنه يشيع قلبه .

ونقول : ماجاء كل القوم .. ماحضر الطلاب كلهم .. لم آخذ كل حقى .. نريد بهذا : أن بعض القوم قد جاء ، وبعض الطلاب قد حضر ، وبعض حقك قد أخذته ، والبعض الآخر لم تأخذه .

وإنما كان تقديم النفى على ألفاظ العموم مفيدا سلب العموم أى : نفى البعض وإثبات البعض الآخر ، لأن أداة النفى إذا تقدمت على كلمة « كل » وشبهها مما يفيد العموم توجه النفى إلى الشمول خاصة دون أصـل الفعل ، وأفاد الكلام ثبوته لبعض ونفيه عن بعض ووجه ذلك ، أن الكلية نوع من التقييد ، والنفى إذا اتجه إلى كلام مقيد انصب على القيد خاصة ،

هذا ـ وكما قلت لك ـ إن القاعدة البلاغية ينبغى أن تبنى على الأغلب والأكثر والا تبنى على التعميم والإطلاق ـ وعبدالقاهر عندما تحدث عن ألفاظ العموم وتقديمها على النفى ، بنى أحكامه المذكورة التى تحدثنا عنها على القطع والإطلاق ، مما جعل البلاغيين يستدركون عليه ذلك ، ويذهبون إلى أن تلك الأحكام ينبغى أن تكون أكثرية لا قطعية . . انظر إلى قول عبد القاهر : « إنا إذا تأملنا وجدنا إعمال الفعل فى « كل » والفعل منفى لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضا كان وبعضا لم يكن »(١) ، تجده قـد وضع القاعدة وضعا قاطعا دون أن يحتاط ، ولذا استدرك عليه العلامة سعد الدين قائلا : « وفيه نظر لأنا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)(٢)، وقوله : (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)(٣). وقوله : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)(٤) فالحق أن هذا الحكم أكثرى لا كلى »(٥) .

---

(١) دلائل الإعجاز ١٨٢ .

(٢) سورة لقمان ١٨

(٣) سورة البقرة ٢٧٦ .

(٤) سورة القلم ١٠ .

(٥) المطول ١٢٥ .

فسعد الدين قد جعل القاعدة غالبة لا لازمة ؛ لأن الآيات الكريمة التي ذكرها - ومثلها كثير في النظم الكريم - تقدم فيها النفي على «كل» ، وهذا يعني - لو سلمت القاعدة - أن الله جل وعلا ، لا يكره كل مختال وكل كفار وإنما يكره البعض دون البعض ، والنبي عليه الصلاة والسلام ، ليس منهيا عن طاعة كل حلاف ، بل منهي عن طاعة البعض دون البعض الآخر ، وهو ما لا يكون(١) .

ولذا نقول : إن القاعدة البلاغية ينبغي أن تكون أغلبية أكثرية ولا تبنى على القطع والإطلاق ؛ إذ ربما يأتي في الكلام البليغ والتعبيرات الجيدة ما يخالفها مما يكون قد خفي على واضع القاعدة .

---

(١) انظر خصائص التراكيب ١٨٥ ، ١٨٦ .

الفصل الثالث

أحوال المسند

حذفه : يحذف المسند عند وجود القرينة الدالة على حذفه ليفيد أغراضا بلاغية متعددة .. هذه الأغراض لا يمكن الإحاطة بها ـ كما ذكرت لك عند الحديث عن حذف المسند إليه ـ وذلك لأنها دقائق ولطائف . تكمن وراء العبارات والصيغ ولا يدركها إلا المتأمل الواعي والذواقة الخبير بالنظم وأحواله ، ونحن عندما نتحدث عن أغراض الحذف إنما نذكر بعضاً من تلك الدقائق ، وأنت عندما تتأمل النظام الجيد والأساليب الرفيعة لا تقف عند ذاك البعض الذي نذكره . بل عليك أن تطيل النظر والبحث والتنقيب حتى تصل إلى دقائق أخرى كثيرة قد لا تحيط بها في تلك الدراسة العاجلة .

ووراء كل حذف ـ سواء أكان المحذوف مسندا إليه أم مسندا أم أحد متعلقات الفعل، ثلاث مزايا بلاغية وهي: الإيجاز ـ الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ـ إثارة حس المخاطب وإيقاظ مشاعره كي يهدف على المطوى من العبارة ويحيط به.. وقد بينت لك هذه المزايا الثلاث عند حديثنا عن حذف المسند إليه فارجع إليها هناك .

وبالإضافة إلى تلك المزايا التي تكمن وراء كل حذف ، نجد لحذف المسند أغراضا بلاغية أخرى أهمها ما يلي :

١ ـ ضيق المقام .. كما في قول ضابىء بن الحارث البرجمي ، وكان عثمان رضي الله عنه قد حبسه في المدينة لهجائه بني نهشل ورميه أمهم ، فضاق ضابىء بسجنه وقال معبراً عن آلامه ، وواصفا ومصورا أحزانه :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب[1]

اراد: من أمسى بالمدينة مستقرا ، له منزله الذي يأوى إليه ، وأهله وأصحابه الذين يأنس بهم ويسكن إليهم ، فقد طابت نفسه وحسن حاله ورضى بعيشته . أما أنا وقيار فإننا بها لغريبان، وأنى للغريب أن يسعد ويهنأ. فالشاعر حزين مكروب ، قد ضاق صدره لغربته وحبسه ، وتتجدد آلامه كلما تذكر الأهل والأصحاب والمنزل الهنى ، وكلما مر بخياله الانطلاق والحرية .. ولذا تراه قد طوى المسند إلى « قيار » فى الشطر الثانى وتقديره : فإنى لغريب بها وقيار غريب بها أيضا فطيه ينبىء بالحال الكئيبة التى يعيشها الشاعر ، كما تراه قد طوى جواب الشرط وتقديره . ومن يك أمسى بالمدينة رحله فهو مسرور طيب النفس مستريح البال ، طواه لنفس السبب ؛ وكأن الكلمات لا تسعفه كى يذكر جواب الشرط وخبر قيار ، ثم كيف يذكر الجواب وهو من جنس السعادة والهناء إن لسانه ليتوقف عاجزا عن النطق به ، لأن فى الإفصاح عنه زيادة لآلامه وأحزانه .. وتأمل كيف قدم « قيارا » فقال : « فإنى وقيار » ولم يقل : « فإنى لغريب بها وقيار » ، وذلك الإشارة إلى أن قيارا ولو لم يكن من جنس العقلاء ، قد بلغه هذا الكرب واشتدت عليه تلك الغربة حتى صار مساويا للعقلاء فى التشكى منها ومقاساة شدائدها . فتقديم قيار وإقحامه بين جزئى الجملة ، ينبىء بالتسوية بينهما فى التحسر ومقاساة الألم وينبىء بالتالى بشدة مايلاقيه الشاعر ، فلم تعد الآلام مقصورة عليه بل تجاوزته إلى جواده ، فصار الجواد يشعر بما يشعر به « صاحبه » من الم وضيق ..

ومن ذلك قول عمرو بن امرىء القيس الخزرجى يخاطب مالك بن العجلان حين رد قضاءه فى واقعة الأوس والخزرج :

يا مالِ والسيد المعمّم قد يبطره بعض الرأى والسرف

---

(١) رحله : منزله ومأواه . وقيار . اسم فرسه أو جمله ..

نحن بما عندنا وأنت بما
عندك راض والرأى مختلف(١)

يريد : نحن بما عندنا من الرأى راضون ، لأن رأينا هو الصواب والحق، وأنت بما عندك من رأى راض وقد قضيت به وحكمت على الرغم من منافاته للصواب ومجانبته للحق ، فالرأى مختلف والحق بجانب الشاعر والصواب فى رأيه ، وعلى الرغم من ذلك لم يأخذ به مالك ولم يقض لعمرو وهذا هو ما يؤلم الشاعر ويحزنه ، ومما يضاعف آلامه ويزيد أحزانه ، أن القاضى ذو رأى وصاحب عقل راجح ، إنه السيد المعمم . قد عممه الجميع وارتضوا رأيه ، ولكن لكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ، فالسيد المعمم ذو العقل الراجح قد يبطره بعض الرأى ويخونه التوفيق ، فيقضى بغير الصواب ، وهذا ما قد حدث ، وهو الذى يؤلم عمرا ويحزنه ، ولذا تراه قد طوى المسند من الشطر الأول فى البيت الثانى ، فلم يقل : نحن بما عندنا راضون ، بل حذف الرضا من جانبهم لدلالة رضا المخاطب برأيه ، فى الشطر الثانى عليه . . هذا الحذف ينبىء بآلام الشاعر وضيقه ، وكأنه يأبى أن يصرح بنسبة الرضا إليهم فى اللفظ ، فهم مقتنعون بصواب رأيهم ، غير راضين بما حكم به مالك ذو الرأى والعقل ، فحذف المسند يبرز لك حالتهم تلك . . .

وانظر إلى قول المتنبى :

قالت وقد رأت اصفرارى : من به ؟
وتنهدت فأجبتها : المتنهـــد(٢)

---

(١) مال : منادى مرخم والأصل : يا مالك ، وترخيم المنادى مما يبرز حال المتكلم وينبىء بآلام الشاعر وأحزانه . والمعمم : الذى عممه القوم وارتضوا حكمه ورأيه . . ويبطره : يقطعه ، والمعنى قد يخونه التوفيق فيحكم بغير الصواب ويقضى بغير الحق . .

(٢) اصفرارى : يريد ما يصيب المحب من ضنى وشحوب وصفرة ناجمـــة عن العشق والغرام .

يريد : لما رأت حالى وما وصلت إليه بسبب حبها تساءلت متنهدة : من فعل بك هذا ؟ ومن وراء حالتك هذه ؟ فأجبتها : المتنهد أى : فعل بى ما ترين أنت ، فأنت التى أهواها وأعشقها ، فالشاعر قد حذف المسند وطواه ، فلم يقل صنع ما ترين المتنهد ، بل قال: المتنهد ، والمتنهد هى السائلة ، وكأن ألم العشق قد وصله إلى حالة لم يستطع معها أن يكمل الجواب ، وكأن الشاعر أيضا أراد بهذا الحذف أن يبادر بذكر المتنهد ، وأن يفصح لها عن حبه ، فهى التى وصلته إلى تلك الحال ، وقد وجدها فرصة عندما سألته : من به ؟ كى يسارع بالإفصاح عن حبه ، فحذف المسند يحقق تلك المسارعة ، ولو ذكره فقال : فعل هذا بى المتنهد . لكان هنالك تباطؤ فى الإعلان عن حبه . ولا يخفى عليك ما وراء الالتفات فى البيت من دلال المحب وتمنعه ، فهى تخاطبه ولم تقل له : من بك ؟ بل التفتت فقالت: من به ؟ دلالا وتمنعا ، وقيل المسند المحذوف اسم والمعنى : من المطالب به فأجبتها المتنهد هو المطالب به وعندئذ يكون الضمير فى « به » عائداً إلى الاصفرار فلا التفات .

٢ - قد يفيد حذف المسند تعظيما المسند إليه ، على نحو ماترى فى قوله عز وجل : (وَمَا نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)(١) . وقوله تعالى: (يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)(٢) فالأصل : إلا أن أغناهم الله من فضله وأغناهم رسوله .. والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، فحذف المسند فى الموضعين لدلالة المذكور عليه ، وحذفه يفيد تعظيم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « المسند إليه » ، إذ جعل إرضاءه من إرضاء الله وإغناءه من إغنائه تعالى ، وهذا تعظيم ما بعده تعظيم ، وتأمل تقديم المسند إليه « رسوله » ، وإيلاءه لفظ الجلالة ، ففيه تنبيه ولفت إلى تعظيم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودلالة على أنه من الله بمكان . . ومن البلاغيين من يرى أنه لاحذف فى الآيتين مجوزا أن تكون

(١) سورة التوبة آية ٧٤ (٢) سورة التوبة آية ٦٢

جملة واحدة ، وتوحيد الضمير فى : « من فضله ويرضوه » ينبىء بأنه لا تفاوت بين إغناء الله وإغناء رسوله ، ولا بين إرضاء الله وإرضاء رسوله فهما فى حكم مغن واحد ومرضى واحد ، كما تقول : إحسان عمرو وكرمه غمرنى ، فتفرد الضمير جاعلا الإحسان والكرم بمعنى واحد ، ولا يخفى عليك ما فى هذا أيضا من « تعظيم » لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعة شأنه(١) .

وتأمل قوله عز وجل : (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ)(٢) تجد أنه قد حذف المسند وتقديره : أفمن هو قائم .. كمن ليس كذلك ، والقائم على كل نفس هو الله عز وجل فهو متولى أمر كل نفس وحافظ شأنها ، ومن ليس كذلك هو المعبود بالباطل من دون الله عز وجل ، والحذف هنا يشعر بتعظيم الله عز وجل وتحقير وازدراء تلك المعبودات وينبىء بأنه لا وجه للمقارنة بين الخالق القادر القائم على كل نفس وبين تلك المعبودات ... فينبغى عدم الجمع بينهما ولو فى اللفظ وكذا القول فى الآيات الكريمة : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)(٣) ، والتقدير : كمن أقسى قلبه وجعل صدره ضيقا حرجاً ... (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(٤) ، أى : كمن ينعم فى الجنة ... (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)(٥) أى : كمن لم يزين له أو كمن هداه الله ؟ فالحذف فى الآيات يشعر بأنه لا وجه للمقارنة بين الاثنين ، فهذا قد شرح الله صدره للإسلام وذاك قد أقسى قلبه وجعل صدره ضيقا حرجاً ، هذا يتقى بوجهه سوء العذاب

(١) انظر الإيضاح ١/١٧٣

(٢) سورة الرعد الآية ٣٣

(٣) سورة الزمر الآية ٢٢

(٤) سورة الزمر الآية ٢٤

(٥) سورة فاطر الآية ٨

وذاك ينعم فى الجنة . . . هــذا قد زين له عمله السيء فرآه حسنا وذاك قد هداه الله للخير والعمل الصالح . . فحذف المسند كما ترى يشيء بالتباعد بين الفريقين ويوحى بالمسافات المتناهية بينهما ويجعل الذهن يتسع وتتلى بصورة المسند إليه فتقر فى القلب وترسخ فى العقل . . . ولا يخفى عليك أن الحذف فى الآيتين الأخــيرتين قد أفاد تعظيم المسند المحذوف ورفعة شأنه وتحقير المسند إليه المذكور وانحطاطه ، وذلك عكس ما أبصرت فى الآيتين السابقتين ، إذ أفاد الحذف فيهما تعظيم المسند إليه المذكور وعلو منزلته ، وتحقير المسند المحذوف وانحطاطه وازدراء النفوس له . .

٣ — وقد يحذف المسند اتباعا للاستعمال الوارد عن العرب ، كقولك خرجت فإذا زيد . . لولا زيد لهلك الناس . . لعمرك لأفعلن . . كل رجل وضيعته ، والتقدير : فإذا زيد حاضر . . لولا زيد موجود . . لعمرك يمينى . . كل رجل وضيعته مقترنان . . فقد ذكر النحاة أن الأساليب العربية جرت على إسقاط المسند فى هذه المواضع وهى : إذا الفجائية ولولا والقسم الصريح وواو المصاحبة وكذا مع الحال الممتنع كونها خبراً نحو : ضربى زيداً قائماً أى : ضربى زيداً حاصل إذا كان قائماً . . وذكر سيبويه أن الحروف الخمسة التى تعمل فيما بعدها عمل الأفعال وهى : إن ولــكن وليت ولعل وكأن ، يحسن السكوت عليها مع إضمار خبرها . . من ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم للمهاجرين وقد شكروا عنده الأنصار : « أليس قد عرفتم أن ذلك لهم ؟ » قالوا . بلى ، قال عليه الصلاة والسلام : « فإن ذلك » يريد : فإن ذلك مكافأة لهم . . وقول عمر بن عبدالعزيز لرجل من قريش جاء يكلمه فى حاجة له فجعل يمت بقرابته فقال له عمر : « فإن ذلك » ، أى : فإن ذلك لك ، ثم ذكر الرجل حاجته فقال عمر : « لعل ذلك » ، أى : لعل ذلك ييسر لك ويقضى . . وتقول لمن قال لك : هل لك أحد ينصرك إن الناس إلب عليك ؟ : إن زيداً وإن عمراً وإن ولداً وإن مالا . . وعليه قول الأعشى :

إنَّ محــلاً وإن مرتحلاً   وإنَّ فى السَّفر إذ مضوا مَهَلا

يريد : إن لنا محلا فى الدنيا وإن لنا مرتحلا عنها إلى الآخرة ، ومحلا ومرتحلا مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال ، والسفر : اسم جمع بمعنى المسافرين ، والمراد بهم فى البيت : الموتى ، والمهل : مصدر بمعنى الإمهال وطول الغيبة ، والمعنى : إن فى غيبة الموتى طولا وبعداً ، لأنهم مضوا مضيا لا رجوع معه إلى الدنيا . وقول الآخر :

∴ ليت أيام الصبا رواجعا ∴

يريد : ليت أيام الصبا لنا رواجعا أو أقبلت رواجعا . . وتقول لمن قال لك : هل أحد يشبه عمر فى عدله ؟ : كأن فلاناً . . ولمن قال لك الخسارة فادحة والخطب جلل والناس جميعا ضدك : « لكن مالا ولكن ولداً » . تريد : كأن فلانا يشبهه . . لكن لى مالا ولى ولداً والحذف فى هذا الموضع أفاد الإيجاز ونقاء الجمل وترويقها أوكما قال البلاغيون : «الاحتراز عن العبث» فالذى حذف قد وجدت القرينة الدالة عليه والمقام مقام إيجاز ولمح ، وذكر ما قد دل الدليل عليه فى مثل هذا المقام يعد عبثاً . . تأمل قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « فإن ذلك » ، وقول عمر « لعل ذلك » . فستدرك قوة لمح المتكلم وحسن اقتداره على تصفية العبارة وترويقها من زوائد لا يستدعيها المقام .. وتأمل قولك : ضربى زيداً قائما ، ووازن بينه وبين قولك : ضربى زيداً حاصل إذا كان قائماً ، فستجد أن المحذوف أكثر من المذكور وعلى الرغم من من ذلك فقد ازداد المثال جمالا بسبب الحذف وبدا موجزاً أنيقا .. وأراك تشعر بما وراء قول القائل : إن مالا وإن إبلا ولكن ولداً ، من اعتداد واعتزاز وقوة لا تكون لو قدر المحذوف فقيل : إن لنا مالا ولكن لنا ولداً ، لأن استرخاء العبارة عندئذ يوحى بفتور الشعور وضعف المعنى . . .

وتأمل بيت الأعشى :

إن محــــلا وإن مرتحلا وإنَّ فى السَّفْر إذ مَضَوا مَهَلا

تجد أن الشاعر يصف السرعة الخاطفة فى الحلول والارتحال وكأن

هذه السرعة التى يحسها بزوال الدنيا قد انعكست على عبارته فطوى فيها كثير من الكلمات ، لأن سياق المعنى فى البيت طى وإضمار واختصار، حلول يخطفه الارتحال ، وارتحال دائم وسفر لا أوبة لهم . (١)

٤ — وقد يفيد حذف المسند التأكيد والاختصاص كما فى قوله تعالى : (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ)(٢) فالتقدير : لو تملكون تملكون ، فأضمر « تملك » الأول إضماراً على شريطة التفسير ، ولما أضمر الفعل انفصل الضمير « أنتم » فأنتم فاعل الفعل المضمر و « تملكون » تفسيره ، ودليل الحذف « لو » ، لأن لو لا تدخل إلا على الأفعال .. قال الزمخشرى : « وهـــذا هو الوجه الذى يقتضيه علم الإعراب ، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن « أنتم تملكون » فيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ .. ونحوه قول حاتم :

∴ لو ذات سوار لطمتنى(٣) ∴

وقول المتلمس :

ولو غير إخوانى أرادوا نقيصتى   جعلت لهم فوق العرانين ميسما(٤)

وذلك لأن الفعل الأول لما أسقط لأجل المفسر برز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر .. »(٥) .

ولذا أفاد حذف المسند فى الشواهد المذكورة الاختصاص والتوكيد

---

(١) انظر خصائص التراكيب ص ٢٢   (٢) سورة الإسراء الآية ١٠٠

(٣) هو لحاتم الطائى وقد قاله عندما لطمته أمة قد جاءته يبعير لها ليفصده فنحره ويعنى بذات السوار الحرة من النساء ..

(٤) العرانين . مفردها عرنين وهو الأنف كله أوماصلب منه .. والميسم العلامة أو السمة ...

(٥) الكشاف ٢/٢٦٨

وقد اعترض على الزمخشرى بأن الاختصاص إنما يكون فى الجملة الاسمية التى يقدم فيها المسند إليه على الخبر الفعلى مثل : محمد يفعل كذا ، وقوله عز وجل : (وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)[1] ، والشواهد المذكورة ليست كذلك لأنها جمل فعلية . . . ويدفع هذا الاعتراض بأمرين :

أولها : أنه لما أسقط الفعل برز الكلام فى صورة الجملة الاسمية « المبتدأ والخبر » كما ذكر الزمخشرى .

ثانيهما : أن الاختصاص قـــد علق بلو وهى حرف امتناع لامتناع كما تعلم . .

٥ - ومن أحسن مواقع حذف المسند ماترى الجملة فيه قد بنيت على كلمة واحدة . . كما فى قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ)[2] أى : فلا فوت لهم . فحذف المسند وبقيت كلمة واحدة : « فلا فوت » ، وهذه الكلمة تراها كالطود الشامخ والحاجز المنيع الذى قضى على كل أمل لهم فى الموت والتفلت ، ولا يخفى عليك ما فى حـــذف جواب الشرط ، وبناء الفعل « أخذوا » للمجهول من إفادة التهويل والتفظيع . . ومن ذلك قوله تعالى : (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ . قَالُوا : لَا ضَيْرَ ، إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ)[3] أجاب السحرة وعيد فرعون وتهديده لهم بكلمة واحدة : « لاضير » أى : لاضير علينا فيما تصنعه بنا إنا إلى ربنا منقلبون . . وهذا ينبىء بقوة الإيمان وصدق اليقين ، إذ أجابوا توعده بكلمة واحدة كالسهم النافذ الذى بدد كل وعيد وشتت كل تهديد .

٦ - وقد يأتى الكلام على الحذف ثم تراه يحتمل أن يكون المحذوف هو

---

(١) سورة نوح الآية ١٧ (٢) سورة سبأ الآية ٥١

(٣) سورة الشعراء الآية ٥٠

المسند أو المسند إليه ، على نحو ماترى فى قوله تعالى : (قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)(١) ففى هذه الآية الكريمة يحتمل أن يكون المحذوف المسند إليه ، وتقديره : فصبرى صبر جميل أو فشأنى وأمرى صبر جميل ، ويحتمل أن يكون المحذوف المسند وتقديره : فصبر جميل أولى بى أو فصبر جميل أجمل ... والصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه وغير الجميل ما كان معه شكاية ، ولكنه خير من عدمه فيصح تفضيل الصبر الجميل عليه ... والأرجح أن يكون المحذوف هو المسند إليه إذ الآية الكريمة مسوقة لمدح يعقوب - عليه السلام - وحين يكون المحذوف هو المسند إليه يكون الكلام دالا على حصول الصبر له ، إذ التقدير : فأمرى أو فصبرى صبر جميل ، أما على جعل المحذوف هو المسند فليس فى الكلام ما يدل دلالة مباشرة على حصول الصبر ليعقوب عليه السلام ، إذ التقدير : فصبر جميل بى أو فصبر جميل أجمل(٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا)(٣) فيحتمل أن يكون التقدير : هذه سورة أنزلناها ، فيكون المحذوف هو المسند إليه ويحتمل أن يكون فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها ، فيكون المحذوف هو المسند .. وكذا قوله جل وعلا : (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ)(٤) ، هذه الآية نزلت فى شأن المنافقين الذين ذهبوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن أمرهم أن يخرجوا من أموالهم لخرجوا ، فنزلت هذه الآية الكريمة « قل لا تقسموا طاعة معروفة » ، وهى تحتمل حذف المسند إليه فيكون المعنى : أمركم أو الذى يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب ،

---

(١) سورة يوسف الآية ١٨
(٢) انظر المطول ١٤٢
(٣) سورة النور الآية ١
(٤) سورة النور الآية ٥٣

كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره ، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم ، وقلوبكم على خلافها ، أو طاعتكم طاعة معروفة ، أى بأنها بالقول دون الفعل . . . ويحتمل حذف المسند فيكون المعنى : طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة . . . وما من ريب فى أن الكلام إذا احتمل حذف المسند أو المسند إليه ، يكون أوفر معنى وأغزر دلالة ؛ لأنه يحتمل وجهين ، ووفرة التأويلات من فضائل الكلام الجيد(١) .

هذا وتقدير المحذوف أو القول بالحذف يحتاج من الدارس إلى تأمل دقيق ونظر واع حتى لا يتناقض مع صحة المعنى واستقامته . . انظر إلى قول الله عز وجل : (وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ)(٢) ، فالمراد النهى عن التثليث ، أى : لا تقولوا بالتثليث ، انتهوا عنه يكن خير لكم . فالله واحد لا شريك له . . . الآية الكريمة فيها حذف ويحتمل أن يكون المحذوف المسند والتقدير : لنا آلهة ثلاثة أو فى الوجود آلهة ثلاثة ، لحذف المسند « لنا » أو « فى الوجود » ، ثم حذف الموصوف « آلهة » فصارت الآية : « لا تقولوا ثلاثة » ، أو التقدير : لا تقولوا : لنا أو فى الوجود ثلاثة آلهة ، لحذف الخبر ثم التمييز المضاف إليه فصارت الآية : « لا تقولوا ثلاثة » . . . ويحتمل أن يكون المحذوف المسند إليه وتقديره : ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة ، أى لا تعبدوهما كما تعبدون الله ، ولا تسووا بينهم فى الرتبة والصفة ، كقوله تعالى : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ)(٣) .

وذلك أنهم إذا أرادوا التسوية بين اثنين قالوا : هما اثنان ، وإذا أرادوا إلحاق واحد باثنين قالوا : هم ثلاثة . . . ولا يصح أن يكون التقدير : ولا

---

(١) انظر خصائص التراكيب ٢٢٢ .

(٢) سورة النساء ١٧١ (٣) سورة المائدة ٧٣

تقولوا آلهتنا ثلاثة ، لأن فى هذا التقدير تقرير لثبوت آلهة ؛ إذ النفى إذا سلط على الجملة لا يتوجه إلى أحد طرفيها ، وإنما يتوجه إلى الحكم المستفاد من الطرفين ، فإن قلت : ليس أمراؤنا ثلاثة فإنك تثبت بهذا القول أن لكم أمراء وتنفى أن يكون عددهم ثلاثة ، لجاز أن يكون عددهم أقل من ثلاثة ، أو أكثر ، وإذا فإن التقدير : لا تقولوا آلهتنا ثلاثة ، فيه إثبات أن عدد الآلهة اثنان أو أكثر من ثلاثة ، وهذا إشراك وقوله جل وعلا بعده : (إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) ، يناقضه . . . وتأمل قوله تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)(١) ، فى قراءة من حذف تنوين «عزير» ، فلا يجوز أن يقدر مسند محذوف ، وأن نعرب «عزير» مبتدأ و «ابن» صفته ، ويكون التقدير : عزير ابن الله معبودنا ، هذا خطأ وإشراك ؛ لأن فيه إثبات وتقرير الصفة للموصوف ، أى : صفة : «ابن الله» ثابتة لعزير ، ولا يخفى عليك ما فى هذا من فساد ، فالصواب أنه لا حذف فى الآية ، وأن «عزير» مبتدأ وخبره : «ابن الله» ، وأن التنوين تنوين «عزير» مراد ، وقد حذف لالتقاء الساكنين . . . أو أنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة كآزر(٢) .

٧ — وقد يحذف كل من المسند والمسند إليه ، كما فى قولهم : «أهلك والليل» يريدون : الحق أهلك وبادر الليل حتى لا يحول بينك وبينهم ، فالمقام يقتضى السرعة الخاطفة ، ولذا حسن حذف المسند والمسند إليه . . ومن لطيف ذلك قوله تعالى : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا : خَيْرًا)(٣) أى : أنزل ربنا خيراً . فحذف الفعل والفاعل ، وحذفهما ينبئ بسرعة استجابة هؤلاء المتقين وقوة إيمانهم وامتثالهم لأمر ربهم . وفرق بين إجابة المتقين فى

---

(١) سورة التوبة ٣٠ . (٢) انظر الإيضاح ١/٢٢٥
(٣) سورة النحل ٣٠

هذه الآية وإجابة الكفرة في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)[١] ، أي : ذلك أساطير الأولين .

يقول الزمخشري : « فإن قلت : لم نصب هذا ورفع الأول ؟ ، قلت : فصلا بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال فقالوا : خيرا أي : أنزل خيرا ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء »[٢] ... ومثله قوله عز وجل : (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا : الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)[٣] أي : قال ربنا الحق ، فحذف المسند والمسند إليه إسراعا إلى الإفصاح عن الجواب ، إذ المقام مقام إيجاز يتطلب أن تكون الإجابة إشارة أو لمحا ، كيف لا وقد فزع عن قلوبهم ؛ إن الكلمة الواحدة بل الإشارة في مثل هذا المقام تغني عن الكلمات الكثيرة ... وتأمل قوله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)[٤] أي : ذروا ناقة الله ، واحذروا سقياها ، تجد أن الحذف هنا ينبيء بلهفة صالح عليه السلام وشدة حرصه على هداية قومه ونجاتهم ولذا صاح بهم محذرا : « ناقة الله وسقياها » .

وانظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام لجابر : « ما تزوجت ؟ فقال : ثيبا ، فقال صلى الله عليه وسلم : فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك » ، أراد عليه الصلاة والسلام : فهلا تزوجت جارية ... فحذف الفعل والفاعل لدلالة الكلام عليهما وفي هذا الحذف تنقية للعبارة وتصفية لها مما أقيم عليه الدليل

---

(١) سورة النحل ٢٤
(٢) الكشاف ٢/٤٠٧
(٣) سورة سبأ ٢٣
(٤) سورة الشمس ١٣

حتى لا يكون ذكره عبثا وفضولا». وقد يحذف المسند والمسند إليه ويقام المصدر مقامهما، كما فى قوله تعالى: (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ)(١) أى: فاضربوا رقابهم ضربا، لحذف الفعل وفاعله، وهذا الحذف يلائم السياق، إذ الضرب المأمور به هو الضرب السريع الخاطف فور اللقاء... وتأمل هذه الفاءات: «فإذا لقيتم... فضرب... فشدوا الوثاق فإما منا...» وما تقتضيه من التعقيب والسرعة الخاطفة... ومن حذف المسند والمسند إليه، حذف القول وفاعله وهو كثير فى كتاب الله جل وعلا... من ذلك قوله تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)(٢) أى: فيقال لهم لقد جئتمونا.. ولعلك تشعر بما وراء هذا الحذف من تأنيب وتعنيف شديد ويساعد فى إبراز هذا التعنيف الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: «وعرضوا.. جئتمونا»... ومنه قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا: بَلَىٰ وَرَبِّنَا)(٣) أى: فيقال لهم: أليس هذا بالحق، ولا يخفى عليك ما وراء الحذف هنا من سرعة إبراز السخرية والتهكم بهؤلاء الكفرة الذين لم يجدوا بدا من الإذعان والإقرار بعد فوات الأوان: «بلى وربنا»..

قرينة حذف المسند: ولا بد لكل حذف - كما ذكرت لك - من وجود القرينة التى تدل على المحذوف وترشد إليه، وإلا كان الحذف عبثاً، ومن القرائن الدالة على حذف المسند وقوع الكلام جواباً عن سؤال محقق كما فى

(١) سورة محمد آية ٤.
(٢) سورة الكهف آية ٤٧، ٤٨.
(٣) سورة الأحقاف آية ٣٤

قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : اللهُ)(١) أى : خلقهن الله . . وقوله جل وعلا : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ : اللهُ)(٢) أو عن سؤال مقدر كما فى قول الحارث بن ضرار النهشلى يرثى أخاه يزيداً :

لِيُبْكَ يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح(٣)

« ليبك » بالبناء للمجهول و « يزيد » نائب فاعل ، فلما حذف الفاعل وأقيم المفعول به مقامه ، انبعث من الجملة سؤال تقديره : من يبكيه ؟ فجاء الجواب : ضارع لخصومة ، وقد حذف منه الفعل لدلالة السؤال المقدر عليه ، والمعنى : يبكيه ضارع . . وفضل هذا التركيب أى البناء للمجهول : « لِيُبْكَ يزيدُ ضارع » على البناء للمعلوم : « لِيَبْكِ يزيدَ ضارع » ، من عدة أوجه وهى :

١ - تكرار الإسناد ، حيث أسند البكاء إلى الفاعل مرتين ، إجمالا وذلك عند البناء للمجهول ثم تفصيلا وذلك عند ذكر الفاعل : « ضارع » فاعلا للبكاء المقدر ، وتكرار الإسناد أبلغ فى مقام الرثاء وآكد . .

٢ - فيه بيان وإيضاح بعد الإبهام . . . والإيضاح بعد الإبهام يكون أوقع فى النفس وأقوى أثراً . .

٣ - وقوع « يزيد » فيه نائب فاعل فيكون ركنا أسند إليه الفعل المبنى

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٥ . (٢) سورة العنكبوت الآية ٦٣ .

(٣) الضارع : الذليل . والمختبط : الذى يأتى إليك المعروف من غير وسيلة ، وتطيح بمعنى تذهب وتهلك ؛ والطوائح جمع مطيحة على غير قياس ؛ وقياسه : مطاوح أو مطيحات ؛ يصف يزيداً بأنه كان ملجأ للذليل وعونا للمحتاج الذى أطاحت به الطيحات . . .

للمجهول ، وكونه ركنا أولى من جعله فضلة فى التركيب الآخر ، إذ مدار الحديث إنما هو عنه .. وعلى الرغم من هذا فإن التركيب الآخر لا يخلو من مزية ، وهى تقديم المفعول «يزيد» ، فقد جعل النفس تشتاق إلى معرفة الفاعل «ضارع» وتتطلع إليه ، فعند مجيئه يقع فى النفس موقعا حسنا . . .

ومن وقوع الكلام جوابا عن سؤال مقدر قوله تعالى : (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ)(١) ، وقوله عز وجل : (كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٢) ، وذلك فى قراءة من قرأ ببناء الفعل المجهول فى الآيتين .. ومنه قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)(٣) وذلك على جعل «لله شركاء» مفعولين للفعل «جعل» ، و «الجن» مفعولا به لفعل محذوف دل عليه سؤال مقدر والمعنى : من جعلوه لله شركاء؟ فيجاب : الجن . وفى الآية وجهان آخران وهما :

١ — جعل «الجن» بدلا من «شركاء» بدل بعض من كل ، والمعنى : وجعلوا الجن من الشركاء لله . .

٢ — إعراب «لله» جارا ومجرورا متعلقا بشركاء مقدما عليه ، و «شركاء الجن» مفعولين قدم فيهما «شركاء» على «الجن» ، استعظاما لأن يتخذ لله شريك ، جنا كان أم ملكا أم غيرهما ، ومن أجل هذا المعنى قدم لفظ الجلالة : «لله» على الشركاء(٤) . .

ومن ذلك أيضا باب نعم وبئس : على جعل المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ خبره محذوف نحو : نعم الرجل عمرو ، وبئس الرجل زيد ، كأنه قيل : من الممدوح ومن المذموم ؟ فأجيب زيد المذموم وعمرو الممدوح ، فكل

(١) سورة النور الآية ٣٦ .

(٢) سورة الشورى الآية ٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٠ .

(٤) انظر الإيضاح ١/١٧٨

من زيد وعمرو مبتدأ محذوف الخبر ، والقرينة وقوع المخصوص فى جواب سؤال مقدر . .

° ° °

ذكر المسند : المسند والمسند إليه هما ركنا الجملة ، وذكرهما هو الأصل فلا يحذفان إلا إذا وجد فى الكلام ما يقتضى العدول عن هذا الأصل — كما مر بك — وقد يوجد فى الكلام ما يدل على المسند لو حذف ، وعلى الرغم من هذا يذكر ويصرح به لأغراض بلاغية يقتضيها المقام ، وأهم هذه الأغراض :

١ — التعريض بغباوة السامع كما فى قوله تعالى : (قَالُوا : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)(١) ، فلو قال إبراهيم — عليه السلام — فى جوابهم : بل كبيرهم هذا لكان المسند مفهوما لدلالة السؤال عليه — ولكنه عليه السلام — عدل عن الحذف إلى الذكر ، تنبيها إلى غباوتهم وضعف عقولهم ، لأن فى الحذف تعويلا على ذكاء المخاطب وتنويها بفهمه وإدراكه ، وانظر إلى اسم الإشارة فى قوله : « كبيرهم هذا » ، وكأنهم لا يفهمون إلا بالإشارة إلى الفاعل وتعيينه وتحديده وجعله مرئيا أمامهم .. ومن ذلك قولك لمن سألك : من نبيكم ؟ : محمد — عليه الصلاة والسلام — نبينا ، فتذكر المسند ، ولو حذفته لدل عليه سؤال السائل دلالة واضحة ، ولكنك ذكرته تعريضا بغباوة السامع وإشارة إلى ضعف فهمه ، إذ لو كان له فهم لما سأل عن نبينا ، فهو أظهر من أن يتوهم خفاؤه ، وكأنه لا يفهم بالقرائن الواضحة ، ولا بد من التصريح له بأجزاء الجملة كاملة . .

٢ — ضعف التعويل على القرينة ، وذلك بأن يكون فى الكلام قرينة تدل

---

(١) سورة الأنبياء آية ٦٢ ، ٦٣

على المسند لو حذف ، ولكن ليس لها من القوة والإيضاح ما يلم السامع المعنى ويضعه أمام عينيه من أول الأمر .. كما إذا سألك سائل : من أشجع العرب وأجودهم في الجاهلية ؟ فتجيب : عنترة أشجع الجاهليين وحاتم أجودهم ، ذاكرا أشجع وأجود حتى لا يلتبس على السائل لو قلت : عنترة وحاتم ، من غير أن تعين صفة كل واحد منهما .

٣ — قد يذكر المسند ليتعين بالذكر كونه اسما ليفيد الثبوت والدوام ، أو كونه فعلا فيفيد التجدد والحدوث ، كقولك : زيد منطلق وعمرو ينطلق ، إذ لو حذفت المسند الثاني فقلت : زيد منطلق وعمرو ، لفهم انطلاق عمرو لدلالة انطلاق زيد عليه ، ولكنك آثرت ذكره بصيغة الفعل لتفيد أنه يخالف انطلاق زيد ، فانطلاق زيد مستمر وانطلاق عمرو يتجدد شيئا فشيئا . وكذا تقول : زيد ينطلق وعمر منطلق ، فتذكر الانطلاقين ليتعين كون الأول فعلا مفيداً للتجدد والحدوث ، وكون الثاني اسما مفيداً للثبوت والدوام ، ولو حذفت أحدهما لدلالة الآخر عليه لما تحققت هذه الإفادة

٤ — ومن أهم أغراض ذكر المسند زيادة التقرير والإيضاح ، كما في قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)(١) ، فلو حذف المسند وقيل : « العزيز العليم » ، لدل عليه السؤال المصرح به ، ولكنه ذكر زيادة للتقرير والإيضاح ، وللتسجيل على هؤلاء الكفرة ، وإبراز سفاهتهم وضعف عقولهم ، حيث عبدوا ما لا يصنع شيئا ولا يخلق ذبابا ، فالخالق هو الله القادر على كل شيء . « خلقهن العزيز العليم » . . ومثله قوله تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)(٢) ، فقد ذكر المسند (يحييها) في الجواب ،

---

(١) سورة الزخرف آية ٩ . (٢) سورة يس آية ٧٨ ، ٧٩

وكان يمكن الاستغناء عنه لدلالة السؤال عليه ، وذلك لزيادة التقرير والإيضاح وفيه أيضا تنبيه وإشارة إلى غباوة السائل وضعف عقله ، إذ لا يسأل هـذا السؤال إلا منكر معاند ، قد ختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة تمنعه من الإدراك وتحجب عنه نور الحق ... وتأمل كيف أوثر التعبير بالاسم الموصول : « الذى أنشأها أول مرة » ؛ لأن فى جملة الصلة برهان قاطع ودليل بين ، فإن من قدر على إنشاء هذه العظام أول مرة فهو قادر على إحيائها وإعادتها . وتأمل قول الشاعر :

لولا التقى لجعلت قبرك كعبتى
وجعلت قولك سنتى وكتابى

تجد أنه لو أسقط « جعلت » الثانية ، لفهمت من الأولى ولكنه أراد إبراز الجعل وزيادة تقرير هذا المعنى الذى أراده وإيضاحه ، فأعاد ذكر المسند كما ترى ... وانظر إلى قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

أعينى جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجواد الجميل   ألا تبكيان الفتى السيدا

تجد أن إعادة ذكر البكاء ، وتكراره ، قد أبرز المعنى وقرره وأوضح آلام الخنساء وصور مدى لهفتها وحزنها على صخر الندى .

* * *

إفراد المسند : قد يرد مفرداً نحو : محمد عالم وزيد كريم ، وقد يرد جملة بها ضمير يعود إلى المبتدأ ، وهذا الضمير ليس مسنداً إليه ، نحو : محمد أبوه عالم ، على أجداده ملوك ، وهذا المسند يسميه البلاغيون : مسندا سببياً ، أى أن المسند إليه بسبب من المسند ومرتبط به بروابط قوية ... وقد يرد المسند جملة بها ضمير يعود إلى المسند إليه المتقدم ، وهذا الضمير يكون مسنداً إليه

أيضاً نحو : محمد يعطى الجزيل ، خالد يحمل السلاح ، والمقام هو الذى يحدد نوع المسند الذى ينبغى على المتكلم أن يستعمله ، فإذا أراد المتكلم مجرد الإخبار عن المسند إليه ، أورد المسند مفرداً ، فيقول : محمد عالم . . . على جواد .

وإن أراد وصله بآبائه وأنه ورث المآثر والأمجاد عنهم ، أورده سببيا ، فيقول : محمد أبوه كريم .. خالد آباؤه أبطال .

وإن أراد تقوية الحكم أورده جملة غير سببية ، فيقول : محمد يعطى الجزيل خالد يجود بماله ... هم يضربون الكبش .

* * *

إيراد المسند فعلا أو اسما : لا يخفى عليك الفرق بين الاسم والفعل ، فالفعل يدل على حدث وقع فى زمن نحو : قام ويقوم ، والاسم يدل على حدث مجرد من الزمن نحو : قائم وذاهب .. راكع وساجد ، كما أن الفعل المضارع يفيد الحدوث والتجدد ، والاسم يفيد الثبوت والدوام ، نحو : زيد ينطلق وزيد منطلق ، فالأول أفاد انطلاقا يتجدد ، والثانى أفاد انطلاقاً ثابتاً . ولذا فإن المتكلم عندما يورد المسند فعلا فهو يقصد إما تقييده بأحد الأزمنة نحو : فاز المجد ... ويجاهد الجندى ، فالأول أفاد حدوث الفوز فى الزمن الماضى ، والثانى أفاد حدوث الجهاد فى زمن الحال واستمرار حدوثه فى الزمن المستقبل .. وإما إفادة الحدوث والتجدد ، وذلك إنما يكون فى الفعل المضارع فهو يفيد التجدد الاستمرارى بمعونة السياق وقرائن الأحوال ، وغالبا ما يكون ذلك فى مقامات المدح والفخر .. انظر إلى قول طريف بن تميم :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة ... بعثوا إلى عريفهم يتوسم[1]

---

(١) العريف : القيم الذى يقوم بأمر القوم .

يقول : إنه شجاع مقدام ، له موقف مع كل قبيلة ، فالقبائل جميعها تطلبه ، وكلما وردت سوق عكاظ قبيلة بعثوا عريفهم يتفرس الوجوه ويتوسمها لعله يهتدى إليه فيثأر منه ، وتلاحظ أن الشاعر قد استخدم الفعل المضارع « يتوسم » لإفادة التجدد والحدوث فالعريف دائم المراجعة والتأمل وإعادة النظر فى وجوه القوم ، يحدث منه التوسم شيئا فشيئا ، ولو قال : بعثوا إلى عريفهم متوسما لما تحققت هذه الإفادة ولما كان هنالك إشعار بحالة التجدد هذه .. ومن ذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..)[1] فالرزق من الله متجدد ومستمر ، يتجدد بتجدد العباد ، لا ينقطع ولا يزول ، وهذا يلائمه التعبير بالفعل « يرزقكم » ولو قيل : (هل من خالق غير الله رازقكم ..) لما أفيدت هذه الإفادة ، ومنه قوله تعالى : (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ)[2] ، وقوله عز وجل : (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ)[3] ، فالمحو والإثبات يتجددان ومستمران . وتسبيح الجبال يحدث آنا بعد آن ويقع حينا بعد حين وهذا يناسبه التعبير بالفعل الذى آثره النظم الكريم : « يمحو .. يثبت .. يسبحن » .. وعندما يورد المتكلم المسند اسما فإنه يقصد به إفادة الثبوت والدوام ، وذلك يكون بمعونة السياق وقرائن الأحوال ، إذ الاسم يدل على الحدث مجردا من الزمان ، والمتكلم قد يسوقه فى سياق ترشد قرائنه إلى إفادة الثبوت والدوام والاستمرار .. انظر وتأمل قول النضر بن جؤية :

قالت طريفة ماتبقى دراهمنا وما بنا سرف فيها ولا خرق

---

(١) سورة فاطر آية ٣ (٢) سورة الرعد آية ٣٩ .

(٣) سورة ص آية ١٨ .

إنا إذا اجتمعت يوما دراهمنا ظلت إلى طرق الخيرات تستبق

لا تألف الدرهمَ المضروبَ صرتُنا

لكن يمر عليها وهو منطلق[١]

تجد أن الشاعر يمدح قومه بالكرم والعطاء ، فهم لا يبقون من المال بقية ، وصرتهم لا تألف الدرهم ، وإنما يمر عليها الدرهم منطلقا ومندفعا إلى الخيرات .. مثل هذا المقام يلائمه التعبير بالاسم « منطلق » ، لأنه يفيد انطلاق الدرهم انطلاقا ثابتا ومستمرا ، ولو قال : يمر عليها وهو ينطلق ، لكان المعنى أن انطلاقه يتجدد ، وهذا يعنى أنهم يمسكونه زمنا ما : ولا يخفى عليك عدم مناسبة ذلك لمقام المدح .. والبيت يروى برفع الدرهم ونصب الصرة ، وبنصب الدرهم ورفع الصرة ، والرواية الثانية أبلغ ؛ لأنها تدل على غناهم وأن الدراهم تمر والصرة لا تألفها ؛ أما الرواية الأولى ففيها إيهام أنهم فقراء وأن الصرة خالية لا يألفها الدرهم المضروب .. وخذ قوله تعالى : (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)[٢] ، فلا يخفى عليك ما يفيده الاسم : « باسط » من ثبوت البسط ودوامه واستمراره وأنه لو قيل : يبسط ذراعيه لما أدى هذا الغرض .. وتأمل قوله عز وجل : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ)[٣] ، تجد أنه لما كان الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ، فقد عبر عنه بالاسم الذى يفيد الثبوت والدوام ، ولما كان القبض طارئا على البسط فقد عبر عنه بالفعل الذى يفيد الحدوث والتجدد .. يقول الزمخشرى : « فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ولم يقل : وقابضات ؟ ، قلت : لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ؛ لأن الطيران فى الهواء كالسباحة

---

(١) الدرهم المضروب : المسبوك ..

(٢) سورة الكهف آية ١٨ .

(٣) سورة الملك آية ١٩ .

فى الماء . والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجىء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح »(١) ..

والجملة كالمفرد فى هذا الحكم ، فإذا كان الاسم يفيد الثبوت والدوام فى نحو قولك : زيد منطلق ، فكذلك الجملة الاسمية ، وإذا كان الفعل يفيد التجدد والحدوث فى نحو قولك : ينطلق زيد ، فكذلك الجملة الفعلية ، ولكون الجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام كانت آكد من الجملة الفعلية ، ومن أجل هذا فإنه يحسن إيثار التعبير بالجملة الاسمية فى المقامات التى تتطلب التأكيد .. تأمل قوله تعالى : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ)(٢) ، تجد أن المنافقين لكونهم قد أظهروا الإيمان خوفا ومداراة للمؤمنين ، وليس عن يقين راسخ وثابت ، فقد عبروا عنه بالجملة الفعلية . « آمنا » ، ولما كان الكفر ثابتا وراسخا فى عقولهم فقد خاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية المؤكدة : « إنا معكم إنما نحن مستهزءون » وقوله تعالى : (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)(٣) ، كان الوثنيون الذين عبدوا الأصنام من عادتهم أنهم لايدعون تلك الأصنام إذا نزلت بهم شدة بل يدعون الله .. ولذا ناسب التعبير عن صمتهم بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والدوام وتأكيد الحكم ، ولما كان الدعاء غير معتاد ، فقد عبر عنه بالجملة الفعلية التى لاتفيد ثبوتا ، والمراد : سواء عليكم أأحدثتم الدعاء على غير عادة ، أم بقيتم مستمرين على عادة صمتكم ... وقوله تعالى : (وَلَقَدْ جَاءَتْ

---

(١) الكشاف ٤/١٣٨ .
(٢) سورة البقرة آية ١٤ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٣ .

رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا : سَلَاماً ، قَالَ : سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)(١) فالأصل : نسلم سلاما فقال سلام عليكم ، فلاحظ أن تحية إبراهيم عليه السلام بالجملة الاسمية ، وتحيتهم بالجملة الفعلية ، وكأنه ـ عليه السلام ـ أراد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بآداب التحية فى قوله تعالى : (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)(٢) . . وخذ قوله عز وجل : (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)(٣) ، أرادوا : أحدث منك مجىء بالحق ولم تكن كذلك ، أم أنت مستمر فى لعبك الذى عهدناه فيك ؟ عبروا عن مجيئه بالحق بالفعل الذى يفيد التجدد وعن اللعب بالجملة الاسمية التى تفيد تأكيد لعبه واستمرار أحوال لهوه ـ فى اعتقادهم ـ ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من عنادهم وإعراضهم عن الإذعان للحق وقبول الهداية . . وقوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)(٤) قولهم : « آمنا » إخبار بوقوع الإيمان وإحداثه ، ولكونهم كاذبين فى دعواهم ، فقد نفاها الله عز وجل بالجملة الاسمية المؤكدة « وما هم بمؤمنين » . . وقوله عز وجل : (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)(٥) أرادوا حدوث خروج فأجيبوا بدوام البقاء واستمرار العذاب . . وقوله تعالى : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)(٦) ، عبر عن الصادقين بالفعل لأنهم يحدثون صدقا بعد صدق فى كل موطن ، وعبر عن الكاذبين بالاسم ، لأن ما صدر منهم كذب مستمر وجار على عادتهم الدائمة المستمرة وناشىء عن رسوخ فى الكذب وثبات . .

---

(١) سورة هود الآية ٦٩ .

(٢) سورة النساء الآية ٨٦

(٣) سورة الأنبياء الآية ٥٥

(٤) سورة البقرة الآية ٨

(٥) سورة المائدة الآية ٣٧

(٦) سورة التوبة الآية ٤٣

تنكير المسند وتعريفه : ومن أحوال المسند أنه يرد أحيانا نكرة وأحيانا معرفا ، وتنكيره أو تعريفه إنما يكون لإفادة أغراض يقصد إليها البلاغي ، فمن أغراض تنكيره : عدم إرادة القصر أو العهد ، كقولك : محمد كاتب ، وعمرو شاعر ، إذا أردت مجرد الإخبار عنهما بالكتابة والشعر ، أما إذا أردت التخصيص قلت : محمد الكاتب ، وعمرو الشاعر . وكذلك إذا أردت كاتبا أو شاعراً معهوداً قلت : فلان الكاتب أو الشاعر ، فتعرف المسند فى الحالتين ، كما سيأتى . ومنها إرادة التفخيم والتعظيم كما فى قوله تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)[1] أى : هو هدى ، فتنكير المسند « هدى » ، أفاد تعظيم هداية القرآن وتفخيمها وأنها بلغت درجة لا يمكن إدراك كنهها ... ومثله قوله تعالى : (وَهَـذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[2] ، وقوله عز وجل : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)[3] ، ولا يخفى عليك ما فى تنكير المسند فى الآيتين من إفادة التفخيم والتعظيم « كتاب .. قرآنا .. هدى وشفاء .. وقر .. عمى ... » ، التنكير كما ترى أفاد تفخيم القرآن وتعظيم هدايته والتنويه بشأنه . ومنها إفادة التحقير والتهوين كما ترى فى قول الشاعر :

غدرتَ بأمر كنتَ أنت دعوتنا   إليه وبئس الشيمةُ الغدر بالعهد
وقد يترك الغدرَ الفتى وطعامُه   إذا هو أمسى حَلبةٌ من دم الفَصْدِ

فتنكير المسند « حلبة » أفاد التحقير ، والمعنى أن الوفى لا يغدر ولو أخنى عليه الدهر وأمسى طعامه بهذه الحقارة « حلبة من دم الفصد » . إلى غير ذلك

(١) سورة البقرة الآية ٢
(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٥
(٣) سورة فصلت الآية ٤٤

من أغراض تنكير المسند . . . وأما تعريفه فيكون كذلك لأغراض شتى منها : إرادة العهد بمعنى أن يكون المسند معلوما للمخاطب معهوداً له ، ولكنه لا يعلم المسند إليه ، وذلك بأن يعلم مخاطبك أن انطلاقا وقع ولكنه لايدرى عن ، فتقول له : « زيد المنطلق » ، تعريف المسند هنا أفاد إرادة العهد ، أى : الانطلاق المعهود لدى صاحبك ، فإذا كان لا يعهد انطلاقا ولا يعلمه قلت له : « زيد منطلق » ، تريد مجرد إخباره بوقوع انطلاق من زيد : ولذا كان من الخطأ أن تقول : زيد المنطلق وعمرو ؛ لأنك تتحدث عن انطلاق معروف للمخاطب ومعين فإذا أثبته لزيد ، لايصح لك أن تثبته ثانية لعمرو ، لأن هذا تناقض . . فالصواب أن تقول : زيد منطلق وعمرو . . أو تقول زيد وعمرو المنطلقان ، ويتضح لك هذا أكثر عندما تقول مثلا : امرؤ القيس هو القائل :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لا يصح أن تقول : امرؤ القيس هو القائل هذا البيت وأبو ذؤيب الهذلى ، إنك إن قلت ذا حاولت محالا وقلت ما ليس بقول .

ومن أغراض تعريف المسند . إفادة قصره على المسند إليه ، تقول : زيد الشاعر وعمر الشجاع وحاتم الجواد . تريد بهذا قصر المسند على المسند إليه قصرا ادعائيا بهدف المبالغة فى الوصف ، ويكون ذلك غالبا فى مقامات المدح والفخر والرثاء ونحوها .. انظر إلى قول المتنبى :

ودع كل صوت دون صوتى فإننى أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

أراد المبالغة فى قوة شاعريته ، فقصر الصياح بمعنى إنشاد الشعر عليه قصرا ادعائيا ، فهو الصائح وغيره من الشعراء يرددون صوته ، وينهجون نهجه . ومن الخطأ أيضا أن تقول فى مثل هذا : عمرو الشجاع وخالد ، إذ كيف تخص عمرا بالشجاعة ثم تشرك فيها غيره ، فالصواب أن تقول : عمرو وخالد الشجاعان أو تنكر المسند فتقول : عمرو شجاع وخالد .

ومن ذلك قول ابن الدمينة :

ونحن التاركون على سليل مع الطير الخوامع يمتريننا(١)

يريد أنهم هم الذين قتلوا سليلا وتركوهم طعاما للطير الخوامع ، هم الذين فعلوا ذلك دون سواهم ... وتأمل قول عمرو بن كلثوم :

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا
بأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا الغارمون إذا عصينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكمون بما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا

تجد أنه يفخر بقصر تلك الصفات عليهم قصراً حقيقيا ادعائياً بمعنى أنها لا تتعداهم ولا تتجاوزهم إلى غيرهم على سبيل المبالغة والادعاء ... وخذ قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)(٢) ، أي : أنت الأعلى لا هم ، فتعريف المسند أفاد قصره على المسند إليه قصراً إضافيا بمعنى أنه لا يتعداه إلى هؤلاء السحرة .

ومنها أن يعرف المسند بالموصولية فيفيد بالإضافة إلى قصره على المسند إليه دقائق ولطائف يدركها اللماح الذواقة ، الخبير بالأساليب الرفيعة والتعبيرات الجيدة .. انظر إلى قول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

تجد أن تعريف المسند بالموصولية أفاد بالإضافة إلى قصر مدلول الصلة على المتنبي ، اشتهار جملة الصلة وانشغال الناس بها فهي أمر معروف بين الناس

---

(١) الخوامع : الضباع
(٢) سورة طه آية ٦٧ ، ٦٨

جميعا يعرفونه ولا أحد يجهله . وتأمل الآيات الكريمة: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)(١) ، وقوله عز وجل : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(٢) .

فالمسند في الآيات الكريمة مقصور على المسند إليه قصراً حقيقياً ، ثم إن إيثار التعريف بالموصولية أفاد انشغال الخلق بتلك الأمور المثارة في جملة الصلة واشتهارها بينهم وخوضهم فيها وترددها على الأسماع وتلك ميزة يمتاز بها التعريف بالاسم الموصول ...

ومنها أن يقيد المسند بقيد فيفيد تعريفه عندئذ قصره مقيدا بذلك القيد على المسند إليه وكأنه أي: المسند قد صار نوعاً خاصا وجنسا برأسه ، تقول: زيد الكريم حين يبخل الناس وهو الوفي حين لا تطن نفس بنفس خيراً وهو المقدام حين تفر الأبطال، فالمقصور ليس مطلق الكرم وإنما هو نوع خاص منه وكذا الوفاء والشجاعة في المثالين الأخيرين .. ومن ذلك قول الأعشى :

هو الواهب المائة المصطفاة   إما مخاضا وإما عشاراً(٣)

فإنه قصر هبة المائة من الإبل في إحدى الحالتين : مخاضا أو عشاراً لا هبتها مطلقا، ولا الهبة المطلقة ، فالهبة مقيدة بالمائة المصطفاة ، والمائة مقيدة بكونها إما مخاضا وإما عشاراً .. ومنها إفادة التقرير وبيان أن ثبوت المسند للمسند إليه أمر مقرر بارز ، وظاهر ظهورا لا يخفى على أحد .. كما في قول حسان :

(١) سورة المؤمنون الآيات ٧٨ – ٨٠ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٣ .

(٣) المخاض : الحوامل من النوق اسم جمع ويقال للواحدة بنت مخاض والعشار : جمع عشراء وهي من النوق كالنفساء من النساء أو التي مضى لحملها عشرة أشهر ..

وإن سنام المجد من آل هاشم　　　بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

أراد بتعريف العبد تقرير صفة العبودية لوالده . وأنها أمر مشهور وذائع لا يخفى على أحد ، ولم يرد قصر العبودية على الوالد لا حقيقة ولا ادعاء ... ومثله قول الخنساء فى رثاء صخر :

إذ قبح البكاء على قتيل　　　رأيت بكاءك الحسن الجميلا

لم ترد قصر صفة الحسن على بكائها صخرا ، وإنما أرادت أن تقرر لبكائه صفة الحسن وأن تجعل حسن بكائه بيناظاهراً لا يجهله أحد ولا ينكره منكر . .

ومنها الإشارة إلى بلوغ المسند إليه فى الاتصاف بالمسند مبلغ الكمال كقولك : « هو البطل المحامى » ، تريد أن تقول للمخاطب : هل تصورت البطل المحامى وكيف يكون الإنسان حين يبلغ فى هذه الصفة مبلغها الأعلى ؟ ، إذا تصورت هذا فى نفسك فعليك بفلان فهو الذى تجد فيه الصفة كما تمثلتها وتخيلتها . . وكذا تقول : هو الحامى لكل حمى ، والمرتجى لكل ملمة والدافع لكل مكروه . . ومن ذلك قول ابن الرومى .

هو الرجل المشروك فى جل ماله　　　ولكنه بالمجد والحمد مفـــرد

يريد منك أن تسبح بخيالك فى تصور رجل لا يتميز عن عفاته وطالبى معروفه فهو وهم سواء يأخذون من المال ما يشاءون ، فإذا حصلت صورته فى مخيلتك فاعلم أنه ذلك الرجل . . ومثله قول الفرزق فى هجاء الحجاج :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف　　　كما كان عبداً من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذلة　　　يراوح أبناء القرى ويغادى

أراد بقوله : « هو العبد » : بلوغه الغاية القصوى فى الاتصاف بصفة العبودية وذل الرق فى هذا الزمان حتى خلصه بنو مروان من قيدها فصار له شأن وكيان . .

ومنها إفادة تعظيم المسند إليه وذلك عند إضافة المسند إلى مايكسبه التشريف والتعظيم ، ويسمو به ، ويرفع شأنه ، كما فى قوله تعالى : (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)[1] ، وقوله جل وعلا : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)[2] ، فقد اكتسب المسند إليه بإضافة المسند إلى لفظ الجلالة التعظيم ، وعلو منزلته ورفعة شأنه ولا يخفى عليك مافى تنكير « أشداء » و « رحماء » من تفخيم وتعظيم . .

تخصيص المسند بالوصف أو بالإضافة : قالوا : إن الغرض من تخصيص المسند بالوصف أو الإضافة هو تربية الفائدة وتكثيرها ، وجعلها أتم وأكمل ، أو بمعنى آخر تكثير المعنى والدلالة على غزارته ، لأن زيادة المبنى كما قالوا تدل على كثرة المعنى ، تقول مثلا : امرؤ القيس شاعر فارس وزهير شاعر حكمة فقد كثر المعنى فى الأول بالوصف وتمت الفائدة فى الثانى بالإضافة . . ومنه قول الشاعر :

حمى الحديد عليهم فكأنه
ومضان برق أو شعاع شموس

وقول الآخر :

وكنت امرأ لا أسمع الدهر سبة
أسب بها إلا كشفت غطاءها

فقد خصص المسند فى البيت الأول بالإضافة : « ومضان برق أو شعاع شموس » ، وخصص فى البيت الثانى بالوصف : « امرأ لا أسمع الدهر سبة أسب بها . . . » ومنه قوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)[3] ، فقد خصص المسند بالإضافة فى

---

(١) سورة مريم آية ٣٠ . (٢) سورة الفتح آية ٢٩
(٣) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

قوله : « أبا أحد من رجالكم » لتكثير الفائدة وعمومها ، فهو عليه الصلاة والسلام ليس أبا لأحد منهم ، ثم عرف المسند بالإضافة فى قوله : « رسول الله وخاتم النبيين » ، لإفادة التعظيم وشهرة اتصافه صلى الله عليه وسلم بتلك الصفة . .

تقديم المسند : المسند إليه إذا كان مبتدأ فرتبته التقديم نحو : زيد قائم وعمرو منطلق وخالد فى الميدان ، وإذا كان فاعلا فرتبته التأخير أى الوقوع بعد الفعل « المسند » نحو قام زيد ، ويعطى محمد الجزيل ، فإذا قدم المسند إليه على خبره الفعلى كان ذلك لأسرار بلاغية - كما درست - ، وكذلك إذا قدم المسند على المسند إليه الذى رتبته التقديم « المبتدأ » فإن هذا التقديم يكون لأسرار ومزايا بلاغية أهمها :

١ - إفادة القصر أى قصر المسند إليه على المسند المقدم كما فى قوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)(١) ، والمعنى : إن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على كونه لكم لا يتجاوزكم إلى ، ودينى الذى هو التوحيد مقصور على كونه لى لا يتجاوزنى إليكم . . فالمقصور عليه هو المسند المقدم والمقصور هو المسند إليه المؤخر ، وكذا القول فى الآيات الكريمة : (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)(٢) . (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)(٣) . . (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)(٤) . . (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)(٥) ، فالتقديم فى هذه الآيات الكريمة أفاد قصر المسند إليه على المسند المقدم . . ومنه قوله تعالى

---

(١) سورة الكافرون ٦

(٢) سورة الأنبياء ٩٧ .

(٣) سورة الغاشية ٢٥ ، ٢٦

(٤) سورة القيامة ٢٩ ، ٣٠

(٥) سورة القيامة ١٢

فى وصف خمر الجنـــة : (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)[١] ، فتقديم الجار والمجرور فى قوله : « لا فيها غول » ، أفاد نفى الغول عن خمر الجنة وإثباته لخمور الدنيا أو بمعنى آخر ، أفاد قصر عدم الغول على خمر الجنة بحيث لا يتجاوزه إلى خمور الدنيا ، ولو قيل : « لا غول فيها » لأفاد ذلك مجرد نفى الغول عن خمر الجنة دون تعرض لخمور الدنيا ، ولذا جاء قوله تعالى : (الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ)[٢] . . بدون تقديم إذ المراد نفى الريب عن القرآن دون تعرض لغيره من الكتب السماوية ولو قيل : « لا فيه ريب » ، لأدى هذا إلى نفى الريب عن القرآن وإثباته لغيره وهو غير مراد . . . ومن أقوالهم قول أبى العلاء :

تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد

أفاد التقديم قصر الحياة على التعب قصراً ادعائيا ، أى : أن ما فيها من فترات الراحة والأنس والمسرة لا اعتداد به . .

وقول الآخر :

رضينا قسمة الجبار فينا لنا علم وللأعداء مال

وقوله :

وليس بمغن فى المودة شافع
إذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقوله :

إذا نطق السفيه فلا تجبه
فخير من إجابته السكوت

---

(١) سورة الصافات ٤٥ - ٤٧

(٢) سورة البقرة ١ ، ٢

ولا يخفى عليك معرفة موطن التقديم والمقصور والمقصور عليه في هذه الأبيات . .

٢ ـ التنبيه من أول الأمر على أن المسند خبر لا نعت ، كما في قول حسان ابن ثابت ـ رضى الله عنه ـ في مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

فإنه لو قال : « همم له لا منتهى لكبارها » ، لتوهم أن الجار والمجرور « له » نعت لا خبر ، لأن النكرة تحتاج إلى الوصف حتى يكون مسوغا للابتداء بها ، ولتوهم أن الخبر هو الجملة بعده ، وهذا لا يتفق مع غرض المدح ، لأن الشاعر يريد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لا مدح همه . . ومن ذلك قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)(١) حيث قدم الجار والمجرور « لكم » على المسند إليه « مستقر » ، لدفع توهم أنه نعت وليس بخبر . . .

٣ ـ إفادة التشويق إلى ذكر المسند إليه ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » ، وكقول محمد بن وهيب في مدح أبي إسحاق :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وقول الآخر :

ثلاثة يذهبن الغم والحزن الماء والخضرة والوجه الحسن

وقول الثالث :

ثلاثة ليس لها إياب الوقت والجمال والشباب

وقول ابن الرومي :

وكالنار الحياة فمن رماد أواخرها وأولها دخان

(١) سورة الأعراف آية ٢٤ .

فتقديم المسند فى هذه الشواهد أفاد التشويق إلى معرفة المسند إليه والإفصاح عنه ، ولا يخفى عليك القصر فى البيت الأخير ، أى : قصر الحياة على كونها نارا لا استقرار فيها ..

٤ — إفادة التفاؤل .. كما فى قول الشاعر :

سعدت بغرة وجهك الأيام وتزينت ببقائك الأعوام

فالمسند «سعدت» قد قدم ليفيد التفاؤل لأنه من جنس السرور والسعادة، وكذلك «تزينت» قدم على المسند إليه «الأعوام» لنفس الغرض ..

٥ — إظهار التألم والتضجر .. كما فى قول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بد

إلى غير ذلك من الأغراض التى تقتضى تقديم المسند على المسند إليه ..

تقييد الفعل بأدوات الشرط : إن وإذا ولو : اهتم البلاغيون بإن وإذا ولو من أدوات الشرط ، وذلك لما يكمن وراء تقييد المسند «الفعل» بهذه الأدوات الثلاث من اعتبارات بلاغية ، وملاحظات دقيقة ..

قال البلاغيون : إن «إن وإذا» للشرط فى الاستقبال ، بمعنى تقييد حصول الجزاء بحصول الشرط فى المستقبل نحو إن تزرنى أكرمك .. إذا جاءك الفقير فأحسن إليه ، وتختلف «إن» عن «إذا» فى أن «إذا» تستعمل فى الشرط المقطوع بوقوعه ، وذلك بأن يكون الشرط مجزوما بوقوعه فى المستقبل نحو : إذا غربت الشمس حل الظلام .. إذا أذن المؤذن أسرع المسلم للصلاة .. أو يظن ظنا قويا وقوعه فيه نحو : إذا جئتنى أكرمتك ، إذا كنت تعتقد اعتقادا قويا أنه سيأتى وترجح مجيئه على عدم مجيئه .. ولذا كان الغالب فى الفعل المستعمل مع إذا أن يكون بلفظ الماضى الإشعار

بتحقيق الوقوع .. أما « إن » فتستعمل فى الشرط غير المقطوع بوقوعه ، بأن يتردد فى وقوعه فى المستقبل ، أو يظن عدم وقوعه ويترجح على الوقوع ، أو يكون مما لا يقع إلا نادراً ، كما سترى فى الشواهد .. فإذا كان الشرط مجزوما ومقطوعاً بعدم وقوعه فى المستقبل ، فلا تستعمل فيه « إن ، ولا ، إذا » إلا لنكتة بلاغية . كما سنبين فى الشواهد ... انظر إلى قوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا : لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ)(١) ، تلاحظ أنه قد استعملت « إذا » فى جانب الحسنة ، و« إن » فى جانب السيئة ، وذلك لأن مجىء الحسنة أمر مقطوع به ، محقق الوقوع ، إذ المراد بالحسنة ، الحسنة المطلقة عن التقييد بنوع معين ، ولذا عرفت تعريف الجنس لتشمل كل فرد من أفراده ، وكل نوع من أنواع الحسنات ، وشأن هذا أن يقع كثيراً لاتساعه وكثرة أفراده وأنواعه . ولكون مجىء الحسنة محققاً ومقطوعا بوقوعه ، فقد عبر عنه بلفظ الماضى : « جاءتهم الحسنة » أما إتيان السيئة فغير محقق الوقوع ، إذ نادراً ماتقع السيئة بالنسبة إلى الحسنة ، ولذا استعملت « إن » معها ، ونكرت السيئة لإفادة التقليل ، وعبر عن الإصابة بلفظ المضارع « تصبهم » المشعر بعدم تحقق الوقوع .. وتأمل قوله تعالى : (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)(٢) ، تجد أنه قد نكرت الرحمة « رحمة » ، وعبر عن الإذاقة بالماضى « أذقنا » ، واستعملت « إذا » ، وذا للدلالة على أن إذاقة الناس قدراً قليلا من الرحمة أمر مقطوع به .. ثم استعملت « إن » ، والمضارع « تصبهم » ونكرت السيئة « سيئة » لإفادة أن إصابة السيئة لهم أمر غير مقطوع به ، فالله عز وجل لا يؤاخذهم بما كسبوا بل يعفو عن كثير ، (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى

---

(١) سورة الأعراف آية ١٣١ (٢) سورة الروم آية ٣٦ .

ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)[1] ..

وتأمل قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)[2]، وقوله عز وجل : (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)[3] ، تجد أن قوله عز من قائل : « أذاقهم منه رحمة » « أنعمنا على الإنسان » ، مقطوع بوقوعه ، وهذا واضح كما بينا فى الآيتين السابقتين ، ولذا استعملت « إذا » فى الموضعين ، أما قوله تعالى : « وإذا مس الناس ضر » ، « إذا مسه الشر » . . . فقد يلتبس عليك التعليق « بإذا » فيهما ، وتقول : إن مس الضر أو الشر ينبغى أن يكون نادراً وغير مقطوع بوقوعه ، فالموضع موضع « إن » ، لا « إذا » ، ولكن هـذا الالتباس سرعان مايزول عندما تتأمل السياق فى الآيتين وتعرف أن الحديث عن الإنسان الكافر الذى إذا مسه شر أو ضر دعا ربه منيبا إليه ، دعاه دعاء عريضاً ، فإذا ما أنعم الله عليه ، أعرض ونأى بجانبه وكفر بأنعم ربه ، ولهذا توعدهم الله عز وجل « فتمتعوا فسوف تعلمون » ، فمثل هذا الكافر ينبغى أن يكون مس الضر أو الشر له فى حكم المقطوع به ، وتلاحظ التعبير بلفظ « المس » فى الآيتين وهو أقل من الإصابة أو الإذاقة ، ثم تنكير الضر « ضر » ، وتعريف الشر بأل الجنسية المفيدة أى نوع من أنواع الشر ، فإذا ماأضفت ذلك إلى الإنسان المتحدث عنه وقد وقفت على حقيقته ، تيقنت أن الشرط ينبغى أن يكون مجزوما به ومقطوعا بوقوعه ... وعندما تتأمل الشعر الجيد تجد للتعليق بهاتين الاداتين موقعاً لطيفا ومذاقاً حلوا .. اقرأ قول أبى الطيب المتنبى :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

---

(١) سورة فاطر آية ٤٥ (٢) سورة الروم آية ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) سورة فصلت آية ٥١ .

تجده قد استخدم «إذا» فى جانب إكرام الكريم، فدل على أنه أمر محقق، وينبغى أن يوجد دائما وأن يقع كثيراً ، ثم استخدم « إن » فى جانب إكرام اللئيم ، فدل على أنه نادراً مايقع ، لأن النفوس تنفر من اللئـــام وتأبى إكرامهم . . . وتأمل قوله فى بيت آخر مخاطبا سيف الدولة :

أجزنى إذا أنشدت شعراً فإنما
بشعـــرى أتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت دون صوتى فإننى
أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

تجده قد استعمل « إذا » فدل باستعمالها على قوة شعره ، وكثرة إنشاده ، وذيوعه فى الناس ، حيث غلب شعر الشعراء فصاروا يرددونه وصار هو الصائح المحكى . . . وخذ قول قعنب بن أم صاحب فى الهجاء :

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به   وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

تجده قد دل « بإذا » على أن سماع الخير عنه أمر محقق ويقع كثيراً ، ودل « بإن » على أن ذكره بسوء نادراً مايقع ، فهو لايفعل إلا مايحمد عليه ويستحق به الثناء وشكر الشاكرين . . وقول محمد بن المولى فى مدح يزيد ابن قبيصة والى مصر فى عهد أبى جعفر :

وإذا صنعت صنيعة أتممتها   بيدين ليس نداهما بمكدر

تراه قد دل « بإذا » على كثرة صنائعه وتحقق فعله الخير وسد حاجات المحتاجين . . ثم تأمل قول سعد بن ناشب :

فيالرزام رشحوا بى مقـــدما   إلى الموت خواضا إليه الكتائبا
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه   ونكب عن ذكر العواقب جانبا

تجده قد دل باستخدام « إذا » على كثرة همه وتحقق وقوعه ، فهو لايخشى

العواقب بل يدعها جانبا ويسرع إلى الموت خواضا إليه الكتائبا. وتدبر تلك الصورة البديعة : « ألقى بين عينيه عزمه » حيث جسد العزم وأبرزه محسوساً مشاهداً أمام عينيه ... وعد إلى النظم الكريم : فتأمل قوله تعالى :
(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[1] ، تجد أن إيثار الأداة « إن » بالتعبير أفاد أن إرادة الضر غير محققة الوقوع وأنها نادراً ماتقع ، ومما يقوى هذا استخدام المضارع « يردن » ، ولفظ « الرحمن » الذي ينبيء بالرحمة وعدم إرادة الضر ، ثم تنكير الضر « بضر » لإفادة التقليل ولا يخفى عليك مافي الآية من التعريض ، إذ المراد : أتتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لاتغن عنكم شفاعتهم شيئا ولا ينقذونكم إنكم إذا لفي ضلال مبين .. وإجراء الآية على التعريض فيه ترغيب لهؤلاء في قبول الحق واستمالة لهم نحو الهداية والإيمان بالله وحده ، لأنه ترك التصريح بنسبتهم إلى الباطل والضلال ، ومحض النصح لهم حيث لم يرد لهم إلا مايريده لنفسه[2] .. ومما جاء من ذلك وقد أريد به التعريض أيضا قوله تعالى :
(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)[3] ، وقوله : (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)[4] ، وقوله عز وجل :
(فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[5]
ولا يخفى عليك السر البلاغي الكامن وراء استخدام « إن » في الآيات الكريمة ، وللتعريض في الآيات الكريمة بالإضافة لما سبق ، فائدة أخرى جليلة وهي الإشارة إلى سلطان الألوهية القاهر ، فمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قربه

---

(١) سورة يس آية ٢٣ ، ٢٤ . (٢) انظر الإيضاح ١/١٩٦ .
(٣) سورة الزمر آية ٦٥ . (٤) سورة البقرة آية ١٤٥ .
(٥) سورة البقرة آية ٢٠٩ .

ربه واصطفاه ، وهؤلاء الصفوة من المهاجرين والأنصار يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم ، فالمعول عليه وأساس التفاضل بين البشر إنما هو التقوى والعمل الصالح ، وفى هذا تعميق وتحديد لصفة البشرية ، وحفظ لعقيدة التوحيد حتى لا يشوبها ما شابها فى الشرائع الأخرى حيث قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ولهذا المعنى ترى القرآن الكريم يذكر الأنبياء بلفظ العبد : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ)[1] ، (قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا)[2] ، وذلك الإشارة إلى أن البشرية جميعها سواء فى العبودية ، وإلى أن فضيلة هؤلاء إنما كانت بالعبادة[3] ..

وعد إلى التعليق « بإن » و « وإذا » فاقرأ قوله تعالى : (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)[4] تجد أن التعليق بإن فى الآية الكريمة ، أفاد إعراض هؤلاء الكفرة وشدة رفضهم وتعاميهم عن رؤية الآيات ، فآيات الله فى كونه كثيرة لا تتناهى :

فى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ولكن هؤلاء قد تعاموا عن رؤيتها ، لم ينقبوا عنها ، لم ينظروا نظر متأمل ، وإن حدث وعرضت لهم آية دون ان يبحثوا عنها ، وتبين لهم وجه الحق فيها أعرضوا وقالوا : سحر مستمر .. واقرأ قوله تعالى : (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا)[5] ، وقوله عز وجل : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ)[6] ، تجد التعليق « بإذا » فى الآيتين أفاد تحقيق وقوع الشرط ،

---

(١) سورة الجن آية ١٩ (٢) سورة مريم آية ٣٠ .
(٣) انظر خصائص التراكيب ٢٧٠ (٤) سورة القمر آية ٢ .
(٥) سورة الزلزلة آية ١ (٦) سورة النصر

فزلزلة الأرض وإخراجها أثقالها فى ذلك اليوم من الأحداث الثابتة المحققة ، ومجىء نصر الله الذى وعد به سبحانه وتعالى، حق ثابت لا ريب فيه، ولا يتردد فى إثباته مؤمن ، وقد جاء كما وعد جل وعلا .. وخذ قوله تعالى : (وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ)[(١)] وقوله عز وجل : (إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)[(٢)] ، أفاد التعليق « إن » ، ضعف شوكة الكفرة وعدم جرأتهم على قتال المؤمنين ، فقتالهم أمر نادر الوقوع ، غير مقطوع به وكذا الظفر بالمؤمنين ، أى : ظفر هؤلاء الأعداء بالمؤمنين أمر غير محقق وغير مقطوع به ، « إن يثقفوكم » أى : يظفروا بكم : ثم تأمل قوله : « وودوا » بالماضى عطفاً على المضارع : « يكونوا » و « يبسطوا » ، وما ينبىء به استعمال الماضى فى موضع المضارع من رغبة الكفرة وتمنيهم وحرصهم الشديد على أن يتحقق هذا الفعل ، كأنه قيل : وودوا قبل كل شىء كفركم وارتدادكم عن دينكم ، فهم يتمنون لكم مضار الدنيا والآخرة من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفاراً ، وردكم كفارا أسبق المضار عندهم لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، والعدو أهم شىء عنده أن يقصد أعز شىء عند صاحبه ... هذا هو رأى الزمخشرى ويرى الخطيب أن : « وودوا » ليس معطوفا على الجزاء بل هو معطوف على الجملة الشرطية ، كما فى عطف : « ثم لا ينصرون » فى الآية السابقة ، وذلك لأنه ليس فى تقييد : « وودوا » بالشرط فائدة ، إذ ودادتهم أن يرتدوا كفاراً حاصلة وإن لم يظفروا بهم[(٣)] ...

وللجهل بموقع « إن وإذا » يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب

---

(١) سورة آل عمران آية ١١١ (٢) سورة الممتحنة آية ٢

(٣) انظر الإيضاح ١٩٧/١

فيغلطون .. انظر إلى قول عبد الرحمن بن حسان يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها :

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجتي　　تولى سواكم أجرها واصطناعها
أبى لك كسب الحمد رأى مقصر　　ونفس أضاق الله بالخير باعها
إذا هي حثته على الخير مرة　　عصاها وإن همت بشر أطاعها

فالأبيات - كما ترى - في الهجاء والذم ، إذ المخاطب ذو رأى مقصر ، ونفسه أضاق الله بالخير باعها ، وكان يقتضى ذلك أن يقول : إن هي حثته على الخير مرة عصا وإذا همت بشر أطاعها ، ليناسب مقام الهجاء والذم ، وتكون تلك النفس لا تهم بالخير إلا نادراً ، وإن همت به مرة عصاها ، وتهم كثيرا بالشر وإذا همت به أسرع إلى إجابتها .. ولذا قال الزمخشرى: لو عكس لأصاب .. وقد حاول البعض أن ينتصر للشاعر ، وأن يجيب عنه، فرأى أنه يقصد إثبات حث نفس الوالى له على الخير ووقوعه منها كثيرا وعلى الرغم من ذلك فهو يعصيها ويقاومها ولا يجيبها ، وأنه يبادر إلى الشر بمجرد أن تهم به نفسه ، وهذا أبلغ في هجاء الوالى وذمه .. ولكن يدفعه قوله « مرة » ، فهو تصريح بأن حثها على الخير قليل ونادرا مايقع ، وإن وقع فإنه يقع مرة واحدة ... وتأمل قول أبى تمام مادحاً :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى　　معى وإذا ما لمته لمته وحدى

فقد مر بك هذا البيت في الحديث عن فصاحة الكلام وتبين لك أن قوله: «وإذا مالمته» لا يناسب مقام المديح ، لأنه يدل على أن اللوم يقع من الشاعر كثيرا ، ولو قال : وإن لمته لمته وحدى ، لأصاب وأجاد ، ومما يحمد للشاعر في البيت أنه قابل المدح باللوم والذى يقابل المدح هو الهجاء لا اللوم وكأن الممدوح لا يفعل ما يستحق عليه هجاء ، وإنما قد تصدر منه أشياء يسيرة يلام عليها فقط[1] .

(١) انظر ص ٢٢ من هذا الكتاب .

استخدام «إن» فى موضع «إذا»، و«إذا» فى موضع «إن»: وقد تستعمل «إن» فى موضع «إذا»، أى فى الشرط المقطوع بوقوعه، المجزوم بتحققه، وتستعمل «إذا» فى موضع «إن»، أى فى الشرط غير المقطوع بوقوعه، وذلك لاعتبارات بلاغية يقتضيها المقام ويستدعيها الحال.. تقول: إن طلعت الشمس ذهبت إلى الحبيب. فطلوع الشمس أمر محقق مقطوع بوقوعه، لحقه أن تدخل عليه «إذا» لا «إن»، ولكنك استخدمت «إن» لهدف بلاغى، وهو استبطاؤك طلوع الشمس، وامتداد الظلام عليك وطول الليل، وكأنه لا يمر، ولا يريد أن ينجلى بصبح، وأنت تترقب وتنتظر بزوغ الضوء حتى تسرع إلى لقاء الحبيب.. إن استخدامك «لإن» أنبأ بامتداد الليل، وكأن طلوع الشمس صار بالنسبة لك أمرا غير محقق الوقوع، صار أمرا نادراً.. وتقول: إن مات فلان البخيل انتفع الناس بماله، فالموت أمر محقق الوقوع: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)[1]، ولكنك استخدمت إن لتشعر باستثقالك وجود البخيل وعدم ارتياحك له ورغبتك فى التخلص منه، وكأنك لطول تمنيك موته والتخلص منه، صرت تستبعد وقوعه، صار موته أمراً غير مجزوم بوقوعه على الرغم من تحققه وأنه آت لا محالة.. وتقول لمن يؤذى أباه ولا يحسن إليه ولا يبره: إن كان أباك فلا تؤذه.. إن كان أباك فأحسن عشرته وبره، فكونه أباه أمر محقق ولكنك جعلته أمرا غير مجزوم به، وكأنك تريد بهذا تأنيب المخاطب وتوبيخه وحثه على بر أبيه والإحسان إليه..

وتأمل قوله عز وجل: (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ)[2] فى قراءة من قرأ بكسر همزة «إن»، والمعنى أنهملكم فنضرب عنكم القرآن بترك إنزاله لكم، وترك ما فيه من الأمر والنهى والوعد

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥ (٢) سورة الزخرف الآية ٥

والوعيد إن كنتم مسرفين ، فكونهم مسرفين أمر مقطوع به وحقيقة ثابتة مقررة ، وقد استعملت « إن » في هذا الشرط المقطوع به لقصد توبيخهم على الإسراف ، وتصوير أن المقام لا يحتمل هـــذا الإسراف فالعاقل لو تدبر وتأمل آيات الله في كونه لما أسرف ، ولا تلع عن إسرافه وعناده ، فحق هذا الإسراف الانتفاء وألا يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير ، كما تفرض المحالات ، ولذا استخدمت « إن » في الآية الكريمة على الرغم من تحقق إسرافهم ، ومثله قوله تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ)[1] ، فهم في ريب قطعاً ، وقد استخدمت « إن » في هذا الأمر المحقق توبيخا لهم ، ولإفادة أن المقام يشتمل على ما يزيله ويقلعه من أصله ، وهو الآيات الدالة على أنه منزل من عنـد الله ، فوقوع الريب منهم ينبغي ألا يكون إلا على سبيل الفرض ، كما يفرض المحال . . ويرى بعض البلاغيين أن تكون الآية من تغليب غير المرتابين من المخاطبين على المرتابين منهم ، لأنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما ينكره عناداً وتكبراً ، فجعل الجميع كأنهم لا ارتياب لديهم ، ولذا استعملت فيه « إن » ، على سبيل الفرض للتبكيت والإلزام[2] . . ومنه قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ . .)[3] ، فالقوم وهم الكفرة في ريب حقيقة ، وقد استعملت « إن » توبيخاً لهم وإشارة إلى أن الأدلة على إمكان البعث بينة جلية ، فلا ينكر وقوعه ويشك فيه إلا معاند أو جاهل ، فحق هـذا الريب الواقع منهم ، ألا يوجد إلا على سبيل الفرض كما يفرض المحال . . ويمكن جعل الآية من قبيل التغليب كما في الآية السابقة . . وتأمل الآيات الكريمة : (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ . .)[4] . . (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣
(٢) انظر المطول ١٥٨
(٣) سورة الحج الآية ٥
(٤) سورة آل عمران آية ١٦٠

الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون)[1] . . (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا)[2] تجد أن « إن » قد دخلت على أمر محقق واقع لا محالة أو مجزوم بوقوعه ، وهو الموت أو القتل فى سبيل الله ، ونصر الله المؤمن ، ماعدا قوله تعالى : « وإن يخذلكم » نظرا لأنه تعالى للمؤمنين لا يقع إلا نادرا ، وهو إن وقع يكون ابتلاء واختبارا ولحكمة لا يعلمها إلا هو ، وعندما تفتش عن السر البلاغى الكامن وراء استعمال « إن » فى الآيات الكريمة تراه دقيقا ولطيفا ، فقوله : « إن ينصركم الله » تشير إلى أن أهليتكم للنصر أمر عزيز نادر ، فالله ينصر من ينصره ، والذين ينصرونه هم فئة قليلة . . وقوله : « ولئن متم أو قتلتم . . » تشير إلى غفلتهم وكأنهم لعدم علمهم لما بعد الموت قد صاروا فى حال من لا يتوقع وقوعه ، وفيه أيضا أن خلوص الموت لله مما هو عزيز نادر . . وقوله : « أفإن مات أو قتل » ، تشير إلى مدى حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وتعلقهم به إلى حد صاروا فيه كأنهم يستبعدون موته أو استشهاده فى سبيل الله ويعدون ذلك نادرا عزيزا وغير خاف عليك ماوقع منهم رضوان الله عليهم عندما سمعوا نبأ وفاته عليه الصلاة والسلام ، وقول عمر عندما سمع الآية من أبى بكر رضى الله عنهما : « والله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت إلى الأرض » . .

وانظر إلى قول المتنبى :

إذا صرف النهار الضوء عنهم دجا ليلان ليل والغبار
وإن جنح الظلام انجاب عنهم أضاء المشرفية والنهار

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٧ ، ١٥٨ (٢) سورة آل عمران الآية ١٤٤

فهو يتحدث عن مجاهدين أثاروا الغبار وأشهروا السيوف ، فإذا حل ظلام الليل رأيت ظلامين ، ظلام الليل وظلاماً ناجما عن الغبار المثار ، وإذا انجاب ظلام الليل رأيت ضوءين ، ضوء النهار ، وضوء السيوف ... فذهاب الليل وحلول النهار ، وذهاب النهار وحلول الليل من الأمور المحققة الثابتة ، وعلى الرغم من ذلك تجد الشاعر قد استعمل « إذا » في البيت الأول مفيدا بهذا أن ذهاب النهار وحلول الليل أمر محقق ثابت الوقوع .. ثم استعمل « إن » في البيت الثاني وكأن ذهاب الليل وحلول النهار من الأمور غير المحققة التي لا تقع إلا نادراً ، ويهدف الشاعر بهذا إلى تصوير حال هؤلاء المجاهدين وأنهم مستمرون في الجهاد والقتال ، فالليل ممتد متواصل والكفاح مستمر وكأنه لن يحل نهار مكان ليلهم الممتد ، ولا هدوء أو سكينة مكان كفاحهم المتواصل ، وإن حل ذلك ووقع فهو من الأمور النادرة ، وهذا معنى دقيق أبرزه الشاعر باستخدامه « لإن » في موضع « إذا » في البيت الثاني ..

وكما تستخدم « إن » في موضع « إذا » كذلك تستخدم « إذا » في موضع « إن » ، تقول لمن شك في عطف الأمير ، ويئس من قضاء حاجته ، وأخذ يقول : لا أدري أيكرمني الأمير ويتفضل علي بقضاء حاجتي أم لا ؟ ، تقول له : إذا أكرمك الأمير وقضى لك حاجتك فكيف يكون شكرك .. فكرم الأمير قد تشكك فيه الرجل وتردد وجعله من الأمور النادرة غير المقطوع بوقوعها ، وجعلته أنت باستخدامك « إذا » من الأمور الثابتة المحققة الوقوع ، وكأنك تريد الإشعار بأنه لا ينبغي الشك في كرم الأمير وتفضله .. وتأمل قول الأحوص :

إذا رمت عنها سلوة قال شافع ... من الحب ميعاد السلو المقابر

ستبقى لهـــا في مضمر القلب والحشا ... سريرة حب يوم تبلى السرائر

تجده يتحدث عن حب قد تغلغل بداخله ، وعشق قد استقر في قلبه

وأحشائه ، وهو حب باق ودائم لا يبلى ، بل سيبقى سره يوم تبلى السرائر ، ولو حاول الأحوص سلوا ناداه مناد وزجره زاجر : «ميعاد السلو المقابر» .. فالموضع — كما ترى — موضع «إن» ، لأن إرادة السلو ونسيان مثل هذا الحب من الأمور غير المحققة التي لا تقع إلا نادراً ، ولكن الشاعر أراد بإذاعة معنى دقيقاً ، مغزاه : أن هذا الحب باق حتى لو رمت سلوه وجزمت ، وثبت ذلك وتكرر مني ، ووقع كثيرا ، وصار من الامور المحققة المجزوم بها ، حتى لو حدث هذا لخبها باق ان يزعزع . وانظر إلى قول المتنبي مخاطبا سيف الدولة عندما تخلى عنه وتغير عليه :

إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

فلن يخفى عليك استخدام «إن» في الشطر الأول في موضع «إذا» واستخدام «إذا» في الشطر الثاني في موضع «إن» ، وذلك لأن سيف الدولة قد ثبت وتحقق تخليه عن الشاعر ، وسره ماقال حاسدوه ، وهو أي سيف الدولة من هو ، إنه لا يرضى لجريح أن يتألم ، وقلما يرضى لمكارم أن يقاسى ألم جرحه ، وكأن المتنبي بإيثاره هذا التعبير ، يريد أن يقول لسيف الدولة : ما كان ينبغي لما بيننا من الألفة والمحبة وطول الود والمخالطة ، أن يكون منك هذا التغير وأن يسرك ماقال حاسدنا وأن يثبت ويتحقق رضاك بآلامي وجراحي التي ستصيبني لفراقك والبعد عنك بل كان ينبغي أن يكون ذلك من الأمور النادرة . . ويتضح لك هذا المعنى في قوله :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

هذا وقد تدخل «إن» و «إذا» على الأمور المفروضة المحالة المجزوم بانتفائها وذلك لغرض بلاغي يقتضيه المقام . . تأمل قوله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)[1] ، تجد أن «إن» قد دخلت على

---

(١) سورة الزخرف آية ٨١

أمر مستحيل مجزوم بانتفائه وهو كون للرحمن ولد تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، والغرض من ذلك هو إرخاء العنان للمعاندين بفرض ذلك المحال تبكيتا لهم وتوبيخاً . . ومثله قوله تعالى : (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا)(١) ، فما آمنوا به ليس له مثل ، وقد فرض ذلك تبكيتا للكفرة وتسفيها لأحلامهم . . وقوله جل وجل : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)(٢) ، فهم يعتقدون أنه باطل وقد قالوا هذا على سبيل الفرض كما يفرض المحال ، وذلك لإعلان رفضهم وتمسكهم بضلالهم ، فهم لن يؤمنوا بالقرآن ولو فرض كونه حقا وتحقق هذا الغرض ، فليمطروا بحجارة من السماء أو يأتهم عذاب أليم ، أما الإيمان به فلا . . .

ويقول لك البخيل : إذا طرت فى السماء بجناحين كالطائر أعطيتك درهماً ، يريد أن يقطع كل أمل لك فى الحصول على شىء منه ، فلو تحقق المحال وطرت بجناحيك فى الجو حصلت على درهم منه ، ولكن هيهات هيهات ، أنى يتحقق لك هذا المحال . .

مجىء الماضى لفظا مع « إن » : قلت لك : إن « إذا » و « إن » للشرط فى المستقبل ، أى لتعليق حصول الجزاء على حصول الشرط فى الاستقبال ، فإذا دخلتا على الماضى فهو ماض لفظا مستقبل معنى نحو : إذا جاءنى الفقير أكرمته . . إن استجبت لزيد أحسن معاملتك ، فالمراد بالشرط والجزاء فى المثالين الاستقبال . . . ولكون « إذا » ، الأصل فيها أن تدخل على الشرط المجزوم بوقوعه ، كان الغالب فى الفعل المستعمل معها أن يكون بلفظ الماضى للإشعار بتحقق الوقوع على نحو ما مر بك فى الشواهد . . أما « إن » فالأصل

(١) سورة البقرة آية ١٣٧ (٢) سورة الأنفال آية ٣٢

فيها أن تدخل على الشرط غير المجزوم بوقوعه ، ولذلك ينبغى أن تدخل على المضارع فيقال إن تكرمنى أكرمك ، ولا يجىء الماضى مع « إن » لفظاً إلا لغرض بلاغى وهو إبراز غير الحاصل الذى يحدث فى المستقبل فى معرض الحاصل الذى وقع فى الماضى وتحققنا من وقوعه ، ويكون ذلك لأسباب عديدة منها : إظهار التفاؤل كقولك إن ظفرنا على الأعداء تحقق الأمان .. ومنها : الرغبة فى وقوع الشرط وحصوله ، كقولك : إن نجح خالد أو لم لنا .. إن قرأت البلاغة تكون لديك الذوق السليم .. ومنها : الإشارة إلى أن الفعل واقع لا محالة كقولك : إن مت كان كذا .. إن زالت الشمس جاء فلان ومما عبر فيه بالماضى مع « إن » رغبة فى تحقق الشرط وحصوله ، قوله تعالى : (وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[1] ، والمعنى : ولا تكرهوا إماءكم على الزنا إن أردن تحصنا ، والأصل : إن يردن تحصناً ، فعبر بالماضى إظهاراً للرغبة فى وقوع إرادة التحصن من الفتيات . . . وقد عبر « بإن » دون « إذا » الإشعار بندرة إرادة التحصن بينهن وأن الكثيرات كن يفعلن ذلك عن طواعية ورغبة فى البغاء .. أما فائدة تعليق النهى عن الإكراه بإرادة التحصن ، المشعر بأن الإماء إذا أردن البغاء فلا نهى ، فهى تبشيع هذه الصورة وحث المكره الغاصب على أن يأنف من هذه الرذيلة .. ووجه التبشيع والحث على الانتهاء هو إقراع سمعه والنداء عليه بأن أمته خير منه ، فقد آثرت التحصن على الفاحشة ، وهو يأبى إلا إكراهها على البغاء[2] .

هذا وقد تستعمل « إن » فى غير الاستقبال قياساً مطرداً ، إذا كان فعل الشرط « كان » ، كقوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ

---

(١) سورة النور الآية ٣٣

(٢) انظر الكشاف جـ ٣ ص ٦٦ .

وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)[1] ، وقوله عز وجل : (إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ .)[2]، وقوله تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ)[3] ، أى : إن حصل منكم ريب فيما مضى واستمر ذلك إلى وقت الخطاب . . . وربما ورد دخولها على غير كان وهو ماض . . كما فى الشواهد السابقة وكما فى قول الشاعر :

فياوطنى إن فاتنى بك سابق ‏ ‏ ‏ من الدهر فلينعم لساكنك البال

كما قد تدخل « إذا » على الماضى لفظا ومعنى على نحو ما ترى فى قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً)[4] ، وعلى الماضى الدال على الاستمرار كما فى قوله عز وجل : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ)[5]

بقى أن تعلم أن هاتين الأداتين : « إن وإذا » قد تستعملان لمجرد الربط فقط كما فى قوله تعالى : (إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا)[6] ولذا ينبغى أن يقال : إن هذه الأحكام التى ذكرها البلاغيون مبنية على الأكثر والغالب ، لا على القطع واليقين وأن هاتين الأداتين قد تكونان فى النادر لمجرد الربط بين الشرط والجزاء ، كما فى الآية المذكورة[7] .

وأن تعلم أيضا الرد على هؤلاء الذين يقولون : إذا كانت « إن » تدخل على الشرط غير المقطوع به ، وإذا تدخل على المجزوم بوقوعه ، فكيف تقعان فى القرآن الكريم والله تبارك وتعالى عالم بحقائق الأشياء على ما هى

---

(١) سورة يوسف آية ٢٧ ‏ ‏ ‏ (٢) سورة المائدة آية ١١٦
(٣) سورة البقرة آية ٢٣ ‏ ‏ ‏ (٤) سورة الكهف آية ٩٧
(٥) سورة البقرة آية ١٤ ‏ ‏ ‏ (٦) سورة النساء آية ١٣٥
(٧) انظر خصائص التراكيب ص ٦٤ .

عليه ويستحيل فى حقه تعالى الشك والتردد ، وكذا لا يتصور منه تعالى جزم ، لأنه علام الغيوب .. والرد عليهم هين وهو أن القرآن الكريم قد نزل على مذاهب العرب فى الكلام وجاء على طرقهم فى التعبير والقول ، ثم إن الأداتين من أدوات الشرط ، فالمعنى قائم على الربط والتعليق ، لا على الإخبار ..

استعمال « لو » : وأما « لو » فأصلها أن تكون للشرط فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط وانتفاء الجزاء ، فهى موضوعة للدلالة على امتناع الجزاء وعلى أن امتناعه ناشىء عن امتناع الشرط .. تقول : لو جئتنى لأكرمتك ؛ فيدل هذا على أن الإكرام لم يحدث ، لأن المجىء لم يتم ، أى أن الجواب قد انتفى لانتفاء الشرط ، ولذا قيل إنها حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ... وإذا كانت « لو » للشرط فى الماضى ، بمعنى أنها تدل على ارتباط مضمون الجزاء بمضمون الشرط فيما مضى ، فيلزم من هذا كون جملتيها فعليتين ماضيتين ، كما فى قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)[1] ، وكقول أبى العلاء :

ولو دامت الدولات كانوا كغيرهم
رعايا ولكن ما لهن دوام

ولا تدخل على المضارع إلا لنكتة بلاغية ، كما فى قوله تبارك وتعالى : (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ)[2] ، والمعنى : لو يطيعكم فى كثير من الوقائع لشق ذلك عليكم ولوقعتم فى هلاك وجهد ، فقد امتنع عنتهم بسبب امتناع استمراره — صلى الله عليه وسلم — على طاعتهم . فتلاحظ أنه قد عدل عن الماضى إلى المضارع فى الآية لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتا بعد وقت ، لأن المضارع يفيد الاستمرار والتجدد .. ومنه قول الشاعر :

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢ (٢) سورة الحجرات الآية ٧

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا
ومن دون رمسينا من الأرض سبسب[1]
لظل صدى صوتي وإن كنت رمة
لصوت صدى ليلى يهش ويطرب .

ومنه في غير « لو » قوله تعالى : (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)[2] ، فقد جاء قوله تعالى : « الله يستهزئ بهم » ، بعد قول المنافقين : « إنما نحن مستهزءون » ، لأن المضارع يفيد استمرار الاستهزاء على سبيل التجدد ، وهو أبلغ من الاستمرار والثبوت الذي تفيده الجملة الاسمية . . . وقوله تعالى : (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)[3] ، فلم يعبر عن الكسب بالماضي كما عبر عن الكتابة ، لأن كسبهم يتجدد بخلاف ما كتبوه .

وتأمل دخول « لو » على الفعل المضارع في قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ)[4] ، وقوله عز وجل : (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ)[5] ، وقوله جل وعلا : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ . .)[6] ، نجد أن « لو » قد دخلت على المضارع في الآيات الكريمة لتنزيله منزلة الماضي في تحقق الوقوع لصدوره عمن لا خلاف في صدق إخباره ، كما نزل « يود » في قوله تعالى : (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)[7] منزلة « ود » ، لأن الفعل الواقع بعد « رب » المكفوفة يجب

---

(١) الرمس : القبر . وسبسب : امتداد واتساع .
(٢) سورة البقرة آية ١٥ (٣) سورة البقرة آية ٧٩ .
(٤) سورة السجدة آية ١٢ (٥) سورة الأنعام آية ٢٧ .
(٦) سورة سبأ آية ٣١ (٧) سورة الحجر آية ٢ .

أن يكون ماضيا .. ويجوز أن يكون الغرض من التعبير بالمضارع في الآيات استحضار الصورة العجيبة صورة المجرمين وهم ناكسو الرءوس يطلبون ردهم إلى الدنيا كي يغيروا نهجهم في الحياة ويعملوا صالحاً ، وصورة الكفرة وقد وقفوا على النار ، والظالمين وهم موقوفون عند ربهم ، وصورة وداد الكفرة لو أسلموا ، وما من ريب في أن استحضار "صورة وإبرازها أمام المخاطبين مرئية مشاهدة يكون أشد وقعاً وأبلغ تأثيراً ... ومن استحضار الصورة قوله تعالى : (وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)[1] ، فقد عبر عن الماضي « أثار » بالمضارع « تثير » ، استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة ، وهي صورة الرياح تثير السحاب وتحركه فينقاد لها ويساق ، فقد جعل المضارع الصورة حاضرة أمام الأعين ، وكأنها تبصر وتشاهد ... والتعبير بالمضارع عن الماضي استحضاراً للصورة ، لا يحسن إلا في الأمور الغريبة العجيبة التي يهتم برؤيتها ومشاهدتها لفظاعتها وغرابتها وشدة تأثيرها كما رأيت في الآيات الكريمة ، وكما ترى في قول تأبط شراً :

ألا من مبلغٌ فتيانَ فَهْمٍ ... بما لاقيت عند رَحا بِطان
بأني قد لقيت الغول تهوى ... بسَهْب كالصحيفة صَحْصَحان
فقلت لها كلانا نِضْو أرض ... أخو سفر فخلي لي مكاني
فشدة شدة نحوى فأهوت ... لها كفي بمصقولٍ يمانى
فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعاً لليدين وللجِرَان[2]

---

(١) سورة فاطر آية ٩

(٢) فهم : قبيلة الشاعر « تأبط شراً » . وهذا لقب قد غلب عليه واسمه ثابت بن جابر بن سفيان .. ورحا بطان اسم موضع .. وتهوى بمعنى : تسرع مقبلة إلى .. والسهب : الفلاة .. والصحصحان : ما استوى من الأرض .. والنضو : المهزول ...

فهو يتحدث عن أمر غريب إذ يزعم أنه قد التقى بالغول في تلك الفلاة وتحدث إليها وطلب منها المسالمة فأبت فقتلها ، وتراه قد عــبر بالمضارع « فأضربها » والسياق للماضي ليصور تلك الحال العجيبة التي تشجع فيها على ضرب الغول، كأنه يرينا إياها و يطالب منا مشاهدتها ، تعجيبا من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة . . . ثم تأمل قوله عز وجل : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[1] ، وقوله تعالى : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)[2] تجد وقد عبر بالمضارع «فيكون» ، استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة . . . وفي الآية الثانية عبر بالمضارع أيضا عن الماضي في قوله : « فتخطفه الطير أو تهوى به الريح » ، إذ الأصــل : خطفته الطير أو هوت به الريح . . والغرض هو استحضار وإبراز هـذه الصورة العجيبة وتصويرها مرئية ومشاهدة أمام الأعين . . .

* * *

= من كل شيء، فعل بمعنى مفعول، كأنه نفى وأخرج عن لحمه من جدب الأرض . . وصريمها : فعيل بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث . . والجران في الأصل مقدم عنق البعير من مذبحه الى منحره .

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩

(٢) سورة الحج الآية ٣١

الفصل الرابع

أحوال متعلقات الفعل

متعلقات تقرأ بكسر اللام وتقرأ بفتحها ، والكسر أرجح إذ يقال : تعلق المفعول بالفعل ، وتعلق الجار والمجرور بالفعل ، فالمفعول متعلق بالفعل والجار والمجرور متعلق به . والمراد بمتعلقات الفعل مايتصل بالفعل ويتعلق به من فاعل ومفعول وجار ومجرور وظرف ومصدر وحال وتمييز وغير ذلك . . فالفعل يلابس هذه المتعلقات ويتصل بها فيتحقق بهذا الاتصال أو بتركه كثير من الأغراض البلاغية ، ثم إن هذه المتعلقات يكمن وراء بنائها وتركيبها مع الفعل كثير من المزايا والدقائق اللطيفة ، وعلى الدارس أن يلم بتلك المزايا ؛ وأن يعلم كيف يقدم المتعلق على الفعل أو يتأخر عنه وما أغراض تقديمه أو تأخيره . . وإذا وجد أكثر من متعلق فكيف تصاغ الجملة ؟ وما موضع كل متعلق فيها ؟ ومتى يحذف ؟ . . . نجد وراء ذلك كثيراً من الأسرار والدقائق والمزايا التى ينبغى للدارس أن يقف عليها ويحيط بها . . ويلحق بالفعل فى هذا ماهو بمعناه كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل وغيرها من المشتقات ، ولذا ستكون دراستنا فى هذا الفصل ـ إن شاء الله ـ هادفة إلى إيضاح وتجلية الأسرار البلاغية التى تكمن وراء الصيغ والعبارات فى الموضوعات التالية :

١ ـ تقييد الفعل بالمفعول ونحوه . .

٢ ـ دراسة المفعول والمزايا البلاغية التى تكمن وراء حذفه . .

٣ ـ تقديم المعمولات على الفعل أو مافى معناه . .

٤ ـ تقديم بعض المعمولات على بعض . .

وبعد ذلك سنعمد إلى دراسة ظواهر أسلوبية ، وصور من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وهى تعم جميع أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل . .

تقييد الفعل بمفعول ونحوه : إذا أردت أن تخبر عن مجرد وقوع الحدث وحصوله ، دون إشارة لفاعله الذى صدر منه أو مفعوله الذى وقع عليه ، قلت : وقع ضرب أوحدث مجيء أوتحقق نجاح ، فتجعل مصدر الحدث فاعلا لفعل عام ، إذ مرادك أن تخبر عن وقوع الحدث وحصوله من غير إفادة تعلقه بفاعل أو مفعول أو نحوهما ، فأنت فى غنى عن ذكر الفاعل والمفعول . أما إذا أردت أن تقيد وقوع الفعل من فاعل فعليك أن تذكر ذلك الفاعل فتقول مثلا : ضرب محمد ، جاء زيد ، نجح خالد . . وإذ أردت ان تقيده أى : الفعل بمفعول ونحوه ، قلت : ضرب محمد اللص . . جاء زيد من البيت . . نجح عمرو فى الاختبار . . اندفع خالد اندفاعا وهكذا . . . يقول عبد القاهر: وههنا أصل يجب ضبطه وهو أن حال الفعل مع المفعول الذى يتعدى إليه حاله مع الفاعل ، وكما أنك إذا قلت : ضرب زيد فأسندت الفعل إلى الفاعل كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلا له ، لا أن تفيد وجود الضرب فى نفسه وعلى الإطلاق ، كذلك إذا عديت الفعل إلى المفعول فقلت : ضرب زيد عمرا ، كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثانى ووقوعه عليه . . . ألا ترى أنك إذ قلت : هو يعطى الدنانير ، كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير تدخل فى عطائه أوأنه يعطيها خصوصا دون غيرها ، وكان غرضك على الجملة بيان جنس ماتناوله الإعطاء لا الإعطاء فى نفسه ، ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه ، بل مع من أثبت له إعطاء إلا أنه لم يثبت إعطاء الدنانير فاعرف ذلك فإنه أصل كبير عظيم النفع . . »(١) . وذكر الخطيب أن تقييد

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٧٦ ، ١٧٧

الفعل بمفعول ونحوه إنما يكون لتربية الفائدة أى تكثيرها ، تقول : ضربت فتفيد نسبة الضرب إليك ووقوعه منك ، وتقول : ضربت زيدا فتفيد وقوع الضرب منك على زيد ، وتقول : ضربت زيدا ضربا شديدا ، ضربت زيدا ضربا شديدا يوم الجمعة أمام الناس ، فكلما زدت قيدا ازدادت الفائدة ، وأنت لا تزيد هذه القيود هكذا عبثا ، وإنما المقام هو الذى يملى عليك تلك الزيادة ويقتضيها ؛ فأنت إذا أردت أن تخبر عن رؤيتك لزيد تقول : رأيت زيدا ، فإذا أردت أن تؤكد تلك الرؤية قلت : رأيته بعينى ، فزيادة الجار والمجرور أفادت تأكيد الرؤية التى اقتضاها المقام . . وتأمل قوله تعالى : (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)(1) ، تجد أن القول لا يكون إلا بالفم والقلب لا يكون إلا فى الجوف ، ولما كان المقام مقام إنكار وزجر لمن يظاهر زوجه ، قائلا لها : « أنت على كظهر أمى » ولمن يجعلون الدعى ابناً ويسوون بينه وبين الابن ، فقد ذكر هذين القيدين : « فى جوفه » . . « بأفواهكم » تأكيدا للإنكار ومبالغة فى الردع والزجر . . ثم انظر إلى هذا القيد « لرجل » وتأمل فرق ما بين « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ، وبين : « ما جعل الله من قلبين فى جوف » ، فستراه دقيقا لطيفا ، لأن ذكر هذا القيد « لرجل » وتقييد الجعل به أبلغ فى الإنكار وآكد فى الردع والزجر ، إذ المرأة قد يتصور وجود قلبين فى جوفها ، قلبها وقلب جنينها عندما تكون حاملا ، أما الرجل فلا يتصور وجود قلبين فى جوفه بحال من الأحوال ، ولذا كان تقييد الجعل به أشد فى الإنكار وأقوى فى الزجر والردع . . وكذا القول فى قوله تعالى : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)(2) فذكر هذين القيدين : « بألسنتكم »

---

(1) سورة الأحزاب الآية ٤ (2) سورة النور الآية ١٥

« بأفواهكم » قد أكد الإنكار والزجر ، إذ الآية فى سياق الحديث عن أولئك الذين خاضوا فى حادثة الإفك، والتلقى لا يكون إلا بالألسنة ، والقول لا يكون إلا بالأفواه ، فذكر هذين القيدين فيه مزيد من الإنكار والردع والتوبيخ الذى اقتضاه المقـــام . . واقرأ فى سورة الكهف قوله تعالى : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)(١) ، تجد أن زيادة الجار والمجرور « لك » فيه مزيد من تأكيد اللوم وتقريره ، وقد اقتضى المقام ذلك، إذ موسى عليه السلام قد اتبع العبد الصالح « الخضر » ليتعلم منه ، وقال له الخضر: (فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)(٢) ، ولكن موسى أنكر خرق السفينة (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) فذكَّره الخضر : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) واعتذر موسى ثم انطلقا ، فلما قتل الغلام أنكر موسى مرة ثانية : (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ) ؟ فذكَّره : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) ، تلاحظ أن القيد « لك » فيه إبراز وإيضاح وتأكيد للوم الذى اقتضاه المقام ، لأن موسى قد وعد العبد الصالح ـ عليهما السلام ـ ألا يسأله عن شىء يحدث ، ولكنه لم يستطع صبرا ، فأنكر خرق السفينة ، ولامه العبد الصالح على عدم صبره ، ثم أنكر قتل الغلام ، فأكد العبد الصالح اللوم بالجار والمجرور « لك » . . وبهذا يتضح ـ كما قلت ـ أن تلك القيود لا تزاد عبثا ، بل لداع يقتضيه المقام ، وينبغى على الدارس أن يكون بصيراً بتلك المقامات وأن يقف على معانى تلك القيود وما يكمن وراءها من دقائق ، وما يكون وراء استعمالها وتقييد الفعل بها من لطائف وأسرار . . انظر إلى قوله تعالى : (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا)(٣) ، وقوله تعالى : (وَكَانَ كُنَّا عَلَيْهِ وَعَلَى

---

(١) سورة الكهف آية ٧٥

(٢) سورة الكهف آية ٧٠

(٣) سورة الإسراء آية ٩٧

إسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)(١) وتأمل القيــد « عليه وعلى إسحاق » وما يفيده من استعلاء البركة وإحاطتها بهما ، ثم قارن بينه وبين القيد فى الآية الأولى « على وجوههم » ، وتبين كيف أبرز ذلك القيد أولئك الكفرة وقد علوا وجوههم ، إن الحرف « على » يفيد الاستعلاء ولكنه استعلاء تعظيم فى آية الصافات . واستعلاء خزى وإهانة فى آية الإسراء . وتأمل فرق ما بين اللام وعلى فى الآيات الكريمة : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)(٢) ، (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى . .)(٣) ، (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)(٤) ، (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)(٥) ، تجد أن « اللام » قد ذكرت عند سبق النفع و « على » قد ذكرت عند سبق الضر ، وذلك لأنك تلحظ فى اللام معنى التملك والانتفاع وتلحظ فى « على » معنى القهر والاستعلاء ، ولذا يقول القائل :

على أننى راض بأن أحمل الهوى ... وأخلص منــه لا على ولا ليا

وتأمل فرق ما بين « على » و « فى » فى الآيات الكريمة : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(٦) ، (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)(٧) ، (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)(٨) ، تجد أن « على » تحمل معنى العزة والارتفاع ، و « فى » تحمل معنى الذل والانحطاط ، وكأن المؤمن مستعل على جود يركضه حيث شاء ، والكافر منغمس فى ظلام مرتبك فيه ، لا يرى أين يتوجه . .

---

(١) سورة الصافات الآية ١١٣
(٢) سورة البقرة ٢٨٦
(٣) سورة الأنبيا الآية ١٠١
(٤) سورة الصافات الآية ١٧١
(٥) سورة هود الآية ٤٠
(٦) سورة البقرة الآية ٥
(٧) سورة سبأ آية ٢٤ .
(٨) سورة الكهف آية ١٠١

وقد تجد فى « فى » معنى العزة والرفعة وذلك عندما يكون الانغماس فى النعيم والغرفات والمقام الأمين . . (إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)[١] . . (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)[٢] ، ففرق بين انغماس فى جنات وعيون ومقام أمين وغرفات ورحمة . وبين انغماس فى ضلال أو غطاء عن ذكر الله أو عذاب مهين ، تأمل : (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[٣] . . (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)[٤] . . . إلى غير ذلك من المعانى الدقيقة التى نراها كامنة وراء استخدام حروف الجر فى القرآن الكريم والتراكيب الجيدة . . . فالمقام لا يتسع هنا لكى نفصل القول فى تلك المعانى ، ولذا سنخصها ـ إن شاء الله تعالى ـ بدراسة مستقلة ، تجليها وتبرز ماوراءها من دقائق وأسرار . . وشأن الجار والمجرور شأن سائر المتعلقات ، فهى لا تذكر إلا إذا اقتضاها المقام ودعا إليها داع . . انظر إلى ذكر المفعول المطلق وإفادته للتأكيد فى قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا)[٥] ، وقوله عز وجل : (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا)[٦] ، وقوله جل وعلا : (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا . وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا)[٧] فتقييد الفعل بالمفعول المطلق فى الآيات الكريمة : « عتوا عتوا . . دمرناهم تدميرا . تبرنا تتبيرا » ، قد أدى إلى المبالغة وتوكيد وقوع هذه الأفعال ، والمقام

(١) سورة سبأ آية ٣٧ (٢) سورة الدخان الآية ٥١ ، ٥٢
(٣) سورة آل عمران آية ١٠٧ (٤) سورة سبأ آية ٣٨
(٥) سورة الفرقان الآية ٢١ (٦) سورة الفرقان الآية ٣٦
(٧) سورة الفرقان آية ٣٨ ، ٣٩

قد اقتضى ذلك ، فهؤلاء لا يرجون لقاء الله ويطلبون إنزال الملائكة عليهم ويطلبون رؤية ربهم، وهذا عتو مابعده عتو .. وأولئك قد كذبوا واستكبروا منهم من قال : (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)[١] ، ومنهم من قال : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)[٢] ومنهم من عقر الناقة وعتا عن أمر ربه ، فاستحقوا لهذا أن يضاعف لهم العذاب وأن يؤخذوا أخذ عزيز مقتدر ، استحقوا أن يدمروا تدميرا وأن يتبروا تتبيرا ، فالمصدر قد أبرز قوة العقاب وكشف عن شدة الإهلاك وتأمل ذكر الحال فى قوله تعالى: (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا)[٣] وكيف أبرزت الفعل وبينت كيفية وقوعه من سليمان ـ عليه السلام ـ فهو تبسم واضح قد قوى حتى وصل إلى حد الشروع فى الضحك[٤] وانظر إلى الحال فى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً)[٥] وكيف أفصحت عن مهمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبينت الهدف والغاية من إرسال الرسل .. وتأمل ذكر الحال فى قول الشاعر :

دنوت تواضعاً وعلوت مجدا
فشأناك انخفاض وارتفاع

وكيف أبرزت ما يقصده الشاعر وبينت المراد من الدنو والعلو ، ثم انظر كيف يكون المعنى لو لم تذكر هذه الحال فقيل : « دنوت وعلوت فشأناك انخفاض وارتفاع» إن المعنى يكون ملبسا ومشكلا .. وبهذا يتبين لك أن تلك القيود لا تذكر إلا لمعنى يقتضيه المقام ويدعو إليه الداع ..

---

(١) سورة النازعات آية ٢٤
(٢) سورة فصلت آية ١٥
(٣) سورة النمل آية ١٩
(٤) انظر الكشاف ٣/١٤٢
(٥) سورة الأحزاب آية ٤٥

حذف المفعول: أبرز عبد القاهر الجرجاني في كتابه: «دلائل الإعجاز» ما يكمن وراء حذف المفعول به من دقائق ولطائف، وعندما ترجع إلى كتابه المذكور يتبين لك أن كل من جاء بعده من البلاغيين قد استمدوا وأفادوا من حديثه عن المفعول وتجليته لما يكمن وراء حذفه من مزايا وأسرار بلاغية.. وإليك بيان ذلك، وتفصيل القول في مزايا حذف المفعول وأسراره..

الفعل إما أن يكون لازما وإما أن يكون متعديا، فالفعل اللازم لا يحتاج إلى مفعول نحو فرح محمد وسعد علي وبكى عمرو وشقي الكافر.. ولذا لا يدخل معنا في حذف المفعول، إذ لا مفعول له أصلا، إلا إذا عديته بالهمزة أو بالتضعيف نحو: أسعدت عليا وبكيت عمرا وأشقيت فلانا، فعندئذ يصير الفعل متعديا ويجري عليه ما يجري على المتعدي من أحكام..

والفعل المتعدي له مفعول يقع عليه، ولا يحذف ذلك المفعول ويرد الفعل بدونه إلا لأغراض بلاغية وأسرار دقيقة يقتضيها المقام.. منها: أن يكون الغرض من التركيب إثبات المعنى الذي اشتق منه الفعل لفاعله أو نفيه عنه، من غير نظر إلى تعلقه بمفعول معين وعندئذ يكون الفعل المتعدي كاللازم في أنك لا ترى له مفعولا لا لفظا ولا تقديرا.. تقول: فلان يحل ويعقد ويعطي ويمنع ويأمر وينهى ويضر وينفع وتقول: محمد يعطي ويجزل ويضيف ويقري، فالمراد من ذلك إثبات المعاني التي اشتقت منها الأفعال لفاعليها دون نظر إلى تعلقها بمفعول ونحوه، وكأنك تريد: صار فلان بحيث يكون منه الحل والعقد والإعطاء والمنع، والأمر والنهي والضر والنفع والإعطاء والإجزال والإقراء والضيافة ـ صار أهلا لذلك ـ ولو أثبت المفعول فقلت مثلا: يعطي الذهب أو الدراهم لضاع هذا الغرض، إذ ينصرف الذهن إلى نوع المعطى لا إلى جنس الإعطاء، ولذا فإنك عندما تريد بطي المفعول هذا الغرض، وهو إثبات المعنى في نفسه للفاعل، فإنك لا تنظر إلى المفعول المطوي، ولا تلتفت إليه، ولا تخطره ببالك، ولا تقدره إذ المقدر كالمذكور. ومما ورد

من ذلك فى النظم الكريم قوله تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ)[١] - فالمعنى والله أعلم - هل يستوى من له علم ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم .. وقوله تعالى : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ... وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى)[٢] ، فالمراد : هو الذى منه الإضحاك والإبكاء والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء دون قصد إلى مفعول يقع عليه الفعل . وقوله تعالى : (رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ)[٣] ، أى يكون منه الإحياء والإماتة دون نظر إلى من أحيا ولا إلى من أمات ... وقوله عز وجل . (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ)[٤] ، فالمفعول المطوى فى « يبصرون » من قبيل المتروك المطروح الذى لا يلتفت إليه ولا يخطر بالبال ولا يقدر ، إذ المراد وتركهم فى ظلمات لا يتأتى فيها الإبصار منهم .. وقوله تعالى : (فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[٥] ، أى وأنتم يقع منكم العلم وتتصفون به .. وقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)[٦] أى : ونتركهم فى ضلالهم يترددون حائرين متصفين بالعمه ... « وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى فى نفسه فعلا للشىء وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه أو لا يكون إلا منه أو لا يكون منه فإن الفعل لا يعدى هناك ، لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى »[٧] ..

فمثال الإخبار بأن الفاعل من شأنه أن يكون منه الفعل قولك : هو يعطى ،

---

(١) سورة الزمر الآية ٩ .
(٢) سورة النجم الآية ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٨
(٤) سورة البقرة الآية ١٧ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٢ .
(٦) سورة الأنعام الآية ١١٠ .
(٧) دلائل الإعجاز ص ١٧٧ .

إذا أريد التوكيد وتقوية الحكم لا القصر، وقولك يعطى محمد ويكرم خالد.. ومثال الإخبار بأن الفعل لا يكون إلا من الفاعل قولك : هو يعطى .. هو يحل ، إذا أردت بتقديم المسند إليه القصر.. ومثال الإخبار بأن الفعل لا يكون من الفاعل قولك : هو لا يعطى .. فلان لا يحل ولا يعقد ..

وتأمل قوله تعالى : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا : لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ)(١) ، تجد أن المفعول قد طوى فى أربعة مواضع ، إذ المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون غنمهم أو مواشيهم وامرأتين تذودان غنمهما حتى يصدر الرعاء ، وقالتا لا نسقى غنمنا فسقى لها غنمهما ... ولكن هذا التقدير غير مراد فالمفعول لا يلتفت إليه فى الآيات ولا يخطر بالبال ولا ينوى ، لأن إرادته وتقديره يؤديان إلى خلاف المراد .. يقول عبد القاهر : « لا يخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقا ، وما ذاك إلا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى ، فأما ما كان المسقى أغنما أم إبلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم ، حتى لو كان مكان الغنم الإبل لم ينكر الذود ، كما أنك إذا قلت : مالك تمنع أخاك ؟ كنت منكراً المنع لا من حيث هو منع ، بل من حيث هو منع أخ .. »(٢) .

وقد يكون الغرض من طى المفعول والسكوت عنه هو إثبات المعنى فى

---

(١) سورة القصص الآية ٢٣ . (٢) دلائل الإعجاز ص ١٨٢ .

نفسه للفاعل دون قصد إلى مفعول معين إلا أن هذا الإثبات المطلق يستلزم إثباتاً مقيداً .. انظر إلى قول البحتري يمدح الخليفة « المعتز » ويعرض بالمستعين :

شجو حساده وغيظ عداه   أن يرى مبصر ويسمع واع

فالمعنى : إن ما يؤلم حساده ويغيظ أعداه أن يوجد في الدنيا من يرى ويسمع « أن يرى مبصر ويسمع واع » ؛ لأنه إذا وجد من يرى ويسمع ، فسوف يرى قطعا مآثره وأمجاده وسوف يسمع لا محالة عن محاسنه وسيرته ، فقد اشتهرت محاسنه وذاعت مآثره بحيث لا تخفى على من يسمع ويرى ، لأنها ملأت الآفاق وحلت بكل موضع ، والذي يحزن حساده ويغيظ أعداه - يعرض بالمستعين - أن يوجد من يرى ومن يسمع ؛ لأن وجوده يستلزم أن يسمع أخبار المعتز وأن يرى فضائله ومحاسنه .. ولذا يذكر الخطيب أن الفعل مطلقاً قد جعل كناية عن الفعل مقيداً بمفعول مخصوص ، إذ بين مجرد الرؤية والسماع وبين رؤية المحاسن وسماع الأخبار تلازم وارتباط(١) .. ومن جيد ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم   نطقت ولكن الرماح أجرت

يصف قومه بالجبن والفرار وأنهم لم يبلوا في الحرب بلاء ، ولم يصنعوا شيئا يستحقون به الحمد والثناء فما كان منهم قد حبس لسانه وقطعه عن النطق مشيداً بهم ، ولو كان منهم جهاد وبلاء حسن لنطق وأشاد به ، هذا هو المعنى ، وتجد الشاعر قد سكت عن المفعول وطواه في قوله : « ولكن الرماح أجرت » ؛ لأن غرضه أن يثبت أنه كان من الرماح إجرار وحبس للألسنة عن النطق ولو قال : « أجرتني » لجاز أن يتوهم أنها أجرت لسانه هو دون ألسنة غيره ، وأن الرماح قد صنعت شيئا لو أبصره غير عمرو لأشاد به ونطق ، فلما كان في تعديه « أجرت » ما يوهم ذلك وقف فلم يعد البتة ولم ينطق بالمفعول

(١) انظر الإيضاح ٢١٦/١ .

لتخلص العناية لإثبات الإجرار للرماح ويصح أنه كان منها ، وتسلم بكليتها لذلك(١) .

ويرى الخطيب أن غرض الشاعر أن يثبت أنه كان من الرماح إجرار وحبس الألسنة عن النطق بمدحهم والافتخار بهم حتى يلزم بطريق الكناية مطلوبه وهو أنها أجرت لسانه هو ، فإثبات الإجرار للرماح مطلقاً يستلزم إثباته مقيداً(٢) ... ولا يخفى عليك أن الاعتداد بالمعنى المكنى به أولى وأبلغ فى تحقيق مراد الشاعر من الاعتداد بالمعنى المكنى عنه ، ولذا كان رأى عبد القاهر أدق وعباراته وتحليلاته لطى المفعول أولى بالقبول وما كان أغنى الخطيب عن القول بالكناية وعن ذلك التحديد القائل للمغزى من الحذف ، إن ماذكره مستمد من كلام عبدالقاهر ، ومحاولة لإيجازه وتحديده ولكنه إيجاز مخل ، وتحديد قد قتل روح التذوق والاستمتاع ... وتأمل طى المفعول فى قول طفيل الغنوى مادحا بنى جعفر بن كلاب :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت

بنا نعلنا فى الواطئين فزلت

أبو أن يملونا ولو أن أمنا تلاقى الذى لاقوه منا لملت

هم خلطونا بالنفوس وألجأوا إلى حجرات أدفأت وأظلت

فقد طوى المفعول فى قوله : «ملت وأدفأت وأظلت» ، إذ الأصل : «لملتنا وأدفأتنا وأظلتنا» ، وسبب هذا الطى هو القصد إلى إثبات الفعل للفاعل دون نظر إلى مفعول معين ، وهذا ينبىء ويشير إلى أن تلك الأفعال قد بلغت حد التناهى ، فالأم لو لاقت مالاقوه بنو جعفر منهم لكان شأنها الملل .. وتلك الحجرات حجرات عظيمة معدة إعدادا طيبا ومجهزة تجهيزاً خاصا ، فشأن مثلها أن يدفىء وأن يظل ، كما تقول : هذا بيت يدفىء ويظل ، تريد أنه بهذه الصفة ولو ذكر المفعول لما تحقق هذا المعنى الذى قصد إليه الشاعر ... واقرأ تحليل عبد القاهر للسر البلاغى الكامن وراء حذف

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٧٩ . (٢) انظر الإيضاح ٢١٨/١

المفعول فى هذه الأبيات والبيت السابق : « واعلم أن لك فى قوله : « أجرت » و « ملت » فائدة أخرى زائدة على ماذكرت من توفير العناية على إثبات الفعل للفاعل وهى أن تقول : كان من سوء بلاء القوم ومن تكذيبهم عن القتال ، مايجر مثله وما القضية فيه أنه لا يتفق على قوم إلا خرس شاعرهم فلم يستطع نطقا ، وتعديتك الفعل تمنع من هذا المعنى ، لأنك إذا قلت : « ولكن الرماح أجرتنى » ، لم يمكن أن يتأول على معنى أنه كان منها ما شأن مثله أن يجر قضية مستمرة فى كل شاعر قوم ، بل قد يجوز أن يوجد مثله فى قوم آخرين فلا يجر شاعرهم ، ونظيره أنك تقول : « قــد كان منك مايؤلم » ، تريد ما الشرط فى مثله أن يؤلم كل أحد وكل إنسان ولو قلت مايؤلمنى ، لم يفد ذلك ، لأنه قد يجوز أن يؤلمك الشىء لا يؤلم غيرك ، وهكذا قوله : « ولو أن أمنا تلاقى الذى لاقوه منا لملت » ، يتضمن أن من حكم مثله فى كل أم أن تمل وتسأم وأن المشقة فى ذلك إلى حد يعلم أن الأم تمل له الابن وتتبرم به ، مع مافى طباع الأمهات من الصبر على المكاره فى مصالح الأولاد ، وذلك أنه وإن قال « أمنا » ، فإن المعنى على أن ذلك حكم كل أم مع أولادها ، ولو قلت : « لملتنا » لم يحتمل ذلك ، لأنه يجرى مجرى أن تقول : لو لقيت أمنا ذلك لدخلها مايملها منا ، وإذا قلت مايملها منا فقيدت لم يصلح لأن يراد به معنى العموم وأنه بحيث يمل كل أم من كل ابن ، وكذا قوله : « إلى حجرات أدفأت وأظلت » ، لأن فيه معنى قولك : حجرات من شأن مثلها أن تدفىء وتظل ، أى : هى بالصفة التى إذا كان البيت عليها أدفأ وأظل ، ولا يجىء هذا المعنى مع إظهار المفعول ، إذ لا تقول : حجرات من شأن مثلها أن تدفئنا وتظلنا ، هذا لغو من الكلام ، فاعرف هذه النكتة فإنك تجدها فى كثير من هذا الفن مضمومة إلى المعنى الآخر الذى هو توفير العناية على إثبات الفعل ، والدلالة على أن القصد من ذكر الفعل أن تثبته لفاعله لا أن تعلم التباسه بمفعوله »(١) ، فأين هذا من قول الخطيب فى بيان الغرض من الحذف فى

---

(١) دلائل الإعجاز ١٨١

لأبيات : « فإن الأصل : لملتنا وأدفأتنا وأظلتنا » ، إلا أنه حذف المفعول من هذه المواضع ليدل على مطلوبه بطريق الكناية[1] . أما حذف المفعول من قوله : «والجاوا» إذ إن أصله : والجاونا ، فلا أرى له غرضا سوى مجرد الإيجاز والاختصار لأن حكمه حكم ما عطف عليه وهو قوله : « خلطونا بالنفوس » . . وقد يقصد بحذف المفعول الإيضاح بعد الإبهام وهو غرض جليل لأن الشيء إذا أبهم تطلعت النفوس إليه واشتاقت لمعرفته فإذا ما بين بعد ذلك وقع فى النفس موقعا حسنا وترك فيها أثراً طيبا . . ويكثر هذا الحذف فى مفعول المشيئة أو الإرادة الواقعة بعد «لو» و « إن » ، ونحوهما من أدوات الشرط ، كما نرى فى قوله تعالى : (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)[2] ، إذ المعنى : ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين ، فحذف مفعول « شاء » لدلالة جواب الشرط عليه ، وفى هذا الحذف إبهام يعقبه إيضاح وتبيين ، لأن المخاطب إذا سمع قوله تعالى : «ولو شاء» ، تعلقت نفسه بشيء قد أبهم وهو مفعول « شاء » ، وتطلعت إلى معرفته ، فإذا ما ذكر الجواب : «لهداكم» ، استبان ذلك الشيء وعرف بعد أن كان قد أبهم ، ولذا كان أوقع فى النفس وأبلغ وأشد تأثيرا ، وكذا القول فى الآيات الكريمة : (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[3] . . . (فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)[4] . (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ)[5] . . . (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)[6] ، فقد حذف مفعول المشيئة فى

---

(١) انظر الإيضاح ٢١٨/١ (٢) سورة النحل الآية ٩

(٣) سورة الأنعام الآية ٣٥ (٤) سورة الشورى الآية ٢٤

(٥) سورة الشورى الآية ٣٢ ، ٣٣ (٦) سورة السجدة الآية ١٣

الآيات الكريمة وتقديره : لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم .. فإن يشأ الله الختم على قلبك يختم .. إن يشأ الله إسكان الريح أسكنها .. لو شئنا إتيان كل نفس هداها لآتينا . ولا يخفى عليك ما فى حذف المفعول ثم دلالة الجواب عليه ، من الإيضاح بعد الإبهام ، وهذا مما يجعل المعنى يقر فى النفس ويثبت ويقع منها موقعاً حسناً ... ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

فإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوى من القد محصد(١)

يتحدث عن ناقته فيقول : إن شئت الإرقال أرقلت وإن شئت عدم الإرقال لم ترقل ، فطوى مفعول المشيئة فى الموضعين كما ترى ، وفى طيه إبهام أزاله وبينه جواب الشرط ... ومثله قول البحترى :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرماً ولم تهدم مآثر خالد(٢)

يصف ممدوحه بأنه قد بلغ الغاية فى الكرم والمجد حتى فاق شهرة حاتم وخالد فيهما ، والأصل : لو شئت عدم إفساد سماحة حاتم وعدم هدم مآثر خالد لم تفسد ولم تهدم ، فأبهم بحذف المفعول ثم بين بجواب الشرط ... يقول عبد القاهر: « الأصل لامحالة لوشئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته فى الثانى عليه ، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب فى حكم البلاغة ألا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ماهو أصله فقلت : لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، صرت إلى كلام غث وإلى شىء يمجه السمع وتعافه النفس ، وذلك أن فى البيان إذا

---

(١) لم ترقل : لم تسرع . والملوى: السوط المفتول المحكم وكذلك المحصد . والقد : الجلد المشقوق

(٢) حاتم هو حاتم الطائى وخالد هو خالد بن إصبع النبهانى الذى نزل عليه امرؤ القيس .

ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبدا لطفا ونبلا ، لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك . وأنت إذا قلت : لو شئت ، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة فى المعنى بشىء فهو يضع فى نفسه أن ههنا شيئا تقتضى مشيئته له أن يكون أو ألا يكون ، فإذا قلت : لم تفسد سماحه حاتم ، عرف ذلك الشىء . . ،[1] . .

ثم اقرأ قوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا : قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)[2] ، أى : لو نشاء أن نقول مثل هذا لقلناه . . وقوله عز وجل : (مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[3] أى : من يشأ إضلاله يضلله ومن يشأ أن يجعله على صراط مستقيم يجعله . . فلن يخفى عليك ما فى حذف المفعول من دقة وجمال مردهما إلى ما يتركه الإيضاح بعد الإبهام فى النفس من وقع طيب وأثر حسن . .

هذا إذا لم يكن فى تعلق فعل المشيئة أو الإرادة بالمفعول به غرابة ، وذلك بأن يكون المفعول من الأمور العجيبة الغريبة أو من الأمور البعيدة التى نادرا ماتقع ، فإن كان الأمر كذلك وجب ذكر المفعول ليتقرر فى نفس السامع ويأنس به . . انظر إلى قول أبى الهندام الخزاعى فى الرثاء :

قضى وطراً منك الحبيب المودع ... وحل الذى لا يستطاع فيدفع
ولو شئت أن أبكى دما لبكيته ... عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

لما كان بكاء الدم من الأمور العجيبة الغريبة ، وكانت إرادة الإنسان لأن يبكى دما أعجب وأغرب ، فقد ذكره الشاعر ليتقرر فى نفس السامع ويأنس به ، لأنه عندئذ يكون قد ذكره مرتين مرة مفعولا للمشيئة ومرة جوابا للشرط ، والشىء إذا كرر فإنه يتقرر فى النفس وتأنس به وتسكن.

(١) دلائل الإعجاز ١٨٣
(٢) سورة الأنفال آية ٣١ .
(٣) سورة الأنعام آية ٣٩

إليه خاصة وأن غرابة المفعول تقتضى هـــذا التقرير ... ويقول الإنسان مخبراً عن عزة نفسه ، مفتخراً بعلو مكانتـه : لو شئت أن أرد على الأمير لرددت ولو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم للقيته ، تراه قد ذكر مفعول المشيئة لكونه من الأمور المستبعدة التى تكبرها النفس ولا تقرها بسهولة ، فالأمر إذاً يحتاج إلى تقرير وتأكيد ، ولذا ذكر المفعول ، وكرر بذكره ثانية فى الجواب . . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(١) ، فاتخاذ الله ولدا من الأمور الغريبة العجيبة ، وقد آثر النظم الكريم التعبير عن ذلك بأسلوب الشرط « لو » وهى حرف امتناع لامتناع - كما درست - ، ردعاً وزجرا لأولئك الذين قالوا اتخذ الله ولدا ، فقد قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . . فلما كان المفعول بهذه الغرابة وجب ذكره بعد الإرادة كما ترى . . . أما قول أبى الحسين على بن أحمد الجوهرى أحد شعراء الصاحب ابن عباد :

فلم يبق منى الشوق غير تفكرى   فلو شئت أن أبكى بكيت تفكرا

فليس مفعول المشيئة فيه غريبا ، لأن المراد بالبكاء المذكور بعد « شئت » : بكاء الدمع ، لا بكاء التفكر المذكور فى الجواب ، فالشاعر لم يرد أن يقول : فلو شئت أن أبكى تفكرا بكيت تفكرا ، ولكنه أراد أن يقول : أفنانى النحول فلم يبق منى وفى غير خواطر تجول حتى لو شئت بكاء فريت جفونى وعصرت عينى ليسيل منهما دمع لم أجده ولخرج بدل الدمع التفكر ، فالبكاء الثانى لا يصلح أن يكون تفسيراً للبكاء الأول لو حذف ، ومراد الشاعر لا يتم إلا بذكر مفعول المشيئة ، وليس المعنى هنا فى هذا البيت كالمعنى فى بيت أبى الهندام ، لأن البكاء هناك فى الموضعين بكاء دم ؛ أما هنا فالأول بكاء دموع

---
(١) سورة الزمر آية ٤

والثانى بكاء تفكر . فلا يصلح الثانى دليلا على الأول كما قلت ؛ ونظيره أن تقول : لو شئت أن تعطى درهما أعطيت درهمين ، فالثانى وهو جواب الشرط لا يصلح أن يكون تفسيراً للأول وهو مفعول «شئت» لأن الأول إعطاء درهم والثانى إعطاء درهمين ... ولا نبعد إذا قلنا : إن الغرابة فى بيت الجوهرى ، فى جواب الشرط « بكيت تفكراً » وأنه لغرابته لا يدل على مفعول المشيئة لو حذف ، ولذا وجب ذكره حتى لا يضيع غرض الشاعر كما بينا .

وقد يقصد بحذف المفعول تهيئة العبارة لوقوع الفعل على صريح لفظ المفعول ، إظهاراً لكمال العناية بوقوعه عليه . . . انظر إلى قول البحترى يمدح المعتز :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ ... دد والمجد والمكارم مثلا

يريد أن يقول : قد بحثنا لك عن شبيه فى صفاتك العالية . فأجهدنا البحث وأضنانا دون أن نعثر على هذا الشبيه ، فأنت فرد فى صفاتك لا نظير لك ولا مثيل . . . وتجد الشاعر قد حذف مفعول طلب ليتسنى له أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ المثل ؛ لأن نفى الوجود هو الأصل فى المـدح والغرض منه ، أما الطلب فكالشىء يذكر ليبنى عليه الغرض ويؤكد به أمره ولو قيل : قد طلبنا لك مثلا فى السؤدد والمجد والمكارم فلم نجده ، لوقع الفعل « طلب » على صريح لفظ المفعول ، والفعل المنفى الذى هو الغرض الأصلى المديح « فلم نجد » على ضميره ، وفرق بين أن يقع الفعل على صريح اللفظ وأن يقع على ضميره ، من أجل هذا حذف الشاعر مفعول « طلب » ؛ لأن حذفه يمكنه من أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ المفعول .

وشىء آخر تراه وراء حذف المفعول فى البيت وهو البيان والإيضاح بعد الإبهام ، لحذف مفعول « طلب » قد جعل السامع يشغل به ويبحث عنه ، فلما ذكر مع الفعل الثانى « فلم نجد » وقع فى نفسـه موقعا حسنا ؛ لأنه جاء والنفس متطلعة إليه ومنشغلة به .

ومزية ثالثة تجدها وراء هذا الحذف وهى مراعاة الأدب فى مقام المدح، فالشاعر كان حذراً واطيفاً ، إذ تحاشى أن يواجه الممدوح بأنه يطلب له نظيراً ويبحث عن مثيل له ، بل أشار إلى ذلك إشارة خاطفة ولم يمد القول ، وكأنه يريد أن يطويه سريعا ليصل إلى الغرض الأصلى من المدح وهو نفى وجود المثل(١).

وتأمل قول ذى الرمة يمدح بلال بن أبى بردة وينفى عن نفسه مدح اللئام :

ولم أمدح لأرضيه بشعرى لئيما أن يكون أصاب مالا
ولكن الكرام لهم ثنائى فلا أخزى إلى ما قسل قالا

تجد أنه لما كان الغرض الأصلى أن ينفى عن نفسه مدح اللئام ، وكان الإرضاء تعليلا له ، فقد ذكر الشاعر المفعول فى الموضعين وذلك ليقع نفى المدح على صريح لفظ اللئيم ، ويقع الإرضاء على ضميره ، ولو أنه حذف مفعول « أمدح » فقال : ولم أمدح لأرضى بشعرى لئيما ، لما تحقق غرضه ، ولتوهم متوهم أنه يريد أن ينفى عن نفسه إرضاء اللئيم ، وأن هذا هو أصل كلامه وغرضه منه، أما «أمدح» فيكون كالشىء يذكر تمهيداً ليبنى عليه الغرض، كما فى بيت البحترى السابق ، وليس هذا مراد الشاعر ، بل مراده ـ كما قلت ـ أن ينفى عن نفسه مدح اللئام ليوقع فى نفس ممدوحه أن ما يسمعه من شعر لا يعرف إلا الكرام وأنه ليس موكلا إلا بهم . . . فالمقام فى بيت البحترى قد اقتضى أن يحذف مفعول « طلب » ليقع نفى الوجود على صريح لفظ المثل ، واقتضى فى بيت ذى الرمة أن يذكر مفعولا « أمدح وأرضى » ، ليقع نفى المدح على صريح لفظ اللئيم أيضا .

وقد يقصد بحذف المفعول دفع توهم غير المراد ابتداء ، ووقوع المعنى

---

(١) انظر الإيضاح ١/٢١٢ .

الذى يريده المتكلم فى نفس مخاطبه من أول الأمر كما فى قول البحترى يمدح أبا الصقر الشيبانى فى قصيدته التى مطلعها :

أعن سفه يوم الأبيرق أم حلم   وقوف بربع أو بكاء على رسم

قال مخاطبا أبا الصقر :

وكم ذدت عنى من تحامل حادث
وسورة أيام حززن إلى العظم

يريد أن يقول إن الممدوح طالما دفع عنه عوادى الزمن ، ورد عنه طغيان أيام ضربته فأوجعته . حتى بلغت فى قسوتها الغاية ، فقوله « حززن إلى العظم » كناية عن بلوغها الغاية فى الشدة . . . وتلاحظ أن الشاعر قد حذف مفعول « حز » وتقديره : حززن اللحم إلى العظم وهو يريد بهذا الحذف أن يقع المعنى فى نفس السامع ابتداء، إذ لو ذكر المفعول فقال : «حززن اللحم » لتوهم أن الحز كان ضعيفا وأنه أصاب بعض اللحم مما يلى الجلد ولم يصل إلى العظم ، فما دفعه عنه الممدوح إذاً شىء يسير ، وليس سورة أيام وأحداثا قد تحاملت عليه ، فإذا ما وصل السامع إلى قوله : «إلى العظم» اندفع هذا التوهم وزال ، ولكن الشاعر الحاذق هو الذى يوقع المعنى فى ذهن سامعه من أول وهلة ولا يجعله يتصور فى أول الأمر شيئا غير مراد ثم ينصرف إلى المراد .

يقول عبد القاهر : « الأصل لا محالة : « حززن اللحم إلى العظم » إلا أن فى مجيئه به محذوفا وإسقاطه له من النطق وتركه فى الضمير مزية عجيبة وفائدة جليلة ، وذاك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى فى نفس السامع إيقاعا يمنعه به من أن يتوهم فى بدء الأمر شيئا غير المراد ثم ينصرف إلى المراد ، ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال : « وسورة أيام حززن اللحم إلى العظم » لجاز أن يقع فى وهم السامع إلى أن يجىء إلى قوله : « إلى العظم » أن هذا

الحز كان فى بعض اللحم دون كله ، وأنه قطع مايلى الجلد ولم ينته إلى ما يلى العظم ، فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم وأسقطه من اللفظ ليبرىء السامع من هذا ويجعله بحيث يقع المعنى منه فى أنف الفهم [أى : فى أوله لأن أنف الشىء أوله] ويتصور فى نفسه من أول الأمر أن الحز مضى فى اللحم حتى لم يرده إلا العظم .. »(١) .

وقد يحذف المفعول لإرادة التعميم والامتناع عن أن يقصره السامع على مايذكر دون غيره . انظر إلى قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)(٢) تجد أن المفعول قد حذف لإفادة العموم وأن الدعوة ليست مقصورة على أحد دون آخر بل تتعدى إلى كل من تتأتى دعوته فالمراد ـ والله أعلم ـ يدعو كل أحد تصلح دعوته إلى الجنة ... وتقول لصاحبك . قد كان منك ما يؤلم ، أى : ما الشأن فى مثله أن يؤلم كل أحد ، فحذفك المفعول أفاد التعميم مبالغة فى إيلام ما كان منه ، فهو من الشدة بحيث يؤلم كل أحد ولو ذكرت المفعول فقلت : قد كان منك ما يؤلمنى ، لفاتت تلك المبالغة المطلوبة ... وتأمل قول البحترى :

إذا بعدت أبلت وإن قربت شفت
فهجرانها يبلى ولقيانها يشفى

تجده قد حذف المفعول فى أربعة مواضع والتقدير : إذا بعدت عنى أبلتنى وإن قربت منى شفتنى فهجرانها يبليني ولقيانها يشفيني ..

والحذف ـ كما ترى قد أفاد المبالغة وعموم الفعل ، وصور أن بعدها يبلى كل أحد فهو البلى والداء المضنى ، وأن قربها ولقيانها هو الشفاء والبرء من

---

(١) دلائل الإعجاز ١٩١ .
(٢) سورة يونس الآية ٢٥

كل داء .. واقرأ قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ)[١]

يقول الزمخشري : وفى قوله تعالى : « لا تقدموا » من غير ذكر مفعول وجهان :

أحدهما : أن يحذف ليتناول كل مايقع فى النفس مما يقدم .

والثانى : ألا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهى إلى نفس التقدمة ، كأنه قيل : لاتقدموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل كقوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)[٢] ، ويجوز أن يكون من قدم بمعنى تقدم .[٣]

وقد يحذف المفعول حتى لا يقع عليه الفعل وذلك لمزية بلاغية وهدف يقصد إليه المتكلم .. انظر إلى قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً)[٤] فالأصل : أهذا الذى بعثه الله رسولا ، فحذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحذف ينبىء بحقــد المشركين على النبى صلوات الله وسلامه عليه ، ويصور مدى كراهيتهم له ، حتى كأنهم لا يطيقون النطق بالبعث واقعا عليه ، فهم يتحاشون مجرد النطق بالبعث منسوبا إليه ، فضلا عن الإيمان بذلك وتصديقه ... وخذ قوله تعالى : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)[٥] فقد حذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، والتقدير : وما قلاك ، وذلك لصونه عن نسبة القلى إليه ، وتحاشيا

---

(١) سورة الحجرات آية ١

(٢) سورة غافر آية ٦٨

(٣) الكشاف ٣ / ٥٥٢ .

(٤) سورة الفرقان آية ٤١

(٥) سورة الضحى آية ١ ، ٢

لوقوع الفعل « قلى » على ضمير المخاطب ولو كان هذا الفعل منفيا ، لأن فى ذلك ما يوحش ، بخلاف « ودعك » فليس التوديع كالقلى ، وحذف المفعول فى الآية له مزية أخرى وهى رعاية الفاصلة والمحافظة على التنغيم الصوتى لما له من قوة تأثير فى النفوس وذلك عندما يقتضيه المقام ويتطلبه المعنى ، وهذا هو شأن الفواصل فى النظم الكريم ، فهى تأتى تابعة المعنى ومحققة لما يقتضيه المقام ، وعندما يتطلب المعنى ، ويقتضى المقام التخلى عن تتابع الفواصل تجد الفاصلة قد قطعت ، وما يقتضيه المعنى قد أقر وأثبت(١) .

واقرأ قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً . قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً)(٢) ، فقد حذف مفعول « لينذر » والأصل : لينذر الذين كفروا بأسا شديداً ، وذلك حتى لا يقع الإنذار على الذين كفروا فيكون فى هذا تنفير لهم من قبول الهدى والإيمان بالحق .. فحذف المفعول فيه ترغيب لهم فى قبول الهداية والإيمان ، واستمالة لهم نحو الحق والنور المبين ..

ومن ذلك قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ)(٣) فالمراد ـ والله أعلم ـ أرنى ذاتك فحذف المفعول حتى لا تقع عليه الرؤية ، إذ الذات العلية لا تقع عليها الرؤية المحيطة كما تقع على

---

(١) هذا وكثير من البلاغيين لا يرتضى أن تكون رعاية الفاصلة علة بلاغية لأنها ـ كما يقولون ـ علة لفظية والأسلوب القرآنى قد بنى على مراعاة المعانى لا الألفاظ وهذا ليس بشىء لأن الفواصل ـ كما قلت ـ تابعة المعنى وخاضعة لما يقتضيه المقام ... راجع فى ذلك النكت للرمانى ص ١١ وما بعدها وخصائص التراكيب ص ٢٨٧ وما بعدها .

(٢) سورة الكهف آية ١ ، ٢ (٣) سورة الأعراف آية ١٤٣

الأشياء ، وإنما هي تجليات ، ولذا قال موسى - عليه السلام - «رب أرني» وأمسك ليفيد قصده دون أن تقع الرؤية على الذات الإلهية ؛ لأن هذا شيء لا يليق بالجلال ، ففي مثل هذه الأمور الهائلة وفي تلك المقامات الربانية ينبغي أن يكون الطلب تلميحاً وإيماء ولا يليق أن يكون صريحا مكشوفا(١) .

وقد يحذف المفعول استهجانا لذكره والتصريح به ، كما ترى في قول عائشة - رضي الله عنها - : «كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد فما رأيت منه ولا رأى مني» ، تريد رؤية العورة ... وقد يحذف لمجرد الاختصار والإيجاز حيث تدل عليه القرينة دلالة بينة جلية فيعد ذكره عندئذ عبثا ، كما تقول : أصغيت إليه ، تريد : أذني ، وأغضيت عنه ، تعني بصري ... ومنه قوله جل وعلا : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾(٢) فالدعاء في الآية بمعنى التسمية والأصل : قل ادعوه الله أو ادعوه الرحمن ، فحذف المفعول إيجازاً واختصاراً . . . وقد يحذف لتعينه كما في قولك . نحمد ونشكر ، تريد : نحمد الله ونشكره ، فتسكت عن ذكر لفظ الجلالة لتعينه وانصراف الفعلين له تعالى .

وقد يحذف لصون لسانك عن النطق به ، كما تقول : لعن الله وأخزى ، تريد : الشيطان ، فتحذفه صوناً للسانك عن النطق به . . . إلى غير ذلك من الأسرار الدقيقة التي تراها كامنة وراء طي المفعول وإسقاطه والسكوت عنه ، فهي لا تخفى على صاحب الذوق السليم ، وذي الطبع العربي القويم ، عندما يقرأ وينظر في التراكيب الجيدة والأساليب الرفيعة .

---

(١) انظر خصائص التراكيب ص ٢٨٥ .

(٢) سورة الإسراء آية ١١٠

تقديم المفعول ونحوه من المتعلقات على العامل : وتقديم المفعول ونحوه من المعمولات كالجار والمجرور والظرف والمصدر والحال على العامل يفيد غالبا الاختصاص ، أي : قصر العامل المؤخر على معموله المقدم ، تقول : زيداً أكرمت ، وبمحمد مررت ، وضاحكا جاء زيد ، وإشفاقا أعطيت . الخ . فتفيد بذلك قصر الإكرام على زيد ، والمرور على كونه بمحمد ، وقصر مجيء زيد على هيئة الضحك ، وإعطائك على كونه من أجل الإشفاق .. ومن ذلك قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)(١) ، أي : نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك ، ونخصك بالاستعانة فلا نستعين إلا بك ، فتقديم المفعول « إياك » في الموضعين قد أفاد القصر أي : قصر العبادة والاستعانة عليه تعالى .. وكذا القول في الآيات الكريمة : (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ)(٢) ... (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)(٣) .. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(٤) ، فتقديم المعمولات : « إلى الله .. عليه .. إياه » في الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص ... ومن ذلك قول شوقي :

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم ... لم يبن ملك على جهل وإقلال

فتقديم الجار والمجرور « بالعلم » أفاد قصر بناء الملك على كونه بالعلم والمال .. ومثله قول الآخر :

إذا شئت يوما أن تسود عشيرة ... فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم

وقول الثالث :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا ... فليس وراءها للعز ركن

(١) سورة الفاتحة الآية ٥
(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٨ .
(٣) سورة التوبة الآية ١٢٩ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٧٢ .

فقد قصرت السيادة في البيت الأول على الحلم بحيث لا تتعداه إلى التسرع والشتم .. وقصر بناء الممالك وخطها في البيت الثاني على الأخلاق فليس وراءها للعز ركن ... والعامل المقدر في ذلك كالمذكور ، فقولك : زيداً عرفته، إن قدر المفسر بعد المنصوب أي: زيداً عرفت عرفته، أفاد التخصيص، وإن قدر قبله أي: عرفت زيداً عرفته ، أفاد التوكيد وتقوية الحكم ، أما قوله تعالى : (وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)(١) ، في قراءة من قرأ بنصب « ثمود » فلا يفيد إلا الاختصاص ، لأنه لا يتأتى أن يقدر المفسر قبل المنصوب ، فلا يقال : أما فهدينا ثمود ... ولكون تقديم المعمول على عامله يفيد غالباً الاختصاص ، كان من الخطأ أن تقول : ما زيداً ضربت ولا غيره ، لأن تقديم المفعول وإيلاءه أداة النفي أفاد : نفي الضرب عن زيد وإثباته لغيره ، فقولك بعده : « ولا غيره » يناقضه ويدفعه ، أي أن عجز الجملة يتناقض مع صدرها ، ونحوه قولك : ما بهذا أمرتك ولا غيره لأن قولك : « ما بهذا أمرتك » أفاد نفي الأمر عن الجار والمجرور المقدم وإثباته لغيره ، وقولك بعده : « ولا بغيره » يناقضه ، والصواب أن يقال : ما ضربت زيداً ولا غيره ، ما أمرتك بهذا ولا بغيره ، بدون تقديم ، أو يقال : ما زيداً ضربت بل عمراً .. ما بهذا أمرتك لكن بغيره .. وكذا من الخطأ أن تقول: ما زيداً ضربت ولكن أكرمت . لأن تقديم المفعول أفاد نفي الضرب عن زيد وإثباته لغيره ، وقولك : « ولكن أكرمت » رجوع عن إثبات الضرب لغير زيد ، فالصواب أن تقول : ما ضربت زيدا ولكن اكرمته أو تقول: ما زيدا ضربت ولكن عمراً ، فاعرف هذا فإنه دقيق ، وهو مبني كما قلت لك على إفادة التقديم للاختصاص ... وتأمل قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)(٢) ، تجد أن الجار والمجرور قد أخر على شبه الفعل في قوله : « شهداء على الناس » . وقدم عليه في قوله : « عليكم شهيدا » ، وذلك لأن الغرض في الأول إثبات

(١) سورة فصلت آية ١٧ . (٢) سورة البقرة آية ١٤٣ .

شهادتهم على الأمم دون إفادة اختصاصهم بتلك الشهادة ، وفى الثانى المراد إفادة اختصاصهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم شهيدا عليهم ، وليس مجرد إثبات شهادته ..

يقول الزمخشرى : « روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء ، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم ، فيؤتى بأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فيشهدون ، فتقول الأمم من أين عرفتم ؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ، فيؤتى بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم ، وذلك قوله تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا)(١) .. وقيل لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا ، فيما لا يصلح إلا بشهادة العدول الأخيار ويكون الرسول عليكم شهيدا يزكيكم ويعلم بعدالتكم ، فإن قلت : لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرا ؟ قلت : لأن الغرض فى الأول إثبات شهادتهم على الأمم . وفى الآخر اختصاصهم بكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - شهيدا عليهم »(٢) .

ثم اقرأ قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)(٣) ، وقوله عز وجل : (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ)(٤) ، تجد أن الجار والمجرور قد أخر فى الآية الأولى . لأنه لا معنى للدلالة على الاختصاص فيها ، إذ كون الإعادة أهون من البدء أمر مسلم به لا ينكره أحد ... أما فى الآية الثانية فقد قدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص ؛ لأن المقام يقتضى ذلك .. يقول الزمخشرى : « فإن قلت : لم أخرت الصلة فى قوله : « وهو أهون عليه » ، وقدمت فى قوله : « هو على هين » ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقيل : هو على هين وإن كان مستصعباً

(١) سورة النساء آية ٤١ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٣) سورة الروم آية ٢٧ .
(٤) سورة مريم آية ٩ ، ٢١

عندكم أن يولد بين هرم وعاقر ، وأما هنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبنى على مايعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء،فلو قدمت الصلة لتغير المعنى . . »(١) .

وقد يفيد التقديم بالإضافة إلى الاختصاص مزية أخرى وهى المحافظة على الفواصل والاستمرار فى التنغيم الصوتى، على نحو ماترى فى قوله تعالى : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)(٢) ، فتقديم المفعول : «الجحيم» والجار والمجرور : «فى سلسلة» يفيد الاختصاص والمحافظة على الفاصلة واستمرار النغم الصوتى المؤثر فى الأنفس ، ومثله قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)(٣) . . . وقد يقدم المعمول لكونه محل الإنكار ، كما فى قوله تعالى : (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)(٤) ، فمحل الإنكار هو كون غير الله بمثابة أن يبغى ربا ولذا قدم فولى همزة الاستفهام .

ومن ذلك قول الشاعر :

أبعد المشيب المنقضى فى الذوائب
تحاول وصل الغانيات الكواعب ؟

فموضع الإنكار هو كون محاولة الوصل بعد ظهور المشيب فى الذوائب ولذا قدم الظرف « بعد » فولى الهمزة .

وقد يكون التقديم للتوكيد والاهتمام بالمقدم وتقوية الحكم كما فى قوله تعالى : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)(٥)

---

(١) الكشاف ٣/٢٢٠ (٢) سورة الحاقة آية ٣٠ ، ٣٢
(٣) سورة المدثر آية ١ ، ٧ (٤) سورة الأنعام آية ١٦٤
(٥) سورة الضحى آية ٩ ، ١٠ .

هو المطلوب دون رزقهم ، لأنه حاصل ، ولذا قدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم . . . وانظر إلى قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)(١) فقد قالوا: إن مفعولى « جعل » قوله « لله شركاء » وقال آخرون : « الجن » مفعول أول و « شركاء » مفعول ثان ، وعلى كلا الرأيين فقد قدم « لله » المفعول الثانى لجعل ، أو متعلق المفعول الثانى ـ على الرأي الآخر ـ قدم على المفعول الأول ، وذلك لأن تقديمه أبلغ فى الإنكار وأقوى فى الردع والزجر .. وتأمل : « وجعلوا لله شركاء الجن » « وجعلوا الجن شركاء لله . فسوف ترى بعد مابين القولين ، إن محل الإنكار وموضع العناية والغرض من الكلام هو الجار والمجرور « لله » ولذا قدم ليكون الزجر أقوى والتحذير أشد . . . واقرأ قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ)(٢)، وقوله عز وجل : (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ)(٣) تجد فى الآية الأولى : « وعدنا هذا نحن وآباؤنا » وفى الثانية : « وعدنا نحن وآباؤنا هذا » ، وذلك لأن السياق فى الآية الأولى ينبىء بأن مصب الإنكار وموضعه والجهة التى نظر إليها الكفرة وقصدوها بإنكارهم إنما هى البعث ، فبعثهم وإخراجهم بعد موتهم وصيرورتهم ترابا هم وآباؤهم هو الغرض الذى تعمد بالكلام وقصد : « أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون » ؟ ولذا قدم اسم الإشارة المشار به إلى البعث ، إذ هو الغرض المقصود والمساق له الكلام . . أما فى الآية الثانية . فالسياق ينبىء بمدى تمسكهم بعقائد الآباء وحرصهم على ما كانوا وتقليدهم فيها ، فموضع الإنكار ومصبه ، والجهة المنظور منها هى المبعوثون لا البعث . فهم سياق الحديث والغرض الذى تعمد

---

(١) سورة الانعام آية ١٠٠ (٢) سورة النمل آية ٦٧ ، ٦٨

(٣) سورة المؤمنون آية ٨١ ـ ٨٣

هو المطلوب دون رزقهم ، لأنه حاصل ، ولذا قدم الوعد برزق أولادهم على الوعـــد برزقهم . . . وانظر إلى قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)[1] فقد قالوا: إن مفعولى « جعل » قوله « لله شركاء » وقال آخرون : « الجن » مفعول أول و « شركاء » مفعول ثان ، وعلى كلا الرأيين فقد قدم « لله » المفعول الثانى لجعل ، أو متعلق المفعول الثانى – على الرأى الآخر – قدم على المفعول الأول ، وذلك لأن تقديمه أبلغ فى الإنكار وأقوى فى الردع والزجر .. وتأمل : « وجعلوا لله شركاء الجن » ، « وجعلوا الجن شركاء لله » . فسوف ترى بعد ما بين القولين ، إن محل الإنكار وموضع العناية والغرض من الكلام هو الجار والمجرور « لله » ولذا قدم ليكون الزجر أقوى والتحذير أشد . . . واقرأ قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ)[2] ، وقوله عز وجل : (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ)[3] تجد فى الآية الأولى : « وعدنا هـذا نحن وآباؤنا » ، وفى الثانية : « وعدنا نحن وآباؤنا هـذا » ، وذلك لأن السياق فى الآية الأولى ينبىء بأن مصب الإنكار وموضعه والجهة التى نظر إليها الكفرة وقصدوها بإنكارهم إنما هى البعث ، فبعثهم وإخراجهم بعد موتهم وصيرورتهم ترابا هم وآباؤهم هو الغرض الذى تعمد بالكلام وقصد : « إذا كنا ترابا وآباؤنا إنا لمخرجون » ؟ ولذا قدم اسم الإشارة المشار به إلى البعث ، إذ هو الغرض المقصود والمساق له الكلام . . أما فى الآية الثانيـة ، فالسياق ينبىء بمدى تمسكهم بعقائد الآباء وحرصهم على ما كانوا وتقليدهم فيها ، فموضع الإنكار ومصبه ، والجهة المنظور منها هى المبعوثون لا البعث . فهم سياق الحديث والغرض الذى تعمد

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٠

(٢) سورة النمل آية ٦٧ ، ٦٨

(٣) سورة المؤمنون آية ٨١ – ٨٣

به وقصد : « بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أ إنا لمبعوثون » ولذا قدموا هم وآباؤهم على اسم الإشارة المشار به إلى البعث.. « وعدنا نحن وآباؤنا هذا » ... فلما كان الغرض المقصود فى الآية الأولى هو البعث قدم اسم الإشارة ولما كان الغرض المقصود فى الآية الثانية هم المبعوثون قدم مايدل عليهم « نحن وآباؤنا »[1]..

وقد يكون الغرض من تقديم أحد المعمولات على الآخر هو أن تأخيره يخل بالمعنى ويوهم خلاف المراد ، كما فى قوله تعالى : (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ)[2] فقد وصف الرجل بثلاث صفات : الإيمان، وكونه من آل فرعون ، وكتمانه إيمانه، وقدم « من آل فرعون » على « يكتم إيمانه »؛ لأنه لو أخر فقيل: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، لتوهم أنه متعلق بالفعل « يكتم »، وأن الرجل يكتم إيمانه خوفاً من آل فرعون، وفى هذا إخلال بالمعنى المراد، إذ لا يفهم منه عندئذ أن الرجل كان من آل فرعون ، بل يتوهم أنه كان يكتم إيمانه خوفاً منهم، وفى هذا الإخلال - كما قلت - وضياع للهدف والغرض من الآيات؛ إذ المراد إبراز عناية الله تعالى . ورعايته لموسى- عليه السلام- بأن جعل من آل فرعون من يدافع عنه ويجادلهم فيه ويناقشهم من أجله . . . وتأمل قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)[3] وقوله عز وجل : (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)[4] ، تجد الآية الأولى قد قدم فيها الجار والمجرور « من قومه » على صفة الملأ وهى: « الذين كفروا وكذبوا ... » ، وذلك لأنه لو أخر فقيل : « وقال الملأ

(١) انظر الكشاف ٣/٤٠ والإيضاح ٢٣٤/١

(٢) سورة غافر آية ٢٨

(٣) سورة المؤمنون آية ٣٣

(٤) سورة المؤمنون آية ٢٤

الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا من قومه » ، لتوهم أنه من صلة الدنيا ، وأن المعنى وأترفناهم فى الحياة الدنيا من قومه أى : القريبة منهم ، وبذا يكون القائلون ليسوا من قومه ، فدفعا لهذا التوهم قدم الجار والمجرور ، وقد نشأ التوهم من طول الصفة بالصلة وما عطف عليها كما هو واضح . أما فى الآية الثانية فليس فيها ما يوهم خلاف المراد ولذا تأخر الجار والمجرور فلم يقدم على الصفة .

وقد يقدم أحد المتعلقات لإفادة التبكيت والتوبيخ ، كما فى قوله تعالى : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ)[1] حيث قدم الجار والمجرور « من أقصى المدينة » على الفاعل « رجل » ؛ لأن فى هذا التقديم زيادة فى تبكيت أولئك القوم وتوبيخهم ، فقد كانوا قريبين من الرسل ، وشاهدوا منهم مالم يشاهده ذلك الرجل الذى كان فى أقصى المدينة ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد نصح لهم بما لم ينصحوا به أنفسهم ... واقرأ قوله تعالى : (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ : يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)[1] تجد أن الجار والمجرور لم يقدم على الفاعل كما قدم فى الآية السابقة ؛ لأن المقام لم يقتض التقديم هنا كما اقتضى هناك .. وتأمل قوله تعالى : (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)[2] تجد أن تقديم الجار والمجرور على المفعول فى قوله : « بسطت إلى يدك » أفاد أنه كان حريصا على قتل أخيه ، وأن جل اهتمامه متوجه إليه ، إلى قتل الأخ لا إلى مطلق القتل ، وفى هذا من التوبيخ والتبكيت ما فيه . وفيه أيضا تنبيه إلى ما هو مقبل عليه من خطأ

(١) سورة يس آية ٢٠ .
(٢) سورة القصص آية ٢٠ .
(٣) سورة المائدة آية ٢٨ .

ودعوى له أن يتأمل فيرتدع وينزجر ويكف عن قتل أخيه، وانظر إلى الأداة « إن » وإيثار التعبير بها وما ينبيء به ذلك من أن بسط اليد لقتل الأخ ينبغى أن يكون من الأمور المستبعدة النادرة الوقوع ... أما قوله : « ما أنا بباسط يدى إليك » ، فقد أخر فيه الجار والمجرور « إليك » عن المفعول « يدى » لأنه ليس حريصا على قتل أخيه ، بل ليس ممن يصدر عنه القتل مطلقا، وينبيء بهذا أسلوب القصر : « ما أنا بباسط يدى إليك » الذى أفاد نفى البسط عنه وإثباته لغيره .

وقد يكون التقديم من أجل المحافظة على الفاصلة ومراعاة النسق الصوتى وماله من أثر فى المعنى ووقع فى النفس كما فى تعالى : (قَالَ : بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى • فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى • قُلْنَا : لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى)[1] حيث قدم المفعول : « خيفة » والجار والمجرور : « فى نفسه » على الفاعل ؛ لأنه لو قدم عليهما فقيل : فأوجس موسى فى نفسه خيفة ، أو فأوجس موسى خيفة فى نفسه . لكان فى ذلك خروج على النسق الصوتى ، وإخلال بموسيقى النظم ، وما لها من وقع فى النفس وأثر فى المعنى .

وقد تلحظ فى تقديم المتعلقات ما للمقدم من فضل ومزية على المؤخر كما فى قوله تعالى : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ)[2] فقد قدم : « رجالا » ؛ لأن من حج راجلا أفضل منزلة عند الله عز وجل لما يقاسيه من الجهد والمشقة .. ولذا قال ابن عباس رضى الله عنهما - : « وددت لو حججت راجلا ، فإن الله قدم الرجالة على الركبان فى القرآن » . . وتأمل قوله تعالى : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

---

(١) سورة طه آية ٦٦ — ٦٨ (٢) سورة الحج آية ٢٧

الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)[1] تجد أن ترتيب المتعلقات قد لوحظ فيه أفضليتها عند النفس ومدى تعلقها بها، فالنساء أكثر تمكنا فى النفس من البنين لما يظهر فيهن من قوة الشهوة، والبنون أقوى محبة من المال، والذهب أشد تمكنا من الفضة، والخيل أدخل فى المحبة من الأنعام، والأنعام أنفع من الحرث.

إلى غير من الاعتبارات والمزايا البلاغية التى تلاحظ فى تقديم بعض المتعلقات على بعض.

* * *

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر: قد يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر لأغراض ومقاصد يقصد إليها البلاغى ويقتضيها المقام: وصور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر كثيرة، وقدمت لك منها عند الحديث عن أضرب الخبر، تنزيل المنكر منزلة غير المنكر فيلقى إليه الكلام بلا تأكيد، وتنزيل غير المنكر منزلة المنكر فيؤكد له الكلام وجوبا، وكذا تنزيل السائل المتردد منزلة غيره، فيلقى إليه الخبر بلا تأكيد أو مؤكدا وجوبا بأكثر من مؤكد وهذا التنزيل يكون لأغراض بلاغية يقصد إليه المتكلم وقد وقفت عليها هناك[2].

ومنها أيضا: وضع المضمر موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمر، والالتفات وأسلوب الحكيم والقلب والتغليب والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضى، وعن الماضى بلفظ المضارع ... وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن تلك الظواهر الأسلوبية بعد انتهائهم من الحديث عن أحوال المسند إليه، ولكننى آثرت الحديث عنها هنا لأنها ليست قاصرة على المسند

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤.

(٢) انظر ص ٤٣ من هذا الكتاب.

إليه ، بل تتعداه إلى المسند ومتعلقات الفعل ، فهى تشمل كل أجزاء الجملة .
وإليك بيان ذلك .

وضع المضمر موضع المظهر : الأصل فى ضمير الغائب ألا يذكر إلا إذا وجد فى الكلام مايعود هذا الضمير إليه ، وكان متقدما لفظا ورتبة أو لفظا فقط أو رتبة فقط ، فلا يعود ضمير الغائب على متأخر لفظا ورتبة ولذا عد البلاغيون قول الشاعر :

جزى ربُّه عنى عـــدىَّ بن حاتم
جزاء الكلاب العاويات وقد فعـــل

غير فصيح ، إذ عاد الضمير فى قوله : « ربه » على المفعول به : « عدى » المتأخر لفظا ورتبة ، وذا ضعف تأليف يخل بفصاحة الكلام .

وعلى الرغم من وضوح هذا الأصل فإنك تجد بعض الأساليب وقد ذكر فيها ضمير الغائب ثم فسر بمتأخر عنه ، فيكون ذلك وضعا للضمير فى موضع الاسم الظاهر لغرض بلاغى ، وهو الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال ، حتى يتمكن المعنى فى ذهن السامع ، ويستقر فى نفسه ، ويثبت فى فؤاده ... فمن ذلك أسلوب نعم وبئس كقولك : نعم رجلا زيد وبئس عدواً الجهل ، عند إعراب المخصوص بالمدح أو الذم ، مبتدأ خبره محذوف أو خبراً لمبتدأ محذوف ، فيكون فاعل نعم أو بئس ضميراً مستتراً تقديره : « هو » يعود إلى زيد أو إلى الجهل ، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى به اسماً ظاهرا فيقال : نعم زيد رجلا وبئس الجهل عدواً ، إذ لم يتقدم ما يعود إليه الضمير - كما قلت - ، ولكن عدل عن الظاهر إلى الضمير للسر البلاغى المشار إليه .
ومثله قول زهير يمدح هرم بن سنان :

نعم امرأ هرم لم تعـــد نائبة
إلا وكان لمرتاع بها وزرا

أما إذا أعرب المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ والجملة قبله خبرا فعندئذ يكون الضمير عائدا على متقدم فى الرتبة ولا يكون من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر .. ومن وضع المضمر موضع المظهر : ضمير الشأن أو القصة كما فى قوله تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا • فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[1] ، وقوله عز وجل : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)[2] ، وقوله جل وعلا : (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)[3] فالضمير فى قوله : « فإنه ... قل هو ... إنه ... » يسمى ضمير الشأن أو القصة ، ولم يتقدم له مرجع كما ترى ، وإنما فسر بالجملة بعده ، فهو من وضع الضمير موضع الظاهر ، وسره البلاغى هو تفخيم الشأن أو القصة وتثبيتها فى الأنفس ؛ لأن مجىء الضمير مبهما بدون عائد متقدم يجعل المخاطب يشتغل به ويبحث عما يفسره فيصغى إلى الكلام ، وعندما يعثر على المفسر يقع فى النفس موقعا حسنا فيقر بها ويثبت ، لأن للبيان بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال أثراً حسنا فى النفس ووقعاً جميلا ... ويتضح لك هذا لو وضعت الاسم الظاهر موضع الضمير فى الآيات الكريمة ، فقلت : « إن الأبصار تعمى ... قل الله أحد ... إن الكافرين لا يفلحون » .

فإنك تجد الفخامة قد فاتت والروعة قد زالت ، لأنه لم يتقدم عندئذ ما ينبه ويثير النفس إلى التفتيش والتنقيب عن مفسر لما أبهم ، ولذا نجد ضمير الشأن أو القصة لا يستعمل إلا فى الأمور المهمة ، والأخبار ذات البال ،

---

(١) سورة الحج الآية ٤٦ • (٢) سورة الإخلاص الآية ١

(٣) سورة المؤمنون الآية ١١٧

والمعاني الجليلة ، على نحو ما رأيت في الآيات الكريمة ، وعلى نحو ما ترى في قول أبي تمام .

على أنها الأيام قد صرن كلُّها
عجائبَ حتى ليس فيها عجائب

وفي قول الآخر :

هي الدنيا تقول بملء فيها
حذار حذار من بطشي وفتكي

وضع المظهر موضع المضمر : أما وضع المظهر موضع المضمر فيكون لأغراض بلاغية كثيرة يقتضيها المقام ويقصد إليها البلاغي .. انظر إلى قول أحمد بن يحيي المعروف بابن الراوندي وكان يرمى بالزندقة :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه — وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة — وصيّر العالِمَ النحريرَ زنديقا(١)

تجده قد وضع اسم الإشارة في أول البيت الثاني موضع الضمير ، فهو يشير به إلى الحكم السابق في البيت الأول وهو كون العاقل محروما والجاهل مرزوقا ، وهذا الحكم غير محسوس ، فكان ينبغي أن يستعمل الضمير لتقدم مرجعه فيقول : « هو الذي ترك » ولكن الشاعر عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لغرض يقصد إليه وهو كمال العناية بالمسند إليه وتمييزه وإبرازه ، تهيئة للإخبار عنه بذلك الخبر الغريب العجيب ، وهو جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقاً .

---

(١) أعيت مذاهبه : أعجزته طرق معاشه أو أعيت عليه ، متعدية ولازمة .. والأوهام العقول من تسمية المحل باسم الحال مجازا مرسلا .. والنحرير من نحر المسائل علما أى أتقنها .. والزنديق الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام .

وقد يقصد البلاغى بوضع اسم الإشارة موضع الضمير التنبيه إلى غباوة المخاطب وبلادته وأنه لا يدرك إلا الأمور المحسوسة ، كما ترى فى قول الفرزدق مخاطبا جريرا :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

إذ كان ينبغى أن يقول : « هم آبائى » لتقدم الحديث عنهم فى الأبيات السابقة ، ولكنه آثر التعبير باسم الإشارة : « أولئك » ، للتعريض بغباوة جرير والتنبيه إلى بلادته وقلة فهمه ، وكأنه يريد أن يبرز ويصور جريراً فى صورة من لا يدرك إلا الأمور المحسوسة ، ولا يخفى عليك ما وراء اسم الإشارة الموضوع للبعيد : « أولئك » من تعظيم لآباء الفرزدق وتنبيه لسمو مكانتهم وعلو منزلتهم ... وقد يقصد البلاغى باستخدام اسم الإشارة مكان الضمير الدلالة على كمال ظهوره وتمام بيانه ، حتى كأنه صار مرئياً ومدركا بالحواس ... كما فى قول الشاعر :

تعاللت كى أشجى وما بك علة

تريدين قتلى ، قد ظفرت بذلك

فمقتضى الظاهر أن يقول : قد ظفرت به ، ولكنه عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة للدلالة على ظهور القتل وكمال وضوحه وأنه لا يخفى على أحد ، لأنه صار مرئيا للجميع ، ولعلك تحس أيضاً بما وراء التعبير بتلك الجملة : « قد ظفرت بذلك » من تمنعه وتأبيه على صويحباته ، وكأنه لا رغبة له فيهن ، فهو لا يهوى إلا تلك التى تعاللت ، وهى وحدها التى ظفرت بأسره وتملكه ...

واقرأ قوله تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ

النَّارُ)[1] ، وقوله عز وجل : (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ • وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[2] ، فقد عبر باسم الإشارة : «تلك» و « ذلكم » فى موضع الضمير للدلالة على كمال التمييز وتمام ظهوره ، فقد بلغ الغاية فى الظهور والبيان حتى صار مدركا بالحواس ... وكذا القول فى الآية الثانية ، فقد بلغ ظنهم الغاية فى الظهور والبيان حتى صار كأنه مدرك بالحواس ، مشار إليه .. ويقول المعلم بعد إيضاح مسألة لتلاميذه أو إظهار رأى : « وهذا واضح .. وتلك بينة جلية » ... فيدل باسم الإشارة على تمام ظهور الرأى ، وكمال بيان المسألة ... وكذا يقول الخصم عند مجادلة خصمه ومحاولته إقامة الحجة عليه : « وهذه ظاهرة أو مسلمة » ، فكان مقتضى الظاهر أن يقول : وهى ظاهرة ، ولكنه عدل إلى خلاف الظاهر ادعاء لكمال الظهور وتمام البيان .

وقد يقصد بوضع الظاهر موضع المضمر زيادة التمكين والتقرير ، وقوة تثبيته فى الأنفس والسرائر ، انظر إلى قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ • اللهُ الصَّمَدُ)[3] تجد إيثار التعبير بالاسم الظاهر وهو لفظ الجلالة فى قوله « الله الصمد » وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فيقال : « وهو الصمد » لتقدم مرجعه ، ولكن النظم الكريم آثر التعبير بالاسم الظاهر « الله » لزيادة تمكينه فى الأنفس ، وتقريره وتثبيته فى الأذهان ، إذ التعبير بالاسم الظاهر أقوى وأبلغ فى إبراز المعنى واستقراره فى النفس من التعبير بالضمير .. وخذ قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ

---

(١) سورة الرعد آية ٣٥ (٢) سورة فصلت آية ٢٢ ، ٢٣
(٣) سورة الإخلاص الآية ١ ، ٢

يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِيءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(١) تجد أن وضع لفظ الجلالة موضع الضمير فيه زيادة تثبيت وتقرير ، لأنه يوحى بالجلال والعظمة ويعمل على تربية مهابة الحق فى الأنفس والسرائر ، ولو عبر بالضمير فقيل : « إن ذلك عليه يسير . . ثم هو ينشىء . . إنه على كل شىء قدير . . . » لما كان فى التعبير إلى ذلك المعنى سبيل . . وتأمل قوله تعالى : (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)(٢) تجد أن إعادة الاسم الظاهر « وبالحق » قد أفاد من التوكيد وإبراز المعنى وتثبيته فى النفس مالم يفده الضمير لو قيل : وبه نزل . . .

واقرأ قول الشاعر :

إن تسألوا الحق نعط الحق سائله ... والدرع محقبة والسيف مقروب

وقول الآخر :

نفس عصام سودت عصاما ... وعلمته الكر والإقداما

وتأمل فرق ما بين : « إن تسألوا الحق نعط الحق » ، وقولك : إن تسألوا الحق نعطه ، وبين : « نفس عصام سودت عصاما » ، وقولك : نفس عصام سودته ، فستجد الفرق دقيقا وسوف يتبين لك أن التعبير بالاسم الظاهر فيه من الإيضاح وإبراز المعنى ، وتقريره وتثبيته ، ما ليس فى التعبير بالضمير . وقد يقصد بوضع الظاهر موضع الضمير تقوية داعى المأمور إلى الامتثال وتحقيق الأمر ، كما فى قوله تعالى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)(٣) ، فقد أوثر التعبير بلفظ الجلالة فى موضع الضمير

(١) سورة العنكبوت آية ١٩ ، ٢٠ (٢) سورة الإسراء آية ١٠٥

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩

حيث لم يقل : فتوكل على إنى أحب ، لما فى ذلك من تقوية الداعى إلى الامتثال وتحقيق التوكل وإيجاده ، فهو توكل على الله الذى يحب المتوكلين ... وقد يقصد به إدخال الروع فى نفس السامع وتربية المهابة حتى يقبل على الامتثال والخضوع كقول الخليفة : أمير المؤمنين يأمر بكذا ، فمقتضى الظاهر أن يقول : أنا آمر ، ولكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر لما فيه من تربية المهابة وإدخال الروع فى الأنفس فتقبل إلى الامتثال والخضوع ... وقد يقصد به الاستعطاف كما فى قول الشاعر :

إلهى عبدك العاصى أتاك ... مقرا بالذنوب وقد دعاك
فإن تغفر فأنت لذاك أهل ... وإن تطرد فمن يرحم سواك

فلم يقل : أنا العاصى أتيتك ، وقال : « عبدك » فوضع الظاهر فى موضع الضمير . لما فى الظاهر من الإشعار بالعبودية المنسوبة لرب العزة ، وما يكون وراء ذلك من ترقب الشفقة والرحمة ، واستحقاق العطف ... وقد يقصد به إبراز الوصف الذى يفيده الاسم الظاهر وتقريره ، لإفادة مقصد يقصد إليه البلاغى كما ترى فى قوله تعالى : (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)[1] ، فقد أعيد ذكر « الذين ظلموا » ولم يقل : فأنزلنا عليهم ، لما فى الاسم الظاهر من إبراز معنى الظلم وتقريره ، والإشارة بذلك إلى أنهم قد استحقوا العذاب النازل عليهم بسبب هذا الظلم ... ونرى هذا الأسلوب يرد كثيراً فى النظم الكريم ليحقق مقاصد وأهدافا دقيقة .

انظر إلى قوله تعالى : (ص • وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ • كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ : هَذَا سَاحِرٌ

(١) سورة البقرة الآية ٥٨

كَذَّابٌ)(١) ، وقوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا : مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا : مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرَى ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ)(٢) نجد أن في التعبير بالكافرين في قوله . «وقال الكافرون» وبالذين كفروا في قوله : «وقال الذين كفروا للحق . . .» إبرازاً لمعنى الكفر وتسجيلا عليهم وإبرازهم جاحدين كافرين متعنتين ، وتصوير مدى ضلالهم وتعاميهم عن الحق الواضح ، فقد كفروا به وقالوا وقد وضح لهم وبان : «إن هذا إلا سحر مبين» ، ووصفوا الحق الواضح بالسحر المبين ، فلا عجب إذا ما نزل بهم العذاب وأهلكوا كما أهلك الكفرة من قبلهم ... وتأمل قوله تعالى : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)(٣) تجد أن ذكر المؤمنين في موضع الضمير حيث لم يقل : على رسوله وعليكم ، قد أبرز هذه الصفة وأبرز اتصافهم بها واستحقاقهم لها ووراء ذلك من التعظيم والتكريم مالا يخفى عليك ثم تأمل مدى التحقير والإهانة بإعادة ذكر الكافرين في قوله : «وذلك جزاء الكافرين» ، وأن لم يقل : وذلك جزاؤهم ، لما في الاسم الظاهر من وسمهم بتلك السمة وإبرازهم بهذا الوصف .

وقد يوضع الظاهر موضع الضمير قصدا لإجراء أوصاف عليه كما في قوله تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ

---

(١) سورة ص الآيات ١ — ٤ (٢) سورة سبأ الآية ٤٣

(٣) سورة التوبة الآية ٢٥ ، ٢٦

النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ)[1] فوضع الاسم الظاهر «ورسوله» موضع الضمير حتى يمكن وصفه بما بعده من صفات .. وفيه أيضا إبراز لمعنى الرسالة وتثبيت لها فى النفوس وإيضاح أن الإيمان بمحمد – عليه الصلاة والسلام – إنما هو من أجلها فنحن نؤمن به رسولا نبيا ، ولا نؤمن بذاته مجردة من تلك المهمة ، أى : نؤمن بكونه رسولا نبيا أميا يؤمن بالله وكلماته ...

* * *

أسلوب الالتفات : الالتفات مأخوذ من قولهم : التفت الإنسان إذا تحول بمنقه من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين ، وأول من أطلق هذه التسمية هو الأصمعى ، فقد روى أنه سأل بعض من كان يتحدث إليه فقال له : أتعرف التفاتات جرير ؟ فأجاب لا . فما هى ؟ قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بشامة سقى البشام

ألا تراه مقبلا على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له ؟ ..

وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى
لا زلت فى غلل وأيك ناضر

فالتفت إلى الحمام فدعا له[2] .

فهو يطلق الالتفات على نوع من التعبير وهو ذلك الكلام الذى يظن المخاطب أن محدثه قد فرغ منه وانتهى من معناه وسيترك هذا المعنى ويتجاوزه

---

(١) سورة الأعراف ١٥٨

(٢) انظر الصناعتين ٣١١ .. والبشام : شجر طيب يستاك به .. وذو الأراك : مكان ينبت فيه شجر الأراك .. والأيك : الشجر الملتف . والغلل . المكان الخصب الذى يجرى بالغلة .

إلى معنى آخر ، وإذا به يلتفت إلى المعنى الذى فرغ منه فيذكره بغير ماتقدم ذكره به ... ومن قبل أشار أبو عبيدة إلى نوع آخر من الالتفات وإن لم يسمه بهذه التسمية حيث يقول : « ومن مجاز ما جاءت به مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قول الله تعالى : (حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ)[١] أى بكم »[٢].

ثم جاء عبد الله بن المعتز فذكر فى كتابه البديع أن الالتفات يرد على نوعين : نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك ، وهذا هو ما يصدق عليه الالتفات فى الآية التى ذكرها أبو عبيدة . ونوع ينصرف فيه المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر ، وهذا ما ذكره الأصمعى[٣]..

وقد أهمل البلاغيون النوع الثانى فلم يتحدثوا عنه ، وفصلوا القول فى النوع الأول، واشتهر فى تحديد مفهومه رأيان: رأى للسكاكى ورأى لجمهور البلاغيين . أما الجمهور فيرون أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة وهى التكلم أو الخطاب أو الغيبة ، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها .. وأما السكاكى فيرى أنه التعبير بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره ، فهو يلتقى مع الجمهور فى الجزء الأول من التعريف ويخالفهم فى الجزء الثانى، إذ يرى فى نحو قول ربيعة بن مقروم :

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا
وأخلفتك ابنة الحر المواعيدا[٤]

---

(١) سورة يونس آية ٢٢ (٢) مجاز القرآن ١١ .
(٣) انظر البديع ١٠٧
(٤) بانت : بعدت .. ومعمودا : حزينا .. وابنة الحر هى سعاد ..

التفاتا ، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول : وأخلفتني ، فالتفت إلى الخطاب وقال : وأخلفتك . . ومثله قوله أيضاً :

تذكرتَ والذكرى تهيجك زينبا ... وأصبح باقي وصلها قد تقضّبا
وحل بفَلْجٍ فالأبَاترِ أهْلُنا ... وشطَّت فحلّت غَمْرَةً فمثقبا[1]

إذ كان مقتضى الظاهر أن يعبر بطريق التكلم فيقول : تذكرت ولكنه خالف هذا الظاهر فالتفت إلى الخطاب كما ترى ، ولا يخفى عليك ما في البيت الأول من وضع المظهر موضع المضمر في قوله : « ابنة الحر » إبرازاً لصفة الحرية وتقريرا لها ، ومايضفيه ذلك على فتاته «سعاد» من أصالة وتشريف . . كما لايخفى عليك الالتفات في البيت الثالث حيث التفت من الخطاب في قوله : تذكرت إلى التكلم في قوله: أهلنا ، وهذا التفات على رأي السكاكي والجمهور معاً ، أما الالتفاتان الأولان فعلى رأي السكاكي فقط ، ويمكن أن يحملا على التجريد ، وأن ربيعة جرد من نفسه شخصاً آخر وأخذ يخاطبه قائلا : وأخلفتك .. تذكرت ، وتلك عادة مشهورة بين الشعراء . . . وعند تأمل تعريفي السكاكي والجمهور للالتفات يتضح لك أن تعريف الجمهور أخص ، فكل التفات عندهم التفات عند السكاكي ، وليس كل التفات عند السكاكي التفاتا عندهم على نحو مارأيت في البيتين المذكورين ، فقد جعلهما السكاكي من الالتفات بناء على مذهبه فيه ، وحملهما الجمهور على التجريد - كما بينا - . .

صور الالتفات وما يكمن وراءها من أسرار بلاغية : مما تقدم يتبين لك أن للالتفات - على مذهب الجمهور - ست صور ووراء كل صورة من هذه الصور ، بل وراء كل شاهد من شواهد الالتفات مغزى بلاغي جليل ، وهذا

(١) تقضب : جف ويروى تقضب بمعنى : انقطع .. وفلج والأباتر وغمرة ومثقب أماكن .. وشطت : بعدت .

يقتضى منا أن نقف مع كل صورة من صوره وقفة متأنية لمعرفة ما وراء شواهدها من دقائق وأسرار . .

الصورة الأولى ـ الالتفات من التكلم إلى الخطاب : كما فى قوله تعالى : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[1] ، فقد التفت من التكلم فى قوله : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » إلى الخطاب فى قوله : « وإليه ترجعون » . وفضلا عما يفيده أسلوب الالتفات من تحريك وإثارة وإيقاظ لمشاعر السامع وأحاسيسه ، وتنبيه لذهنه وفكره ، لما فيه من التنويع وعدم المضى على وتيرة واحدة ؛ ـ فضلا عن ذلك ـ فإنك تشعر بما وراءه فى الآية الكريمة من ترغيب للقوم واستمالة لهم نحو الهدى وقبول الحق واتباع المرسلين ، حيث أجرى التعجب من عدم العبادة على نفسه : « مالى لا أعبد » حتى لا ينفروا من قبول النصح ، ويتضح لك هذا الغرض أكثر عند ما ترجع إلى سياق الآيات الكريمة : « ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » ، فقد أضافهم إلى نفسه ثم بين لهم أن المرسلين لا يسألونهم أجرا على تبليغ الرسالة وهذا أدعى لاتباعهم وقبول ماجاءوا به ، ثم هم فوق ذلك مهتدون ، فينبغى الاقتداء بهم ، ولما أراد أن يتعجب من تخلى القوم عن هؤلاء الرسل وعدم الاقتداء بهم فى عبادة الله وحده ، أجرى هذا التعجب على نفسه ملتفتا عنهم : « مالى لا أعبد » ، حتى يكون فى ذلك مزيد من الاستمالة والترغيب ، ثم التفت إليهم محذراً من استمرارهم فى الباطل ، وتماديهم فى الضلال ، ومبينا لهم أن مرجعهم إلى الله وحده الذى فطرهم « وإليه ترجعون » ، وبهذا يتبين لك ما وراء الالتفات من ترغيب واستمالة وإمحاض المناصحة ثم التعقيب بالتحذير الشديد . . وانظر إلى قوله تعالى : (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِن

---

(١) سورة يس ٢٠ ، ٢٢ .

المُشْرِكِينَ)[1] ، تجد التفاتاً من التكلم فى قوله «إنى امرت أن أكون أول من أسلم» إلى الخطاب فى قوله : «ولا تكونن من المشركين» ، ووراء هذا الالتفات ما وراءه من وعيد وتهديد ، وتحذير من الوقوع فى الشرك ، ومما يبرز هذا الانتقال من الخبر فيما سبق إلى النهى فيما لحق فقد أمر الله - سبحانه وتعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر وأن يقول إنه أمر أن يكون أول من أسلم ، ثم نهاه رب العزة : «ولا تكونن من المشركين» ، إنه وعيد شديد لمن يستمر على الشرك ، ولا عجب فهو أكبر الأكابر ، والله عز وجل لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)[2] ، وتجد كثيرا من الأحاديث الشريفة التى حذرت من الشرك ، وبينت أنواعه المختلفة ، وطرقه العديدة ، التى ينبغى على المسلم أن يتبينها ، وأن يبتعد عنها حتى يكون بمنأى عن كل ما يؤدى إلى الشرك بربه .

الصورة الثانية : الانتقال من التكلم إلى الغيبة : كما فى قوله تعالى : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)[3] حيث التفت من التكلم فى قوله : «إنا أعطيناك» إلى الغيبة فى قوله : «فصل لربك» ، إذ الأصل : فصل لنا ، وترجع بلاغة الالتفات فى الآية الكريمة إلى ما فى التصريح بلفظ الرب من الحث على فعل المأمور به لأن من يربيك ويرعاك فهو جدير بعبادتك ، مستحق لصلاتك وإذا كان الالتفات مقويا لداعى الصلاة ، ومنبهاً وحاثا إلى أدائها والحرص عليها ... ومن ذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤ . (٢) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٣) سورة الكوثر الآية ١ ، ٢

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(١) فقد انتقل من التكلم فى قوله : « إنى رسول الله » إلى الغيبة فى قوله : « فآمنوا بالله ورسوله » وكان مقتضى الظاهر أن يقال : فآمنوا بالله وبى ، وترجع بلاغة الالتفات فى الآية إلى أن الاسم الظاهر قد مكن من إجراء تلك الأوصاف : « النبى الأمى الذى . . » على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفيه أيضا إشارة وتنبيه إلى أن الإيمان والتصديق ليس لذات محمد عليه الصلاة والسلام وإنما بتلك الصفات أى : بكونه رسولا نبيا أميا يؤمن بالله وكلماته ، فهى بمثابة البرهان على صدق رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومثله قوله تعالى : (حمۤ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(٢) فقد التفت من التكلم فى قوله : « إنا أنزلناه . . . إنا كنا . . . من عندنا . . . » إلى الغيبة فى قوله : « رحمة من ربك » ، وتكمن بلاغة الالتفات فى الآية الكريمة فى التصريح بلفظ الرب الذى يشير إلى معنى التربية والرفق والعناية ، وملاءمة هذا لمعنى الرحمة المذكورة ، وفيه أيضا تهيئة للعبارة لخطاب المنزل عليه وهو الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ . . .

وخذ قوله تعالى : (يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ)(٣) فالأصل : لا تقنطوا من رحمتى ، فالتفت إلى الغائب إبرازا للفظ الجلالة الملائم لذكر الرحمة والمغفرة .

الصورة الثالثة : الالتفات من الخطاب إلى التكلم : كما فى قوله تعالى : (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ)(٤) وقوله

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨
(٢) سورة الدخان الآية ١ ، ٦
(٣) سورة الزمر آية ٥٣
(٤) سورة هود آية ٩٠

جل وعلا : (قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)(١) فقد التفت فى الآيتين من الخطاب فى قوله : « استغفروا ربكم ثم توبوا . . . » إلى التكلم فى قوله : « إن ربى » وهذا الالتفات ينبىء بعظمة ذى الجلال ورحمته وإجابته من دعاه . واختصاصه - سبحانه وتعالى - بتلك الصفات ، ويدفع توهم انصرافها إلى آلهتهم فيما لو قيل « إن ربكم رحيم ودود . إن ربكم قريب مجيب » .

ومن ذلك قول علقمة بن عبدة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب
يكلفنى ليلى وقد شط وليها ... وعادت عواد بيننا وخطوب(٢)

فقد التفت من الخطاب فى قوله : طحا بك قلب ، إلى التكلم فى قوله يكلفنى ليلى ، وهذا الالتفات ينبىء بأنه معنى بالبلاء إلى أبعد حد ولذا أجرى الكلام المتعلق بها على نفسه إجراء مباشراً ، فإنه أقوى مما لو قيل : يكلفك ليلى بصيغة الخطاب .

الصورة الرابعة : الالتفات من الخطاب إلى الغيبة : كما فى قوله تعالى : (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ . .)(٣) .

---

(١) سورة هود آية ٦١ .

(٢) طحا : ذهب وبعد . . وتصغير « بعيد » يفيد أن هذا كان قريبا من عنفوان الشباب . . وطروب بمعنى له طرب ونشاط فى طلبهن . . وشط وليها : بعد قربها وعادت عواد : رجعت عوائق كانت تحول بيننا إلى ما كانت عليه ، ويجوز أن تكون « عادت » من المعاداة . . وخطوب : أحداث .

(٣) سورة فصلت آية ٢٣ ، ٢٤ .

فقد التفت من الخطاب في قوله : « ذلكم ظنكم .. فأصبحتم » إلى الغيبة في قوله : « فإن يصبروا » وهذا الالتفات ينبئ بالطرد من رحمة الله ، وذلك بإبعادهم عن ساحة الحضور والمخاطبة ، وصيرورتهم إلى مكان سحيق حيث النار والعذاب . وإن يستعتبوا ندما فلا عتاب . . . ومثـله قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ . . .)[1] التفت من الخطاب في قوله : « كنتم في الفلك » إلى الغيبة في قوله : « وجرين بهم » ، وبلاغة هذا الالتفات تكون في أنهم لما كانوا في مقام الحضور والمشاهدة خوطبوا فلما جرت بهم السفن وابتعدوا لاءم هذا أن يتحدث عنهم بطريق الغيبة . وشيء آخر وراء الالتفات وهو أنه يشعر بأن هؤلاء الذين إذا أصابهم ضر دعوا ربهم ، فإذا نجاهم بغوا في الأرض بغير الحق ، يستحقون الإبعاد وعدم الالتفات إليهم بالمخاطبة ، وأن تروى قصتهم وتحكى تشهيرا بهم واعتباراً لمن يعتبر

وانظر إلى قوله تعالى : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)[2] تجد إقبال الله عليهم بالخطاب لكونهم أمة واحدة ، فلما تقطع الأمر بينهم وتشتت كيانهم واختلفوا غابوا عن مشهد الحق ، وغاب عنهم المنهج القويم ، والدستور الحكيم ، فانصرف الله عز وجل عنهم وهذا هو سر الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في الآية الكريمة .. ولعلك تشعر بنبرة الوعيد والتهديد لهؤلاء الذين تقطع أمرهم بينهم في قوله جل وعلا : « كل إلينا راجعون » وكذا القول في قوله تعالى :(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[3]

---

(١) سورة يونس الآية ٢٢

(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٢ ، ٩٣

(٣) سورة النحل الآية ١

فقد التفت عن المشركين التفات الغاضب المتوعد . . ونحو قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)[1] تجد أن الالتفات من الخطاب فى قوله : « جاءوك » إلى الغيبة فى قوله « واستغفر لهم الرسول » ، يفيد تفخيم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتعظيم استغفاره والتنبيه إلى أن شفاعة واستغفار من اسمه « الرسول » من الله بمكان.

الصورة الخامسة : الانتقال من الغيبة إلى التكلم : كما فى قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . .)[2] ، حيث التفت من الغيبة فى قوله : « والله الذى أرسل الرياح » إلى التكلم فى قوله : « فسقناه . . فأحيينا به » .

وينبىء هذا الالتفات بأهمية السوق والإحياء ، وبتجلى قدرة الله عز وجل فى سوق السحاب وإحيائه تلك الأرض الميتة ، فهذا ضرب من قسمة الأرزاق بين الناس ، ولذا ناسب أن يلتفت إليهما رب العزة سبحانه وتعالى . وانظر إلى قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[3] . فقد التفت من الغيبة فى قوله : « استوى . فقال . . فقضاهن . . وأوحى » إلى التكلم فى قوله : « وزينا » وهذا الالتفات يشير إلى أن السماء الدنيا من أظهر وأوضح الآيات التى تدل على قدرة الخالق جل وعلا ، ولذا حث القرآن فى مواضع كثيرة على النظر إليها وتأمل مابها ، فكأن الالتفات هنا لفت المؤمن إلى موضع العبرة والعظة .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٤ (٢) سورة فاطر الآية ٩

(٣) سورة فصلت الآية ١١ ، ١٢

وخذ قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1] . تجد التفاتا من الغيبة فى قوله : « الذى أسرى بعبده ليلا » إلى التكلم فى قوله : « باركنا حوله لنريه من آياتنا » ، ثم إلى الغيبة ثانية فى قوله : « إنه هو السميع البصير » .

ويذيء هذا الالتفات بما للمسجد الأقصى من مكانة ، فقد بارك الله حوله ، ولم يقل « بارك » بناء على الظاهر فيمضى الأسلوب على طريقة واحدة ، بل قيل : « باركنا » تنبيها للمؤمن إلى تلك المكانة السامية ، كما يبرز الالتفات أيضا الغاية من الإسراء وهى إراءة النبى من الآيات الكبرى ، فقـــد التفت إليها : « لنريه من آياتنا » إشارة إلى أن ذلك هو المراد وهو الغـاية من الإسراء .

وتأمل قوله تعالى : (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ . . .)[2] تجد عدة التفاتات ، فقد التفت من الغيبة فى قوله : « خلق .. وألقى .. وبث » إلى التكلم فى قوله : « وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا .. » وهذا الالتفات ينبيء بأهمية الإنزال والإنبات لهم ، فهم إليهما متطلعون وبهما متعلقون ، إذ لاحياة لهم بدون الماء والنبات .. ثم رجع إلى الغيبة فى قوله : « هذا خلق الله » وكان الأصل أن يقال : هذا خلقنا . وتشعر بما وراء هذا الالتفات من التصريح باسم الله الأعظم وماله من أثر كبير فى تربية المهابة واستمتاع المؤمن بذكره والنطق به .. ثم التفت ثانية إلى التكلم

---

(١) سورة الإسراء آية ١ (٢) سورة لقمان آية ١٠ ــ ١٢

فى قوله : « فأرونى » ولعلك تشعر بنبرة الوعيد والتحذير وراء هذا الالتفات الأخير .. وفى الآيات التفات آخر من الخطاب فى قوله : « ترونها .. بكم .. فأرونى » إلى الغيبة فى قوله : « بل الظالمون فى ضلال مبين » لو كان مقتضى الظاهر أن يقال : بل أنتم ، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين :

أولهما : أن الخطاب فى الآيات عام ، وليس كل المخاطبين فى ضلال مبين ، بل الظالمون منهم .

وثانيهما : أن فى الالتفات تسجيلا على هؤلاء ، ووسمهم بتلك الصفة ، صفة الظلم التى صيرتهم فى ضلال مبين ، وعما قليل ستجعلهم فى عذاب مهين ...

الصورة السادسة : الالتفات من الغيبة إلى الخطاب : كما فى قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ...)(١) . فقد التفت من الغيبة فى قوله : « مالك » إلى الخطاب فى قوله : « إياك نعبد .. » وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى ما تحـــدثه الآيات فى نفس المؤمن من زيادة الخشوع والتقرب إلى ربه جل وعلا ، فقد بدأت بذكر الحمد وربوبيته تعالى للعالمين ثم الرحمة الغامرة فملكه ليوم الدين وعندما تقع تلك المعانى فى نفس المؤمن يزداد قربا إليه تعالى فيخاطبه معلنا اختصاصه بالعبادة ومد العون « إياك نعبد وإياك نستعين » وتأمل آخر السورة الكريمة : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)(٢) حيث نسب الإنعام إليه تعالى تعظيما لشأنه ولم ينسب الغضب إليه بل بنيت العبارة للمفعول تأدبا ولطفا ... وفى ذلك ما فيه من تعظيم للمنعم عليهم وتحقير وتنفير من المغضوب عليهم .. ومن هذه الصورة قوله تعالى : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ

---

(١) سورة الفاتحة آية ٢ : ٥ (٢) سورة الفاتحة آية ٧

سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً)[1] حيث التفت من الغيبة فى قوله : « سقاهم ربهم » إلى الخطاب فى قوله : « لكم . . سعيكم » تكريما وتعظيما للمتحدث عنهم .

وقوله تعالى : (وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا)[2] التفت من الغيبة فى قوله : « قالوا » إلى الخطاب فى قوله : « جئتم » تنبيهاً إلى عظم هذا الافتراء وتوبيخا لهم وردعا حتى لكأنهم حاضرون ومواجهون بافترائهم تأنيباً لهم وتسفيهاً لعقولهم

ومنه شعرا قول عبد الله بن عنمة الضبى :

ما إن ترى السيد زيدا فى نفوسهم
كما يراه بنو كرز ومرهوب
إن تسألوا الحق نعط الحق سائله
والدرع محقبة والسيف مقروب
وإن أبيتم فإنا معشر أنف
لا نطعم الخسف إن السم مشروب[3]

فقد التفت من الغيبة فى قوله : « زيدا » إلى الخطاب فى قوله : « تسألوا » وذلك مواجهة لهم بالحديث ، وكأنهم مشاهدون أمام الشاعر ، يوجه إليهم حديثه ويطلب منهم إبداء رأيهم والإفصاح عن نواياهم . . ثم التفت من الخطاب فى : « تسألوا » إلى الغيبة فى قوله : « سائله » ، وكان مقتضى

---

(١) سورة الإنسان الآية ٢١ ، ٢٢ (٢) سورة مريم ٨٨ ، ٨٩

(٣) السيد وزيد وكرز ومرهوب : أحياء من ضبة قوم الشاعر ، يريد أن السيد لا يوجبون لزيد من الحرمة والنصرة ما يوجبه كرز ومرهوب والضمير فى قوله «تسألوا» : لزيد . . والمحقبة : المشدودة فى الحقيبة . . والمقروب : الموضوع فى قرابه . وأنف : أعزة . . والخسف : الذل . . والمراد بقوله : « والسم مشروب » أنهم أقوياء أشداء قد اعتادوا الشدائد والأهوال .

الظاهر أن يقول : « نعطه لكم » ولكنه عدل عن المضمر إلى المظهر ، فأعاد ذكر الحق ، ثم التفت فقال : « سائله » ؛ لأنه يريدهم سائلين الحق ، خاضعين له ، وهذا هو سر الالتفات ، إنه أبرز السؤال وقرره ، كما قرر استعمال الظاهر فى موضع الضمير « الحق » وأبرزه ، ولو مضى الأسلوب على ما يقتضيه الظاهر ، فقيل : إن تسألوا الحق نعطه لكم ، لما تحققت تلك الإفادة التى قصد إليها الشاعر .

وأما قول امرىء القيس :

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلى ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءنى وخبرته عن أبى الأسود(١)

ففيه التفات من الخطاب فى قوله : « ليلك .. ولم ترقد » إلى الغيبة فى قوله : « وبات وباتت له » ، ثم إلى التكلم فى قوله : « جاءنى وخبرته » . أما البيت الأول فلا التفات فيه إلا على مذهب السكاكى ، والجمهور - كما رأيت - يرون أنه من قبيل التجريد .

هذا وإذا كان لكل أسلوب من أساليب الالتفات فائدة خاصة وغرضا محدداً يعرف من خلال النظر فى السياق ومعرفة قرائن الأحوال - كما رأيت - ، فإن هنالك فائدة عامة تراها فى كل التفات ، وهى أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن وأبلغ فى تجديد نشاط السامع ، وأكثر

---

(١) الأبيات قيل إنها لامرىء القيس حندج بن حجر الجاهلى وقيل : لامرىء القيس بن عابس الصحابى فى رثاء ابن عمه أبى الأسود وقيل لعمرو بن معديكرب والأثمد : اسم موضع . والعائر : قذى العين .. والأرمد : المصاب بالرمد وأبو الأسود على القول الأول كنية أبيه حجر ملك بنى أسد والخبر الذى جاءه هو خبر قتله .

إيقاظا لمشاعره وتنبيها لأحاسيسه ، فيقبل إلى الكلام ويصغى إليه ، وعندئذ يقع فى نفسه موقعا حسنا ، ويحقق فوائده وأغراضه المرجوة .

أسلوب الحكيم : ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أسلوب الحكيم ، وقد عرفوه بقولهم : « تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، أو تلقى السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له . . »[1] فمن الأول قول ابن القَبَعْثَرَى الشيبانى وكان ممن خرجوا على الحجاج ابن يوسف الثقفى ، فقال له الحجاج متوعدا بالقيد : « لأحملنك على الأدهم » ، فقال ابن القبعثرى حاملا كلامه على غير مراده : « مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب » .

فقد أبرز وعيده فى معرض الوعد ، لأن الحجاج أراد بالأدهم : القيد ، وابن القبعثرى أراد به : الفرس الأدهم وهو الذى يغلب سواده على بياضه ، ثم عطف عليه الأشهب وهو الذى غلب بياضه على سواده ، وكأنه يريه بألطف وجه أن من كان على صفته فى السلطان وبسطة اليد لجدير به أن يكرم لا أن يعذب وأن يعد فيعطى لا أن يتوعد ويهدد ، ولذا لما قال له الحجاج بعد ذلك : « إنه الحديد » أجابه : « لأن يكون حديدا خير من ان يكون بليدا » صرف كلامه أيضا إلى غير مراده ، لأن الحجاج أراد أنه قيد حديد ، فصرفه ابن القبعثرى إلى الفرس قائلا : لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا ، أى : لأن يكون الفرس ذا حدة وقوة ونشاط خير من أن يكون بليدا فاترا . وهو بهذا ينبهه إلى أن ما ينبغى أن يفعله يجب أن يكون من جنس التكريم والإنعام فهذا هو الأولى بمن فى مثل مقامه ، واللائق بمن فى مكانته وعلو منزلته واقرأ قول الشاعر :

---

(١) انظر الإيضاح ١/١٦٠

أنت تشتكي عندي مزاولة القرى
وقد رأت الضيفان ينحون منزلى
فقلت كأنى ما سمعت كلامها
هم الضيف جدى فى قراهم وعجلى

فقد جاءته تشتكى مزاولة القرى ، وذلك لكثرة ضيوفه ، فهى لا تكف عن العمل فى إعداد الطعام لهم ، إذ كلما ذهب ضيف أقبل آخر ، وبدل أن يجيبها فيخفف عنها مزاولة القرى ، ويكف أو يقلل من ضيافته ، يطلب منها الجد ومضاعفة الجهد : « هم الضيف جدى فى قراهم وعجلى » . فهذا هو المهم عنده واللائق به ، لا أن يحقق ما أرادت ويمتنع عن إكرام الضيفان . . . تراه قد حمل كلامها على غير مراده . ووجهه إلى ما ينبغى أن يكون ، وكأنه يخطئها فيما قالت ، ولذا سماه عبد القاهر : أسلوب المغالطة ، وسماه غيره من البلاغيين . أسلوب الحكيم ، لأنها مغالطة حكيمة لطيفة ، حيث لم تقم على المواجهة الصريحة المكشوفة ، بل قامت على الإخفاء واللطف والطرافة ، مراعاة للأدب والذوق .

انظر إلى قوله :

وقالوا : قد صفت منا قلوب
نعم ، صدقوا ولكن عن ودادى

وتأمل : كيف يخطئهم ويكذبهم وهو يقول : صدقوا . . . إنها مغالطة حكيمة لطيفة . . .

ومن الثانى : أى تلقى السائل بغير ما يتطلبه سؤاله ، بأن ينزل هذا السؤال منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله والمهم له ، قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .)[1] فقد سألوه عليه الصلاة

(١) سورة البقرة آية ١٨٩

والسلام عن الهلال فقالوا : ما باله يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يتزايد قليلا حتى يعظم ويستوى ثم لايزال ينقص حتى يعود مثل ما بدأ ؟ أى أنهم سألوا عن السبب وعن العلة فى تغيير منازل القمر ، فأجيبوا ببيان الحكمة والفائدة من ذلك التغيير : « قل هى مواقيت للناس والحج » تنبيها على أنه الأولى بحالهم والمهم لهم . . . ومنه قوله عز وجل : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ : مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . .)(١) . فقد سألوه عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف للتنبيه على أنه هو المهم لهم وهو الذى ينبغى أن تتجه إليه هممهم وعنايتهم ، فليس المهم أن يكون المنفق قليلا أو كثيرا ذهبا أو فضة مادام من جنس الخير ، ولكن المهم أن يصرف فيما ينبغى أن يصرف فيه وأن يقع فى موقعه المشروع ، ولله در القائل :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة
حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا صنعت صنيعة فاعمد بها
لله أو لذوى القرابة أودع

واقرأ قوله تعالى : (قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)(٢) . تجد أن فرعون قد سأل عن رب

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٥ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢٣ — ٢٦ .

العالمين يريد أن يعرف ذاته : « مارب العالمين » أى : ما نوعه وما جنسه ، ثم سأل من حوله معجبا ومتعجبا أيسمعون ؟ ثم أكد جنون موسى ـ عليه السلام ـ وفى كل مرة يصرف موسى السؤال عن ظاهره ويجيب بما لا يتطلبه السؤال : رب السموات والأرض وما بينهما ، ربكم ورب آبائكم . . . رب المشرق والمغرب . . . وذلك لينبههم إلى أن هذا هو المهم لهم وهو الذى ينبغى أن يسألوا عنه وأن يشغلوا به .

* * *

أسلوب القلب . ومنها أسلوب القلب وهو أن يجعل المتكلم أحد أجزاء الكلام مكان جزء آخر بجعله مكانه على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر ، فليس منه التقديم فى نحو قولك : فى الدار زيد ، وضرب عمراً زيد ، لأنك فى مثل هذا التقديم لم تثبت حكم المقدم للمؤخر ولا العكس .

وقد قسم البلاغيون القلب إلى قسمين :

١ ـ قلب معنوى ، وهو أن يكون الداعى للقلب من جهة المعنى ، وذلك لتوقف صحته عليه ، ويكون اللفظ تابعاً . . ومنه قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، إذ الأصل : عرضت الحوض على الناقة ، لأن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور واختيار لأجل أن يميل إلى المعروض أو يحجم عنه ، والداعى إلى هذا القلب هو أن المعتاد فى ذلك أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه ، ولما كانت الناقة هى التى يؤتى بها إلى الحوض ، نزل كل منهما منزلة الآخر فأعطى حكمه . . ومثله قولك : أدخلت الخاتم فى الإصبع ، والقلنسوة فى الرأس ، والثوب فى الجسم ، فالأصل أن يقال : أدخلت الإصبع فى الخاتم والرأس فى القلنسوة والجسم فى الثوب ، وذلك لأن العادة جرت أن يتحرك بالمظروف نحو الظرف ولكن لما كان المظروف فى الأمثلة وهو الإصبع والرأس والجسم ثابتا ، والظرف وهو الخاتم والقلنسوة والثوب متحركا ، نزل أحدهما منزلة الآخر فأعطى حكمه .. ومن ذلك قول رؤبة :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

إذ الأصل كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه فقلب التشبيه لقصد المبالغة وقول أبي تمام يصف قلم الممدوح :

لعاب الأفاعي القاتلات لعـــابه
وأرىُ الجَـــنَى اشتارته أيدٍ عواسلُ[1]

والأصل : لعابه لعاب الافاعي وأرى الجنى ، فقلب التشبيه للمبالغة وقول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

والأصل تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح فعكس مبالغة في التشبيه .

ومنه قول الآخر :

رأين شيخا قد تحنى صلبه يمشي فيقعس أو يكب فيعثر

والأصل : أو يعثر فيكب ، فقلب مبالغة في ضعفه ووهنه وأنه صار يعثر حتى في أثناء انكبابه . .

٢ - قلب لفظي : وهو أن يكون الداعي إليه من جهة اللفظ ، بأن تتوقف صحة اللفظ عليه ، ويكون المعنى تابعاً ، كما إذا وقع ماهو في موقع المبتدأ نكرة وما هو في موقع الخبر معرفة . . ومثاله قول القطامي :

قفي قبـــل التفرق ياضباعا ولا يك موقف منك الوداعا[2]

(١) أرى الجنى : العسل من إضافة الموصوف للصفة ، واشتارته : جنته والأيدى العواسل : العـــارفة بجنيه ، والصفة الأولى صفة القلم مع الأعداء والثانية صفته مع الأصدقاء . .

(٢) الألف في : « ضباعا » للاطلاق وهو مرخم ضباعة اسم بنت للقطامي وقيـــل اسم امرأة غيرها . .

والقلب فى قوله : ولا يك موقف منك الوداع ، لأن الشاعر عرف « الوداع » وهو فى موضع الخبر ، ونكر « موقف منك » وهو فى موضع المبتدأ ، فهو قلب لفظى والأصل . ولا يك موقف الوداع موقفا منك ، إذ لا يصح الإخبار بالمعرفة عن النكرة ولذا جعل من القلب ، ولو أن الشاعر قال ولا يك موقف منك وداعاً بتنكير « الوداع » لاستغنى عن تقدير القلب فى البيت ، لأنه عندئذ يكون الأسلوب قد جاء على الأصل من الإخبار بالنكرة عن النكرة المعتمدة على مسوغ وهو الوصف : « منك » والنهى : « لا يك » . وهذا قد أجازه النحاة .. ومنه أيضا قول حسان :

كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء

على أنيابها أو طعم غض ... من التفاح عصره اجتناء[1]

فقوله : يكون مزاجها عسل وماء قلب لفظى ، لأنه نكر ما فى موضع المبتدأ وعرف ما فى موضع الخبر ، والأصل فيهما العكس - كما عرفت - ، ويروى البيت برفع « مزاجها » على أن اسم يكون ضمير الشأن وجملة : مزاجها عسل وماء ، خبرها ، وعندئذ فلا قلب فى البيت . .

آراء البلاغيين فى أسلوب القلب : اختلف البلاغيون فى أسلوب القلب ، فبعضهم يقبله مطلقا ، ولو أوهم خلاف المراد ، ومن هؤلاء السكاكى ، وحجتهم أنه أسلوب يورث الكلام ملاحة ولطفا ، لأن قلب الكلام محوج إلى التفكر والتنبه للأصل . . . ورده بعضهم مطلقاً ، واحتجوا بأن الكلام إنما وضع لإفادة مايصح ، والقلب يؤدى إلى مالا يصح ، لأنه عكس المطلوب ويرى الجمهور أن القلب لا يمكن إنكاره ورده لأنه وارد على ألسنة العرب وكثيرا ما يكون له اعتبارات لطيفة ومزايا حسنة ، كما أنه لا يمكن قبوله

---

(١) السبيئة : الخمر المشتراة للشراب ، وبيت رأس بلد بالشام بين رملة وغزة ، والغض : الطرى ؛ وقوله : عصره بمعنى أساله كناية عند إدراكه وقت نضجه ، شبه ريق محبوبته بخمر مزجت بعسل أو بسائل التفاح . .

مطلقا ، لأنه قد يوهم خلاف المراد ، وقد يرد ولا يكون وراءه اعتبار لطيف ولذا فهم يقبلون منه ما تضمن اعتباراً لطيفاً زائداً على مجرد الملاحة ، كما رأيت فى الأمثلة والشواهد المتقدمة . ويردون ما لا يتضمن اعتبارا لطيفا . لأنه عندئذ يكون عكساً للمراد وعدولا عن الظاهر بلا نكتة يعتد بها ... فمن ذلك القلب المردود قول القطامى يصف ناقته :

فلما أن جرى سمن عليها ❊ كما طيّنت بالفدن السياعا

أمرت بها الرجال ليأخذوها ❊ ونحن نظن أن لن تستطاعا(١)

يريد : أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع ، وفى ذلك قلب معنوى ، إذ الأصل : كما طينت الفدن بالسياع ، فإن حمل السياع على الآلة التى يطين بها ، فليس وراء القلب عندئذ اعتبار لطيف ، وإن حمل على الطين فيجوز أن يكون المقصود المبالغة فى سمنها لأنه يقصد عندئذ تشبيه السمن بالسياع الذى صار لكثرته كأنه الأصل ، والفدن هو الفرع فكذلك السمن قد صار ضخماً عظيما ، ولكن هذا لا يخلو من تكلف كما ترى .. ومنه قول قطرى ابن الفجاءة :

لا يركنن أحد إلى الإحجام ❊ يوم الوغى متخوفاً لحمام

فلقد أرانى للرماح دريئة ❊ من عن يمينى مرة وأمامى

حتى خضبت بما تحدر من دمى ❊ أكناف سرجى أو عنان لجامى

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ❊ جذع البصيرة قارح الإقدام(٢)

---

(١) الفدن : القصر والسياع : الطين المخلوط بالتبن ، أو الآلة التى يطين بها ، يعنى أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع ، وقوله : أن لن تستطاع معناه : الن يقدر عليها أحد لملاستها وضخامتها .

(٢) الإحجام : التأخر . والوغى : الحرب . والحمام : الموت . والدريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن شبه نفسه بها وهى من الدرء بمعنى الدفع . وأكناف السرج : جوانبه =

والشاهد فى البيت الأخير ، إذ الجذع يطلق على حديث السن غير المجرب للأمور ، فالأصل أن يقال : جذع الإقدام قارح البصيرة ، لأنه يفخر بنفسه ويتمدح ، وهذا لا يتأتى إلا على القلب ، إذ يقال فى المدح : «إقدام غر ورأى مجرب» ، وبناء على ذلك فالقلب لم يتضمن معنى لطيفاً ، بل أوهم خلاف المراد ، وقد أجيب عنه بأنه لا قلب فى البيت بل المعنى يحتمل أحد أمرين · أولهما : أن قوله : «لم أصب» بمعنى : لم أوجد ، وليست بمعنى : لم أجرح ، بدليل البيت قبله ، فإن الخضاب بما تحدر من دمه يدل على أنه جرح ، وأيضاً فحوى كلامه ينبىء بأنه جرح ولم يمت ، إذ يعلن أن الإقدام غير علة للحمام ويحث على الشجاعة وينفر من الفرار والإحجام ، فمعنى البيت الأخير : ثم انصرفت وقد أصبت من الأعداء ولم أوجد جذع البصيرة قارح الإقدام بل وجدت : قارح البصيرة جذع الإقدام ، وثانيهما : أنه يريد أن يشبه بصيرته بالجذع فى عدم الاختلاط والتزلزل من الهول ، وأن يشبه إقدامه بالقارح فى الصبر والاحتمال ولا يخفى عليك أن الإجابة الأولى أقوى وأقرب لأنها تتفق مع سياق الأبيات ، وعلى كلتا الإجابتين فلا قلب فى البيت كما هو واضح .

ومن القلب المردود قول عروة بن الورد :

فلو أنى شهدت أبا سعاد غداة غدا لمهجته يفوق
فديت بنفسه نفسى ومالى وما آلوك إلا ما أطيق(١)

فالأصل : فديت نفسه بنفسى ومالى ، وليس وراء هذا القلب اعتبار لطيف ، لأنه يوهم خلاف المراد .. ومنه قول خداش :

= والعنان سير اللجام . وجذع البصيرة بمعنى غير مجرب للأمور وقارح الإقدام بمعنى إقدام أصحاب السن القديمة .

(١) يقال : فاق بمهجته ولمهجته يفوق : إذا أشرفت نفسه على الخروج أو خرجت . وما آلوك بمعنى : لم أقصر فيك .

وتلحق خيـــل لا هوادة بينها ، وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر(١)

فالأصل : وتشقى الضياطرة الحمر بالرماح فهو قلب معنوى لا تجد وراءه اعتبارا لطيفا ، وقد ذكر له سوى القلب وجهان: أحدهما أن يجعل شقاء الرماح بهم استعارة لكسرها وتحطيمها بطعنهم بها والثانى أن يجعل نفس طعنهم شقاء للرماح ، تحقيرا لشأن الضياطرة وأنهم ليسوا أهلا لأن يطعنوا بها كما يقال : شقى الخز بجسم فلان ، إذا لم يكن أهلا للبسه .. ومنه قول حسان السابق :

كأن سبيئة من بيت رأس ، يكون مزاجها عسـل وماء

وقول القطامى وقد سبق أيضا :

قفى قبل التفرق ياضـــباعا ، ولا يك موقف منك الوداعا

وقد وقفت على ما فى البيتين من قلب لفظى ليس وراءه اعتبار بلاغى ، وتبين لك أن بيت حسان يمكن حمله على غير القلب .

هل يوجد أسلوب القلب فى النظم الكريم : أجاب بعض البلاغيين بنعم وزعموا أن منه قوله تعالى : (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)(٢) ، على أن الأصل : جاءها بأسنا فأهلكناها . وقوله تعالى : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)(٣) ، والأصل ثم تدلى فدنا ، وقوله تعالى : (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)(٤) ، والأصل : فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم ، ومنع ذلك

---

(١) الهوادة : اللين والملق : لا لين بين اصحابها . والضياطرة جمع ضيطار وهو الضخم اللئيم العظيم الإست . والحمر : جمع أحمر اللون وقيل هو الذى لا سلاح معه .

(٢) سورة الأعراف آية ٤ . (٣) سورة النجم آية ٨ .

(٤) سورة النمل آية ٢٨ .

الجمهور ، لأنه لا يوجد وراء تقدير القلب فى الآيات الكريمة إعتبار لطيف ، ولذا رأوا أن الأصل فى الآيات : وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا . ثم أراد الدنو من محمد - صلى الله عليه وسلم - فتدلى أى : فتعلق عليه فى الهواء . ثم تولى عنهم أى : تنح إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك ، فانظر ماذا يرجعون ، فيقال : إنه دخل عليها من كوة فألقى الكتاب إليها وتوارى فى الكوة ليسمع ما يقولون . .

أسلوب التغليب : ومنها التغليب وقد عرفوه بقولهم: هو إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر بجعله موافقا له فى الهيئة أو المادة ، كما فى قوله تعالى : (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ)(١) فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وكانت من القانتات ، ولكن النظم الكريم عدل عن ذلك فعد الأنثى من الذكور بحكم التغليب ، وفيه إشعار بأنها قد بلغت فى طاعتها مبلغ أولئك الرجال فعدت منهم .. ومنه قوله تعالى : (لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)(٢) فقد أدخل شعيب - عليه السلام - فى قوله : « لتعودن » بحكم التغليب ، لأنه لم يكن فى ملتهم أصلا حتى يقال: إنه يعود فيها ، وإنما غلب عليه الذين آمنوا معه فعد منهم وكان مقتضى الظاهر أن يقال : أو ليعودن . . ومثله قوله جل وعلا : (إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا)(٣) ، ومنه قوله تعالى : (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ)(٤) فقد عد إبليس من الملائكة بحكم التغليب .. وقوله عز وجل : (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً

(١) سورة التحريم الآية ١٢
(٢) سورة الأعراف الآية ٨٨
(٣) سورة الأعراف الآية ٨٩
(٤) سورة البقرة الآية ٣٤

وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[١] فمعنى « يذرؤكم فيه » : يبثكم ويكثركم فى هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا حتى كان بين الذكور والإناث التوالد والتناسل ، وقد جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير ، ولذا عبر بالحرف « فى » دون « الباء » فقيل : « يذرؤكم فيه » ولم يقل : « به » ، ونظيره قوله تعالى (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)[٢] ، حيث جعل القصاص كالمنبع والأصل للحياة . . والتغليب فى الآية الكريمة تغليب العقلاء المخاطبين على الأنعام الغائبة ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : يذرؤكم ويذرؤها فيه . .

ومن تغليب أحد المتشابهين على الآخر قولنا الأبوان للأب والأم ، والقمران للشمس والقمر ، والعمران لعمر وعمرو . . ومن التغليب أيضا خطاب الواحد خطاب الاثنين والجمع ، وخطاب المثنى مخاطبة الجمع ، حيث يغلب المثنى على المفرد والجمع على المفرد والجمع على المثنى . . وهكذا . . من ذلك قوله تعالى : (قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ)[٣] فكان مقتضى الظاهر أن يقال : وتكون لك الكبرياء فى الأرض ، فعدل عن هذا إلى قوله : « لكما » تغليبا للمثنى على المفرد ، والمراد بالمثنى : موسى وهارون — عليهما السلام — .. ومنه قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)[٤] . حيث غلب الجمع على الواحد وكان مقتضى الظاهر أن يقال : « إذا طلقت النساء فطلقهن » فعدل إلى الجمع ؛ لأنه حكم عام وتشريع للأمة وليس خاصا به — عليه الصلاة والسلام — ومنه قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ

---

(١) سورة الشورى آية ١١
(٢) سورة البقرة آية ١٧٩
(٣) سورة يونس آية ٧٨
(٤) سورة الطلاق الآية ١

قبلةً)(١) فكان مقتضى الظاهر أن يقال : واجعلا بيوتكما قبلة ، فعدل عن ذلك إلى قوله جل وعلا : « واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة » تغليبا للجمع على المثنى ، لأن الأمر لم يعد خاصا بموسى وهارون ، بل تجاوزهما إلى كل مكلف بلغ بالرسالة .

المخالفة فى صيغ الأفعال : ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر المخالفة فى صيغ الأفعال بأن يعبر عن المستقبل بلفظ الماضى أو باسم الفاعل أو المفعول ، وعن الماضى بلفظ المضارع ، وعن المصدر أو المضارع بلفظ الأمر. وذلك لا يكون إلا لأغراض بلاغية ومزايا يقتضيها المقام ويهدف إليها البلاغى . انظر إلى قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ)(٢) تجد التعبير عن المضارع بلفظ الماضى فى الآية الكريمة لسر بلاغى ، وهو إفادة تحقق الوقوع ، وأن ما هو للواقع فى المستقبل وهو النفخ فى الصور وصعوق من فى السموات والأرض كالواقع الآن ؛ لأنه واقع لا محالة . . ومثله قوله عز وجل : (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)(٣) قيل : « ففزع » و « أتوه » والمراد : فيفزع ويأتونه ، إذ الحدث لم يقع بعد ، ولكن عبر عنه بالماضى إشارة إلى تحقق وقوعه ، فهو واقع لا محالة . .

وكذا القول فى الآيات الكريمة : (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً)(٤) . . . (أَتَى أَمْرُ اللهِ

---

(١) سورة يونس الآية ٨٧ . (٢) سورة الزمر الآية ٦٨
(٣) سورة النمل آية ٨٧ (٤) سورة الكهف الآية ٤٧

فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)(١) ... (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً)(٢) فالتعبير بالماضى عن الأحداث المشار إليها جعل المتوقع الذى لا بد من وقوعه فى المستقبل بمنزلة الواقع المحقق ، وهكذا عندما تقرأ أساليب القرآن الكريم تجد لهذا التعبير مذاقا حلوا ووقعا حسنا ، اقرأ قوله تعالى : (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ . قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)(٣) وتأمل الأفعال : أزلفت .. برزت .. قيل .. كبكبوا .. قالوا ، وكيف قربت الجنة للمتقين وهم ما زالوا أحياء فى الدنيا ، وكيف برزت الجحيم ، وقيل للغاوين ما قيل تبكيتا ، بل كيف قالوا هم : تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، وهم لا يزالون يعاندون فى الدنيا ويكابرون .. واقرأ قوله : (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ)(٤) ... وقوله تعالى : (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ)(٥) ، وقوله عز من قائل : (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ)(٦) وتأمل كيف طويت الأحداث فى الآيات وأبرزت تلك الأفعال محققة واقعة ويرجع ذلك إلى

---

(١) سورة النحل الآية ١

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٨

(٣) سورة الشعراء آية ٩٠ - ٩٧

(٤) سورة النمل آية ٩٠

(٥) سورة الزمر آية ٦٩

(٦) سورة ق آية ١٩ - ٢٣

التعبير عنها بلفظ الماضى كما ترى . . ومثل ذلك التعبير عن المضارع باسم الفاعل كقوله تعالى: (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)(١) أو باسم المفعول كقوله عز وجل: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)(٢)، فقد عبر فى الآيتين عما سيقع لا محالة باسم الفاعل واسم المفعول فأفاد ذلك تحقق وقوعه؛ لأن اسم الفاعل وكذلك اسم المفعول حقيقة فى المتلبس بالفعل فى الحال اتفاقاً وفى الماضى على قول ضعيف ، فالتعبير بهما عن الواقع فى المستقبل يفيد تحقق وقوعه ، وأنه لا محالة واقع . . .

ومن التعبير عن الماضى بلفظ المضارع قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ)(٣) فقد عبر عن الماضى بلفظ المضارع فى قوله : « فتثير سحابا » استحضارا لصورته العجيبة البديعة الدالة على القدرة الباهرة ، وكأنها واقعة أمامك وأنت تشاهدها الآن وتتأملها وتبصر ما فيها من عجب وغرابة فيكون تأثيرها أشد ووقعها أقوى . . ومثله قوله تعالى : (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ)(٤) أى : ما تلت فعبر بالمضارع استحضارا لصورته العجيبة . . وكذا القول فى الآيات الكريمة : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ)(٥) . . (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)(٦) . . . (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(٧) وقد مرت بك هذه الآيات

---

(١) سورة الذاريات آية ٦

(٢) سورة هود آية ١٠٣

(٣) سورة فاطر آية ٩

(٤) سورة البقرة آية ١٠٢

(٥) سورة السجدة آية ١٢

(٦) سورة الحج آية ٣١

(٧) سورة آل عمران آية ٥٩

عند الحديث عن «لو» ، كما مر بك أيضا التعبير بالمضارع عن الماضى فى قول تأبط شرا وزعمه أنه قد قتل الغول عندما تعرضت له فى الفلاة :

فشدت شدة نحوى فأهوت   لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلا دهش فخرت   صريعا لليدين وللجران(١)

فكان مقتضى الظاهر أن يقال : فكأنما خر من السماء فخطفته الطير أو هوت به الريح ... ثم قال له كن فكان ... فأهوت لها كفى فضربتها . ولكن عدل عن هذا المقتضى إلى التعبير بالمضارع لإبراز تلك الأحداث وإحضارها ماثلة أمامك مشاهدة بناظريك ؛ لأنها أحداث عجيبة غريبة .. تخيل المشرك وقد خر من السماء والطير تخطفه أو الريح تهوى به إلى مكان سحيق .. وتمثل أمامك القدرة الإلهية ؛ «كن فيكون» وتصور تأبط شرا يصارع الغول ويضربها فتخر صريعاً ويريح الإنسانية من شرها ومن شر الإخافة بها .. ثم تأمل قوله عز وجل : (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)(٢) حيث لم يعبر بالماضى فيقال : «إذ حكما فى الحرث» ولا باسم الفاعل فيقال : «مسبحات» حسب مقتضى الظاهر ، ولكن عدل عنه إلى المضارع إبرازاً وإحضاراً لصورة الحدثين وهما يقعان وكأن القارىء يشاهدهما يحدثان أمامه .. ومثل التعبير بالمضارع عن الماضى استحضارا وإبرازا لصورته العجيبة ، التعبير به عن اسم الفاعل أو اسم المفعول كما فى الآية السابقة وكما فى قوله تعالى : (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ)(٣) ، فمقتضى الظاهر أن يقال : «مسبحات» ؛ لأن التسبيح قد

---

(١) ارجع إلى ص ٢٢٤ من هذا الكتاب

(٢) سورة الأنبياء آية ٧٨ ، ٧٩   (٣) سورة ص آية ١٨

وقع في زمن داود عليه السلام ، ولكن النظم الكريم خالف هذا الظاهر وعبر بالمضارع : « يسبحن » ليحضر الحدث من الماضي البعيد ويبرزه في مقام المشاهدة وكأنك تنظر إلى هذا الحدث العجيب واقعاً أمامك ، وذلك لأن تسبيح الجبال وتأويبها مع داود من الأحداث العجيبة الدالة على قدرة الله عز وجل . ومثله قوله تعالى : (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)[١] ، وقوله عز وجل : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ)[٢] فكان مقتضى الظاهر أن يقال : فسخرنا له الريح جارية بأمره . . ولسليمان الريح عاصفة جارية بأمره . . ولكن عدل عن هذا الظاهر فعبر بالمضارع إحضاراً لتلك الصورة العجيبة الدالة على القدرة الإلهية وكأنك حين تقرأ الآيات تشاهد الريح تجري بأمر سليمان عليه السلام ، وتتمثل صورة جريانها بقدرة الله تعالى وتسخير الله إياها له عليه السلام .

وقد يعبر بفعل الأمر عن الماضي أو المضارع كما في قوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)[٣] إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال : أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم ودعوته مخلصين . . فعدل عن هذا الظاهر إلى الأمر : وأقيموا . . وادعوه ، للدلالة على مزيد العناية بالمأمور به ، وإفادة أن السامع ينبغي أن يلتفت إليه ، وأن يؤمر به ، وينبه إلى عظمه وأهميته . . وتأمل قوله تعالى : (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ • إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)[٤] تجد أن مقتضى

---

(١) سورة ص الآية ٣٦ (٢) سورة الأنبياء الآية ٨١
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٩ (٤) سورة هود الآية ٥٣ ، ٥٤

الظاهر أن يقال : أشهد الله وأشهدكم فعدل عن ذلك إلى الأمر : « واشهدوا » لمغزى بلاغي جليل وهو أن في أمرهم أن يشهدوا ببراءته من دينهم ضربا من التحدي الذي ينبيء بحقارة ما يعبدون ... وفيه أيضا دلالة على أن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، ولذا عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ...

هذا وبعض البلاغيين كالعلوي صاحب الطراز وابن الأثير صاحب المثل السائر ، يجعل مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال من باب الالتفات الذي مر بك ، كما يجعلون منه أيضاً مخاطبة الواحد خطاب المثنى أو الجمع ومخاطبة المثنى خطاب الجمع أو الواحد ونحو ذلك مما يخرج فيه الكلام عن مقتضى الظاهر ، إذ يرون أن الالتفات هو العدول عن أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول ، ويقولون إن هذا أحسن من قصره على العدول من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة ، أي : من قصره على الانتقال من إحدى طرق الكلام إلى الأخرى ، كما مر بك ..

وأيا ما كان الأمر فلا نرى لمثل هذا الخلاف فائدة ، لأن المهم هو أن تعرف هذه الصور التي خالفت مقتضى الظاهر ، وتقف على ما وراءها من مزايا وأسرار بلاغية ، أما كونها من الالتفات أو جعلها صورا مستقلة عنه ، فإن ذلك لن يفيد الدارس شيئا ، ولذا ضربنا صفحاً عن مناقشة مثل هذه الخلافات ..

٭ ٭ ٭

تم بحمد الله تعالى الجزء الأول من كتاب «علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني» ، ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الثاني وأوله أسلوب القصر . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصل اللهم على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

في ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٧ هـ — المؤلف

عنيزة — القصيم — د/ بسيوني عبد الفتاح

محتويات الجزء الأول

تصويب الخطأ

صفحة	سطر	الخطأ	صوابه
١٣	١٧	الصرف	الصرفى
٢٦	١٥	بحلها	بخلها
٣٧	١	إعلام بعد المؤمنين	إعلام المؤمنين
٣٨	٢	ثمر	ثغر
٣٩	١٠	قيل	قبيل
٤٧	١٧	بحده	بجحده
٥٤	٧	رَبكَ	رَبّكَ
٦١	١	أو فى معناه	أو مافى معناه
٦٢	١٤	فلان	فلان
٦٢	١٦	أنه	أنه
٨٩	١٩	يتوف	يتوقف
٢٥٠	١٩	والشت	والشتم
٢٥٧	١٥	(١)	(٢)
٢٥٧	١٨	(٢)	(٣)
٢٥٧	١٩	يقتص	يقتض
٢٧٣	٨	الكاب	الكتاب

رقم الايداع ٧٤٦٨ / ٨٧